القواعد النحوية

مادتها وطريقتها

تأليف

عبد الحميد حسن

الأستاذ بكلية دار العلوم

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

صبحي (وشركاه)

القواعد النحوية

مادتها وطريقتها

تأليف

عبد الحميد حسن
الأستاذ بكلية دار العلوم

الطبعة الثانية

١٩٥٢

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
صبحي (وشركاه)

مطبعة العلوم ١٦٣ شارع الخليج بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملهم للصواب ، الهادى إلى الرشاد ، والصلاة والسلام على نبيه الفصيح اللسان ، الطاهر الجنان ، وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجهم فى إنارة طرق الإصلاح ، وسلك سبيلهم فى إقامة دعائم الثقافة والتفكير السليم .

(وبعد) فهذا بحث فى القواعد النحوية سطرته حين اشتركت فى إلقاء محاضرات بمعهد الدراسات العليا الذى أنشأته وزارة المعارف .

وقد ظهرت الطبعة الأولى منه فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، وهذه هى الطبعة الثانية ، وبها تنقيحات وزيادات .

وإنى أرجو أن يحقق هذا الكتاب ماقصدت من وضع خطة صالحة للدرس والبحث ترتكز على الأسس الصحيحة . والله أسأل أن يجعله نافعاً ومرشداً إلى الطريق القويم ؟

القاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٥٢

عبد الحميد حسن

القواعد النحوية

شغلت القوعد النحوية جانباً من اهتمام الباحثين فى الثقافة العربية منذ بدأ التدوين فى مختلف العلوم ، وكثر الجدل فى المسائل النحوية ، ونشأت مذاهب مختلفة للنحاة فى الأمصار العربية، وتعمق الباحثون فى سرد الأسباب والعلل والشواهد .

ثم نهج الخلف نهج السلف فى العناية بعلم النحو ، فألفوا المتون والشروح والحواشى وغيرها واختطوا طريقة فى البحث ومعالجة الموضوعات شاعت فى القرون الوسطى والعصور الأخيرة .

وقد سارت المدارس ومناهجها وامتحاناتها على نمط يشبه هذا بعض الشبه أو كله ، وأصبح للقواعد النحوية فى بعض الآونة شأن يكاد يجعلها تاج اللغة العربية وغرة علومها . وظلت الحال على ذلك فترة من الزمن ، إلى أن اتجهت العناية إلى إنهاض اللغة العربية وإلى البحث الشامل فى فروعها المختلفة وفى طرق تدريسها وأمثل السبل للظفر منها بالقسط الوافى ، وللسير فى تعليمها على أقوم الأساليب .

وسنعالج هذا البحث من ناحيتين : الأولى القواعد النحوية فى المدارس، والثانية القواعد النحوية فى ميدانها العلمى ، مسترشدين فى كل ذلك بمكانة القواعد النحوية من اللغة الصحيحة والبيان السليم ، وبالغاية ، التى تقصد منها فى مراحل الدرس والتحصيل .

القواعد النحوية فى المدارس

جرى العرف فى تعليم القواعد النحوية فى المدارس على أن تكون لها مناهج خاصة ودروس مستقلة تتجه إلى معالجتها واستنباط مسائلها وتسطير تعاريفها وشروطها وما إلى ذلك مما جرت العادة باقتباسه مما سطر فى الكتب

التى وضعت فى علم النحو قديماً وحديثاً ، ومتابعة هذه الكتب فى الاصطلاحات النحوية التى وضعها العلماء فى المطولات التى سارت فى ترتيب علم النحو طبقا لوضعه الفنى ، لا على حسب ارتباطه بنمو اللغة فى أذهان المتعلمين .

جرى العرف بكل هذا وأصبحت القواعد النحوية غاية فى ذاتها ، توضع لها المناهج وتحدد الدروس فى خطة الدراسة . وفى حقبة من الزمن ليست بالقليلة كانت القواعد النحوية وسردها غاية من غايات التعليم ، ومقصدا من مقاصد الامتحانات العامة والخاصة . ولا يزال لهذا النظام بقية فى نظم التعليم وفى الامتحانات فى بعض دور التعليم أو كثير منها .

ولو وزنا الأمور بغاياتها وقسناها بمقاصدها لوجب أن نعدل عن هذا النهج وأن نجعل للقواعد النحوية فى مدارسنا شأناً غير الشأن من حيث المناهج والكتب والتمرينات وطرق التدريس .

ولعل أمثل ما نسترشد به فى الوصول إلى النهج القويم أن ننظر إلى الموضوع فى ضوء الغاية من القواعد النحوية وارتباطها باللغة وحاجة التلاميذ إليها ، لنتخذ من هذا عوناً على الوصول إلى أوضح سبيل فى الاختيار وفى التدريس والتمرين .

وسيكون نهجنا أن نصل إلى الغاية من أيسر الطرق وأقربها ، وأن نجعل هذه الغاية وحدها رائدنا ، دون أن نضع من الوسائل عقبات تلوى العنان أو تصرف الذهن ، ولا نتقيد فى الاصطلاحات أو غيرها إلا بما يكون فى التمسك به فائدة لتحقيق الغرض الذى ننشده ويقره التعليم الصحيح .

والطريقة العامة التى سنتخذها أساساً لتعليم القواعد النحوية هى الطريقة العملية التى ترتكز عليها اللغة وينبع تعليمها منها . ورائدنا فى هذا حقيقة لا ريب فيها ، وهى أن القواعد النحوية إن هى إلا خصائص للغة العربية تلازمها فى أوضاعها وفى جميع أحوالها ، وتصطبغ بها أساليبها وعباراتها . فالطريقة التى تثبت هذه الأساليب فى الأذهان وتطبعها فى اللسان وفى الأذن

ستكفل لنا إيضاح هذه الخصائص ومزجها بعقول المتعلمين وطبعها فى أذهانهم، وتصل بنا إلى تحقيق الغاية المنشودة . بل إن هذه الأساليب هى هيكل اللغة ومعدنها ،فاذا استطعنا أن نظفر بوسيلة نملك بها زمامها ونروض شامسها،فان هذه الوسيلة نفسها هى التى تمكننا من تعليم القواعد وتذليل صعبها .

ومن الثابت الذى لاجدال فيه أن تعلم اللغة إنما يجىء عن طريق معالجة اللغة نفسها ومزاولة عباراتها،فليكن تعليم القواعد إذن على هذا النهج الذى نرتكز فيه على اللغة الصحيحة ومعالجتها وعرضها على الأسماع والأنظار وتمرين الألسنة والأقلام على استخدامها .

ولا يخالجنا الشك فى أن تعليم القواعد على هذه الطريقة أنجع وأجدى، فقد ظللنا السنين الطوال ندرسها تدريسا مستقلا، ونسلك فى ذلك الطرق السليمة والسقيمة، فلم يغن كل هذا فى الوصول إلى الغاية . ولايزال كثير من التلاميذ الذين استقامت أساليبهم وسمت عباراتهم ونمت مقدرتهم البيانية يخطئون فى أسهل القواعد النحوية ، على ما بذلوا من وقت وجهد فى درسها واستذكارها . ولو كنا قد سرنا فى تعليمهم منذ البدء على طريقة مزج القواعد بالتراكيب وبالتعبير الصحيح لرسخت اللغة وأساليبها رسوخا مقرونا بخصائصها الأعرابية أو النحوية ، ولأصبح كل هذا صادراً عن ذوق عربى سليم .

على أن تعليم القواعد على هذا النهج ليس بالطريقة الجديدة ،فان المعلمين منذ بدءوا يسايرون الأساليب الصحيحة للتربية والتعليم،قد اقتنعوا بما يسمى الطريقة الاستنباطية أوالاستقرائية ،وهى التى يبدءون فيها بالأمثلة ثم يشيرون إلى مافيها من خصائص،وبعد ذلك يستنبطون القاعدة ويدونونها أمام أنظار التلاميذ ويكلفونهم نقلها فى كراساتهم، أو الرجوع اليها فى كتب ألفت على هذا النمط ، ثم يتبعون ذلك بتطبيقات ذات نوعين : (١) الأول التطبيق الوجودى أى الذى تعرض فيه أمثلة يطبق عليها التلاميذ قواعد الأعراب. (٢) والثاني الايجادي أو التكويني وهو الذي يكلف فيه التلاميذ انشاء جمل

تشتمل على قواعد خاصة مما درسوه ويجيئون بأمثلة تتجلى فيها بعض الظواهر أو التعاريف النحوية .

ففى هذه الطريقة بعض ما نشير اليه من الارتكاز فى تعليم القواعد على العبارات الصحيحة ، وليس من شك فى أن المربين الذين أشاروا باتباع هذه الطريقة إنما قصدوا المعنى الذى نريد إبرازه الآن،وهو جعل اللغة الصحيحة أساسا لتعليم القواعد ، والاكثار من عرض العبارات السليمة فى ضروب شتى من مقاصد الحياة التى تناسب المتعلمين وتتصل بعقولهم . قصد المربون هذا وقصدوا أيضا أن يكون تنفيذه على النسق الذى يحقق الغاية .

ولكن بعض الذين تصدوا لتطبيق ذلك على تعليم القواعد النحوية العربية التوت بهم السبل فنسوا الغاية المنشودة ، وانحرفوا بهذه الطريقة عن القصد، وتغالوا فى الافتنان فى تخير أمثلة بتراء متكلفة مقيدة بأغلال من شبح ما جروا وراءه من القواعد وألفاظها واصطلاحاتها ، ولم تكن لهم غاية إلا أن يصل المتعلم إلى القاعدة وحدودها ، وإلى الحقائق النحوية وقيودها ، وبالغ بعض المعلمين ، مجاراة لما سلكه المؤلفون فى كتبهم ، فى التطبيق التكوينى فجاءوا بتمرينات يطلبون فيها من التلاميذ إيجاد أمثلة هى بالمعميات وعويص الألغاز أشبه منها بالتمرين الذى يقصد منه طبع الأساليب السليمة التى تحوى من خصائص اللغة ما هو فطرى بعيد عن التكلف الذى أجهدوا أنفسهم فيه ،وإن نظرة إلى بعض الكتب المؤلفة على هذا النحو تكفى لايضاح ما نقول .

فالرجوع بهذه الطريقة الاستنباطية الحديثة إلى طبيعتها الأولى التى قصدها واضعوها ، وتصفيتها مما اصابها من مسخ وما اعتراها من تشويه ، هو الذى يقرب المسافة بين الطريقة التى نريد اتباعها وتلك الطريقة التى قصدت اليها التربية الحديثة وهدت اليها التجارب .

ومما نلجأ اليه فى بيان أن الطريقة التى نريد اتباعها ليست بالغريبة ، ذلك النهج الذى جرى عليه العمل أخيرا في معالجة القواعد النحوية فى المراحل

الأولى من المدارس الابتدائية، وهو جعل تعليمها فى أسلوب انشاء الجمل وفى ثنايا دروس المحادثة ، كما يتضح لمن يتصفح نصيب القواعد النحوية فى السنة الثانية الابتدائية فى المنهج الذى أصدرته وزارة المعارف سنة ١٩٣٥ . ففى هذا المنهج وفى التوجيهات التى صدر بها جانب عظيم مما نشير اليه ، وهو أن الجمل أساس قوى لتعليم الانشاء والنحو معا .

ولو كانت الهمة قد اتجهت إلى تعميم هذه الفكرة وهى انشاء الجمل وإشاعة عناصرها فى تعليم القواعد فى جميع المراحل أو أغلبها بشىء من البسط والتدرج الملائم ، لكان ذلك أجدى ، ولكان عوناً على إخراج دروس القواعد من دائرتها الجافة المقيدة إلى ميادين فسيحة شائقة تنبع فيها من الجمل الصحيحة ومن الأساليب اللغوية التى تستخدم بالفعل فى شؤون الحياة.

فالطريقة التى سنتبعها شبيهة بالطريقة الاستنباطية أو بطريقة انشاء الجمل من بعض الوجوه ، وهى الطريقة الطبيعية التى ينبغى أن تعلم بها القواعد واللغة. وأساسها العام هو أن تعلم القواعد فى ظل تعليم اللغة وفى ثنايا تعليم التعبير السليم .

* * *

فلننظر إذن فى اللغة وطرائق تعليمها ، ثم نعود إلى القواعد فنبحث فى مكانتها من اللغة وفيما يتصل بها من شتى النواحي .

اللغة

اللغة هى أداة التفاهم الذى لا بد منه فى كل مجتمع ولكل إنسان . والتفاهم هو تبادل المعانى ، وله ناحيتان هما : الفهم والإفهام ، ولكل من هذين جانبان أحدهما طبيعى فى الانسان ، والثانى صناعى اصطلاحى .

فالفهم يكون عن طريق السمع فى الكلام والمحادثة ، وعن طريق النظر

فى القراءة . والافهام يكون عن طريق اللسان فى الحديث وفى الكلام، وعن طريق القلم فى الكتابة الانشائية .

والسمع واللسان هما الوسيلتان الطبيعيتان فى جميع مراحل الطفولة، قبل أن يتعلم الناشىء ما اصطلحنا عليه من قراءة وكتابة . أى أن الطريق الطبيعى للتفاهم هو الطريق الشفهى الذى صحب الانسان منذ نشأته ، والذى يعتمد عليه فى صغره . أما التفاهم بالكتابة والقراءة فهو طريقة رمزية اصطلح عليها المجتمع تبعا لما اقتضته طبيعة الحياة .

وإن الموازنة بين الطريقتين الشفهية والكتابية فى التعليم لها شأن، ويجمل بالمعلم أن يعلم حق العلم أيهما أجدى وأقوى أثراً ، فان للاقتناع بما للتعليم الشفهى من أثر شأنا عظيما فى تعليم اللغة وفروعها ،ولا سيما فى المراحل الأولى للتعليم .

فإذا كان التفاهم الشفهى أسبق وأجدى، فإن أحد نوعيه وهو الفهم يسبق الافهام أو التعبير ، فالطفل يدرك ما يسمعه من لغة قبل أن يستطيع التعبير. أى أنه حين يربط حقائق الحياة باللغة ويتخذها وسيلة للفهم يبدأ بربط هذه الحقائق بما يسمع من كلمات وعبارات ، ثم ينتقل إلى استخدام ماسمعه فى مطالب حياته وفى التعبير عن رغباته. وقد يكون الفرق شاسعا بين هاتين القوتين فى جميع مراحل الحياة : ففى الطفولة نشاهد أن الطفل لايقوى على التعبير عن كل ما يفهمه ، وفى كثير من أحوال الانسان وأطوار حياته نلاحظ أن القدرة على الابانة والتعبير لاتكافىء القدرة على الفهم ، فلا يستطيع جميع المتعلمين أن يصلوا فى مقدرتهم البيانية إلى مستوى ما يفهمون من أساليب وعبارات .

على أن الصلة قوية بين الحالتين ، فإحداهما تستمد قوتها من الأخرى ؛ بل تعتمد عليها وتنبع منها . فالمقدرة البيانية فى التعبير إنما تكتسب من سماع العبارات الصحيحة وفهمها . وكذلك الحال في الجانب الكتابي من اللغة ،

فقراءة جيد الأساليب قراءة مقرونة بالإدراك والتفهم عامل قوى فى اكتساب ملكة التعبير السليم. ولهذه الحقيقة شأن عظيم فى التعليم. ذلك أن تعليم اللغة ليس بالأمر العسير إذا سرنا فى ذلك مسترشدين بالفطرة الإنسانية وبالقواعد العامة للتعليم وبطبيعة اللغة. ومن الحقائق الثابتة التى يجدر بالمعلم أن يجعلها من عقائده التعليمية، أن تعليم اللغة عن الطريق الشفهى أقوم وأجدى ، وهو الطريق الطبيعى الذى ينبغى أن يسبق الالتجاء إلى طريقة القراءة والكتابة ، أى أن السمع واللسان أقوى فى تثبيت اللغة وأساليبها من النظر واليد. فالتعبير الشفهى أعظم أثرا ، ويجب أن يحله المعلمون محلا أساسيا.

فان الحديث الشفهى فى تلخيص دروس المطالعة ، والحوار فى الانشاء الشفهى، وتكرار العبارات الصحيحة على أسماع التلاميذ ، ومطالبتهم بالتعبير الشفهى ، كل هذا له عظيم الأثر فى طبع الأساليب والتراكيب السليمة فى الأذهان ، إذا اقترن بالاناة وحسن قيادة العقول ، وسار طبقاً للقواعد التعليمية الصحيحة فى استخدام التكرار المقرون بالتشويق كما سنوضح ذلك بعد .

فليوجه المعلمون لهذه الناحية الشفهية عنايتهم مااستطاعوا ، فهى الناحية الطبيعية ذات الأثر الأكبر . وهى التى ستذلل أمامهم كثيراً من الصعاب فى تعليم اللغة وفى تثبيت ماتنطوى عليه من خصائص تثبيتاً عمليا .

اللغة هى المعانى لا الألفاظ

وقبل أن نتابع إيضاح مانحن بصدده، نشير إلى فكرة قد تبدو غريبة ولكنها عون على تحقيق كثير من الأصول الناجعة فى تعليم اللغة وقواعدها.

وهذه الفكرة هى أن اللغة هى المعانى وليست هى الألفاظ . هى المعانى التي نصوغها في قوالب من الألفاظ ، وليست هى الألفاظ التى تصب فيها

المعانى، ويبدو أن هذا مخالف لماهو مسطر فى تعريف اللغة وهى أنها (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) كما ورد فى معاجم اللغة وفى غيرها ، وأنها مشتقة من لغا يلغو .

ولسنا نحاول أن ننكر هذا أو أن نغض منه ، ولكنا نريد أن نبرز فى هذا الموضوع جانباً له شأنه ، فان هنالك إلى جانب الألفاظ التى تشتمل عليها اللغة جانباً آخر هو المقصود بالذات من وجوه شتى حيوية وعملية وتعليمية ، وهو جانب المعانى . فالمعانى ينبغى أن تكون دعامة اللغة . أما الألفاظ التى لاتحقق مطالب الحياة وأغراضها ، ولا تؤدى معنى ذا شأن فى التفاهم وفى بناء العقل ونمو التفكير وسعة المعارف، فانها أقرب إلى اللغو لاإلى اللغة، وأبعد عن أن تكون أداة نافعة فى الحياة.وإذا صح فى ميادين البحوث اللفظية أن نعتبر أن اللغة هى الألفاظ ، فإن هذا لاينفع فى ميدان التعليم ولاسيما فى تعليم الناشئين ، فكثير من الألفاظ المسطرة فى المعاجم وغيرها لاتعد فى نظر المربين لغة نافعة ، لأن ماتحويه من المعانى لايمتزج بعقول المتعلمين ولا يقرب من حياتهم وتجاربهم ، على الرغم من ضخامة هذه المعانى وعمقها .

ولنضع الفكرة التى نحن بصددها فى أسلوب لاتبدو فيه المخالفة للمألوف فنقول : إن اللغة فى رأى التعليم الناجع هى المعانى التى تتجلى فى مظاهر من الألفاظ ، فالمعانى إذن هى اللغة ولبها ، وهى التى نقصد اليها فى تعليم الناشئين، وهى التى ينبغى أن تقودنا فى معالجة العقول .

أما هذه التراكيب والألفاظ التى لاترتبط بحياة المتعلم ، ولاتصادف معانيها مكانا من نفسه ، فلاتعد لغة تعليمية . وأغلب الظن أن منشأ التعلق بأمثال هذه التراكيب الجوفاء إنماهو ذلك التفسير الذى نحاول اجتنابه للغة، وهو أنها الألفاظ التى تحوى المعانى فان اعتبار اللغة ألفاظا يجعل هم المعلمين متجهاً إلى تعليم ألفاظ يحاولون البحث عن معانيها . وليس هذا هو الطريق

الناجع الطبيعى، بل الطريق الطبيعى الناجع هو أن يدرك المتعلم الحقائق أولا ثم يقرن ذلك بما يدل عليها ، والفرق بين الحالتين شاسع فى التعليم ، فتعليم اللغة إنما هو تعليم حقائق الحياة ثم تقييدها فى الأذهان بهذه الرموز التى اصطلح عليها بنو الإنسان .

ويظهر أثر ذلك فيما سنعرض له من وسائل فى تعليم اللغة والقواعد وتخير الأمثلة التى تساعد على تحقيق الغرض المنشود .

* * *

نعود بعد هذا إلى متابعة ما كنا بصدده، فنوضح بعض العوامل النفسية التى تساعد على تعليم اللغة مشيرين إلى أثرها .

وأهم هذه العوامل : المحاكاة والتكرار والتشويق .

فالمحاكاة والتكرار دعامتان فى تعليم كثير من ألوان المعرفة ، ولاسيما فى المراحل الأولى ،حيث لايقوى الطفل على الاستقلال بتعلم اللغة ، ويكون محتاجا إلى التلقين والارشاد . والتشويق هو الميدان الصالح الذى تجول فيه المحاكاة، بل هو فى ميدان التعليم أشبه بالهواء الصالح الذى لاتتم الافادة بدونه.

وهذه العوامل الثلاثة مشروحة فى مباحث علم النفس والتربية شرحا وافياً ، وسنعرض لها فى إيجاز لتتصل عناصر البحث .

المحاكاة

وهى غريزة لها عظيم الأثر فى حياتنا الفردية والاجتماعية، ولها فى تعليم التعبير وتذليل صعاب اللغة شأن . فهى من أقوى الوسائل التى يلجأ إليها المعلم ، بل إن المحاكاة تقوم بعملها دون أن يريد المعلم ، وعلى غير مايريد الطفل ، وهذا النوع هو المحاكاة غير المقصودة ، وهى التى نرى أثرها فى

الطابع الذى يتجلى فى الانسان، وفى الملامح التى تبدو فى تصرفاته،وفيما له من أسلوب خاص فى القول والعمل،وفى كثير من عاداته ومقوماته.فمعظم ذلك يرجع إلى قوة هذا النوع من المحاكاة غير المقصودة، وإلى قوة الايحاء الكامنة وراءها .

ولعل هذا من المزايا التى خص الله بها الانسان وأودعها جهازه النفسى؛ فإن تركيب هذا الجهاز يجعل المحاكاة فطرية ، ويحتم التقليد دون أن يكون هناك غرض خاص . ويجدر بمعلم اللغة أن يلحظ هذا ،وأن يكون خير قدوة فى حسن التعبير ودقته وسلامته .

على أن المحاكاة ليست فى جميع صورها آلية خالية من الغرض ، فإنها تتدرج إلى أنواع راقية تسير فى كنف الارادة بإرشاد الفكر ، وتتجه إلى بعيد الغايات وسامى المقاصد .

ويرجع أثر المحاكاة إلى إحكام الصلة بين مراكز الاحساس ومراكز الحركة فى الجهاز العصبى، حين يحاكى الانسان عملا رآه أو تخيله .

والوسيلة لذلك هى :

التكرار

وهو وسيلة لاغنى عنها فى التعليم . وإذا لاحظنا أن اللغة هى عادات نفسية علمنا ماللتكرار من شأن فى تثبيتها : فهو عماد لجميع العادات بأنواعها العملية والعقلية والخلقية كما هو معلوم . وإن الالتجاء إلى التكرار فى تعليم اللغة وتثبيت تراكيبها وأساليبها وخصائصها يتطلب هوادة وحزما حتى لايكون التكرار مملا .

والعامل المهم فى هذا هو التشويق :

التشويق

لقد أصبح للتشويق شأن فى التربية فهو من أقوى دعائمها ، وسر من أسرار النجاح فى التعليم ، وإذا ظفرنا به استطعنا أن نسير فى طريق ممهد ، وصادفنا من التلميذ الرغبة الصادقة والشغف الذى يساعدنا على تحقيق الغاية التى ننشدها . ولقد فطنت التربية الحديثة إلى أثر التشويق فاتخذت منه عونا على حب العمل والرغبة فى التعلم .

إن الطفل يتطلع إلى دنيا من التشويق والسرور والجمال ، فينبغى أن ترعى التربية هذا الميل ، وتغذيه بما هو ملائم من الوجهتين اللفظية والمعنوية ، فإن امتزاج العبارات بالنفس وقوة أثرها إنما يتوقف على قبولها وإساغتها .

إنما تنجح المقالة فى المر ء إذا صادفت هوى فى الفؤاد

ويجدر بالمعلم إذن أن يجعل مايكلف التلميذ أداءه من الأعمال ومايعرضه عليه من حقائق شائقا ، فإنه إذا لم يفعل ذلك فإما أن ينصرف التلميذ عنه ، وإما أن يسايره مرغما ، فيحل به الاجهاد ويملأ قلبه النفور ، أو أن يستعين بالإرادة فيتخذ منها عونا على التغلب على ما أمامه من صعاب ، وليس التغلب على الارادة هينا على الأطفال .

فالتشويق إذن عامل من أقوى العوامل فى تذليل صعاب التعلم ، وتيسير سبله للمتعلم ومعونة المعلم على القيام بعمله فى يسر وسهولة .

وليس التشويق تفكها كما يتبادر إلى الأذهان ، ولكنه مساعد على تركيز الانتباه القسرى ، ووسيلة لبذل المجهود ، وسبيل لجعل التعليم مرتكزا على الرغبة . وليس موجها للسهل الهين دائما ، بل إنه يرتبط بجلائل الأعمال فى الحياة ، وهو كالضوء الذى يرى فيه المتعلم طريقه فيسير على هدى ، وهو من

العوامل التى تثير الاهتمام وتنشط النفس ، فتضاعف الجهد لتصل إلى أقصى ما تستطيع الظفر به .

وللتشويق صلة بالمحاكاة وبالوجدان وبالارادة .

أما صلته بالمحاكاة فمردها إلى أن الطفل إذا ترك على فطرته وسجيته ، فهو إنما يحاكى ما يشوقه وينصرف عما لا يثير شوقه ، فالتشويق كالحادى للمحاكاة يحفزها ويوقظ نشاطها .

وأما صلته بالوجدان فإنه ناحية منه ، فالتشويق فى صميمه وجدان، لأن الانسان حين يحس أن الشىء شائق يشعر بأن باعثا يجتذب إليه انتباهه فيقبل عليه ويلبى داعيه .

وإذا نشط الشوق تيقظ الوجدان . وإن المعلم الذى يوقظ الشوق فى التلاميذ يستطيع أن يسيطر على القوة الدافعة للوجدان ويملك زمامها . وإذا علمنا أن الوجدان من أهم البواعث والدوافع فى الحياة ، علمنا ما للسيطرة على التشويق واستخدامه فى التعليم من شأن .

فيجدر بمعلم اللغة العربية أن يحل هذه الحقيقة محلها من عنايته، وأن يتخذ منها عونا على نجاح طريقته فى التعليم وعلى السير بتلاميذه إلى خير غاية .

وأما صلته بالارادة فهو الذى يقودها، وهو السبيل إلى الوصول إليها كما يقول هربارت .

ويجدر بنا بعد أن اتضح ما للتشويق من أثر فى التعليم أن نشير إلى أهم الوسائل التى توقظ شوق التلاميذ ، وهى فى جملتها تتصل بالمعلم وبمادته وطريقته ، وإليك طرفا منها :

(١) أن يكون الشىء جديداً مشابها للمألوف ، فالجديد البحت تشوبه الغرابة ويحيط به الغموض ، والمألوف يكون عاديا لا يثير شوقا . وأما الجديد الذى يدرك ويفهم عن طريق ما يألف المتعلم ، فهو الذى يوقظ الميل إلى البحث ويبعث الشوق إلى العمل .

ولهذه الحقيقة شأن فيما يتخير المعلم من أمثلة ، فعلى قدر اقترابها من تجارب التلاميذ واتصالها بحياتهم ، وما فيها من عناصر الجدة والطرافة ، يكون أثرها فى التشويق وفى التعليم الناجع . وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

(٢) جعل التلميذ محورا للتفسير والشرح ، وإشعاره أن ما يجىء به المعلم نابع منه ومن البيئة التى تحيط به فيما يهمه وما يتصل بنفسه. وهذا من أهم أهداف التربية الحديثة ، فإن التلميذ إذا شعر بأن ما يجىء به المعلم من حقائق منقطع الصلة بحياته وبميدانه النفسى وبدنياه العقلية، أحس أنه كالغريب فى البلد النازح، ولا يشعر بتجاوب نفسى بينه وبين ما يلقى عليه أو يقدم إليه .

(٣) الاهتمام بأن تكون المادة التى نعالجها مرآة تنعكس عليها نفس التلميذ وتتجلى فيها ميوله وشخصيته .

(٤) التنويع مع الاحتفاظ بالوحدة ، أى الوحدة المتنوعة أو التنويع الموحد ، فالتنويع وحده يقطع الصلة ، والوحدة بمفردها مملة ، والسر فى التشويق إنما هو التنويع فى الوحدة. وسنرى أثر هذا فيما سنشير إليه فى تخير الأمثلة لتعليم اللغة وخصائصها .

(٥) البدء بالميول الفطرية والاستعانة بها، ثم التدرج فى ربط الحقائق بها .

(٦) يجب أن يسير الكتاب الدراسى والطريقة التى يسلكها المعلم جنبا إلى جنب إلى غاية واحدة ، وأن يكون الكتاب الدراسى متضمنا الوحدة . وأن تكون الطريقة متضمنة التنويع .

المثابرة

المثابرة أو بذل الجهد عامل يتطلبه الدرس ، ويجدر بالمعلم أن يتخذ منه عونا وأن يذلل شامسه ويستميل جانبه ، ومما يجعل ذلك هينا على المعلم وفى متناول أساليبه أن المثابرة تسير فى كنف الشوق تابعة له وخادمة مادام

الشوق مسيطرا على ميدان الشعور . فإذا استطاع المعلم بأن ينشر فى الجو التعليمى الرغبة ويبسط عليه أعلام التشويق ، فانه يستطيع أن يجعل المثابرة طوع إشارته ، وأن يوجه جهود التلاميذ إلى ما يريد وكما يريد .

ولكن يجدر بنا أن نذكر أن الشوق قد يعجز عن القيام بمهمته ، فلا يستطيع الحفز إلى العمل ، ولا يقوى على حمل المتعلم على الاستمرار . وهنا يكون المجال للمثابرة فترجح وتتسلم الزمام ، ويكون لها السلطان وتصبح سيدة للشوق . ويبدو ذلك فى الاحوال التى لا ينشط فيها الانتباه القسرى ولا يسير معتمدا على التشويق ، بل على حوافز أخرى ترجع إلى الأمل المرتجى ، أو إلى المخاوف التى تساور النفس من جراء الاخفاق أو الاهمال والتوانى . والمثابرة فى هذه الحالة تكون مصاحبة للرغبة وتكون الاثنتان مظهرين لشىء واحد وهو قمع النفس والتغلب عليها وتوطينها على الاحتمال .

فالمعلم إذن محتاج إلى الاستعانة بالمثابرة ، ويجدر به أن يوثق الصلة بينها وبين الشوق ، فإن هذا هو خير ما يوصل إلى الغاية المنشودة ، فإن الشوق بدون المثابرة يكون تسلية أو قريبا منها ، وإرغام المثابرة من غير شوق هو إجهاد ، ومزج الاثنين إنما هو إدخال بعض عناصر اللعب على الأعمال الجدية التى يقوم بها التلاميذ فى حياتهم التعليمية ويتولون أمثالها بعد ذلك فى حياتهم العملية ، حينما يصبحون كبارا يحملون تبعات الحياة .

ومن خير ما يلجأ إليه المعلم لتنشيط المثابرة ، أن يهتم بإيقاظ المشوقات البعيدة كلما استطاع ذلك ، دون الاكتفاء بالوقتى السهل منها . وأن يعود التلاميذ احتمال الأعباء وتركيز الانتباه فيما يباشرون من أعمال وما يؤدون من واجبات .

* * *

هذه هى أهم العوامل النفسية والتعليمية التى يمكن الاستفادة منها فى تعليم اللغة ، أشرنا اليها إشارة مجملة . وأن للاستزادة منها واتخاذها أساسا وهاديا

أثرا قويا فى نجاح المعلم ، وفى شحذ مواهب التلاميذ وتنمية ثقافتهم . ومجال هذه الاستزادة فسيح فى كثير من المراجع .

وهناك بحوث تعليمية أخرى يجمل بمعلم اللغة العربية أن يوليها عنايته ، ويتخذ منها عونا على السير فى عمله على أحكم الوجوه ، وهذه البحوث هى :

(١) الكتب وما تثيره من سرور

(٢) ميل التلاميذ إلى القراءة وإلى التعلم عن طريق الكتب

(٣) الحكايات والقصص وميل الأطفال اليها

(٤) التمثيل الروائى والقصصى وصلته بالتعليم

(٥) الحكايات المصورة وأثرها وفائدتها فى تعليم اللغة

(٦) العمل اليدوى وارتباطه بالنشاط العقلى والثقافى

(٧) تعطش الطفل إلى ملاحظة ما يحيط به ، وإلى تعرف الحقائق على طريقته هو

(٨) السرور المكتسب من المجتمع ونظامه ومدنيته ، وميل الأطفال إلى تعرف حياة الكبار وأعمالهم

(٩) إعجاب التلاميذ بالأبطال وبالبطولة فى شتى نواحيها

(١٠) الخيال وتشعبه وميادينه ووسائل الانتفاع به فى قيادة العقول

(١١) دور المراهقة وما يعترى الشبان فيه من تغير فى نزعاتهم وميولهم وأحوالهم النفسية

كل هذه الموضوعات لها ارتباط بتعليم اللغة العربية ، ويجدر بالمعلم أن يلم بها إلماما شاملا عميقا . وعلى قدر استزادته من تعرف كنهها والبحث فى دقائقها والعمل على الانتفاع بها ، يكون نصيبه من الافادة وحظ تلاميذه من النجاح .

وهناك وسيلة أخرى يستطيع المعلم أن ينتفع فيها بتجاربه فى هذا الميدان، وأن يجنى منها جم الفوائد : وهى أن يدرس بنفسه . وبطريقة عملية مباشرة ، طبائع تلاميذه وميولهم العامة ونزعاتهم النفسية وبواعث شوقهم وماتتجه إليه آمالهم، ومايستهويهم فى المراحل المختلفة لحياتهم ،وما يجد من تغييرات فى حالهم النفسية فى أدوار نموهم .يدرس المعلم كل ذلك عن طريق تتبع سلوك التلاميذ وملاحظة مايبدو منهم فى أحوال مختلفة ، فى أثناء عملهم وفراغهم وجدهم ولعبهم ونشاطهم المدرسى وغير ذلك . ثم يسجل هذا كله لينتفع به ،وليبنى خطته عليه وعلى غيره من المعلومات .

فاذا أحسن المعلم استخدام وسائل التحصيل والتمرين فى فروع اللغة العربية فى ظل ماأجملنا عن المحاكاة والتشويق والمثابرة ، وما أشرنا إليه من بحوث تعليمية أخرى ، استطاع أن يصل بتلاميذه إلى غاية محمودة ، وأن يظفر فى عمله بقسط موفور من النجاح .

هذا إلى أن السير فى تعليم اللغة العربية بطريقة تصلها بميول المتعلمين ، وتربطها بمحيطهم العقلى والحيوى، وتجعلها شاحذا لمواهبهم وعونا على تغذية تعطشهم للمعرفة ، كل هذا يرجى أن يكون من خير الوسائل لعلاج مايبدو فى الشبان وغيرهم من انصراف عن القراءة وكساد فى ميدان التحصيل الذاتى مدة الدراسة وبعدها .

وإن القواعد النحوية وباقى فروع اللغة العربية سينالها من هذه الطريقة نصيب يجعل فائدتها شاملة وأثرها عميقا وصلتها بالحياة قوية مثمرة .

* * *

بعد هذا الإجمال فى طريقة تعليم اللغة نعود إلى تعليم القواعد النحوية ، وإن الطريقة التى سنتبعها هى أن يسير تعليمها فى ظل تعليم اللغة ، وأن يجىء فى ثنايا عرض التراكيب الشائقة والأساليب التامة الصحيحة على التلاميذ.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن القواعد النحوية إن هى إلا خصائص تلازم اللغة العربية . ومن بين هذه الخصائص ماهو طبيعى ، إذا نظرنا إليه من ناحية فكرية عامة. فإنا لو استرشدنا بعقل الطفل، وبما بين اللغة والفكر والحياة من صلة ، لوجدنا أن طائفة من هذه القواعد يسيرة الادراك ، يصل إليها الفكر من غير كد أو عناء . فمنها ماهو كالظواهر الحسابية أو كالأثر البارز الذى يقضى به الربط بين الأشياء ، ويستطيع الطفل أن يدرك كل ذلك فى مرحلة مبكرة من تعلم اللغة ، وأن يطبعه فى ذهنه عن طريق مايسمعه وماألفه فيصبح سجية له ، ويكون العدول عنه ممن يتحدثون إليه مثار استنكاره واعتراضه .

ولهذا نستطيع أن نذلل صعاب هذه الموضوعات دون كبير عناء . وإذا لم تكن اللغة التى ألفها الطفل قد استوعبت كل ماتقتضيه اللغة العربية السليمة، فان سهولة هذه المباحث تجعل من اليسير معالجتها عن طريق العبارات التى نعرضها على سمعه وعلى بصره .

ويجدر بنا فى هذا الصدد أن ننوه بشأن عامل عقلى له مكانة فى تعليم القواعد النحوية ، ذلك هو الاستنباط الذاتى الباطنى . وهو الذى يسلك العقل سبيله فى الوصول إلى الكليات وإدراك حقيقتها :

فالأطفال وكذلك الكبار يدركون كثيراً من الكليات العامة كحقيقة الشجرة والمنزل والكتاب وغير ذلك من الكليات المعروفة فى علم المنطق، ويلمون بمعناها العام بمرور الجزئيات على أفكارهم. ويسيرون فى هذه الحركة الفكرية طبقا للمراحل المعروفة فى الأدراك الكلى وهى : الملاحظة — الموازنة — التجريد — التعميم — التسمية . وهى مشروحة شرحا وافيا فى مواضعها من البحوث النفسية والمنطقية .

وإدراك الكليات فى الحياة الفكرية والعملية يسير من غير تلقين أو تحديد بتعاريف منطقية. بل إن الانسان يصل إليها بمقدرته العقلية وبما يسمى

الاستنباط الباطني الذي به يصل إلى الحقائق على قدر ماتتسع له تجاربه ، وتبعا لشمول الجزئيات التي مرت به ، ويستطيع أن يدرك جزئيات الكلي دون أن يقدر على تعريفه تعريفا تاما .

وإنا لنلاحظ هذا في أنفسنا، فكثير من الحقائق التي ندركها لانستطيع تحديدها تحديدا منطقيا جامعا مانعا . ومناقشات سقراط لتلاميذه في تعريف الحشرة وتعريف العدل وغير ذلك هي من الأمثلة لما نحن بصدده .

وهذا النوع من الاستنباط الباطني يتخذ طريقه ويعمل عمله في إدراك خصائص اللغة وقواعدها من الجزئيات التي تمر بالمتعلم في التراكيب، وملاحظة ما فيها من ظواهر مشتركة . وهو الذي به تعلم العربي لغته ويتعلم العامة لغتهم ويتعلم الناطقون بجميع اللغات لغتهم ، من محاكاة مايسمعون من تراكيب وإدراك ما فيها من قواعد ، فالطفل إذا ترك وشأنه للتراكيب الصحيحة التي نغمر بها سمعه ونتخذها وسيلة للتعبير عما يصل إليه من تجارب وحقائق ، فانه يستطيع أن يدرك بنفسه خصائص اللغة أو القسط الأكبر منها ، أي أنه يستطيع أن يدرك القواعد النحوية إدراكا مقرونا بالتطبيق العملي، ولا يكون الفرق بين مايصل إليه من هذا وبين الذي نتعمد تعليمه إياه من القواعد في دروسها الخاصة سوى الاصطلاحات والتعاريف ، وليست هذه بالكبيرة الأثر في الغرض الذي من أجله تدرس القواعد ، بل أنها من الأعباء التي لا داعي إلى إثقال كاهل التلاميذ بها ، ماداموا يستطيعون الوصول بدونها إلى الغاية المقصودة .

فقد وضح أن خطب القواعد هين يسير ، إذا نظرنا إليها نظرة طبيعية وعالجناها معالجة طبيعية خالية من المواضعات الاصطلاحية ، وقصدنا إليها عن طريق اللغة والتراكيب السليمة . ولم ننظر إليها تلك النظرة إلى الظواهر المستقلة ، التي تعالج وحدها في دروس خاصة ، وسرنا في تعليمها طبقا لغاية نرسمها ونسعى لتحقيقها في وضوح ويسر .

ونستطيع أن نحصر بحثنا فى هذه النواحى الثلاث وهى :

(١) الغاية التى نسعى إليها من تعليم القواعد

(٢) وما الذى نعلمه ؟

(٣) وكيف نعلمه ؟

(١) أما الغاية من القواعد فانها لاتختلف عن الغاية من اللغة ، بل هى تتميم لها ، وهى القدرة على التعبير والفهم بنوعيهما ، أى التعبير الشفهى والكتابى ، والفهم عن طريق السمع وعن طريق النظر كما أوضحنا . فالقواعد إذن وسيلة للتعبير السليم وفهم الكلام العربى على وجهه الصحيح .

وقد يرى بعضهم أن تعليم القواعد يساعد على شحذ العقل وتقوية الفكر ، ولكننا لانريد أن نبالغ فى هذا حتى لانقع فيما حاول المربون نقضه نقضا كليا أو جزئيا ،وهو « انتقال التدريب » أى اكتساب مقدرة عقلية شاملة من معالجة حقائق خاصة فى بعض نواحى الدرس والتحصيل .

وإذا سلمنا للقواعد بأثر فى هذه الناحية ، فإنا لانعدو فى هذا أن نسلم بفائدتها فى تنشيط الملاحظة اللغوية ، وتعويد المتعلم أن يجول بفكره فى الأساليب والتراكيب ناقداً وممحصا ، على شرط أن تكون الطريقة التى نسلكها موصلة إلى هذه الغاية . وذلك لأن الملاحظة اللغوية لاتكتسب من دراسة القواعد دراسة منعزلة عن اللغة وتراكيبها ومقاصدها ومعانيها وفنونها،ولا من الدراسة التى لايقترن بها من تراكيب اللغة إلا تلك الأمثلة البتراء كجاء زيد وضرب زيد عمرا أو مايشبه ذلك ، مما قد يبدو أنه تجديد، مثل تغيير زيد وعمرو بالوردة والزهرة ونحوهما ، فليس كل هذا بذى أثر يستحق الذكر فى الغاية من تعلم اللغة وقواعدها ، ولكن الذى نرى أنه عظيم الأثر هو أن تكون القواعد نابعة من دراسة اللغة وتراكيبها، وعونا على الاستزادة من الاطلاع وسبيلا إلى تفهم أساليب اللغة وجليل معانيها ، وهذا لايتحقق إلا إذا درست اللغة وفهمت منها القواعد أو الخصائص .

أما إذا درست القواعد دراسة مستقلة ، على أنها غاية فى ذاتها، أو على أنها وسيلة للفهم أو التعبير ، فان هذا مقصد تلتوى لجاجه ، ونهج يبعدنا عن الهدف الذى ترمى إليه اللغة ، ويتجافى بنا عن الغاية المثلى التى يجب أن نتجه إليها .

يتضح من كل هذا أن القواعد ليست هى الغاية . وأنها ليست الوسيلة إلى تعلم التراكيب الصحيحة ، فإن الناس جميعا قد تعلموا الكلام الصحيح ، ولا يزالون يتعلمونه ، لا عن طريق القواعد النحوية ، بل عن طريق محاكاة اللغة الصحيحة ، كما أشرنا إلى ذلك .

(٢) وأما الذى نختاره فان الذى يرسم اتجاهه ويحدد عناصره هو الغاية التى أشرنا اليها . وإن هذه الغاية تحتم أن نقتصر من القواعد لتلاميذ المدارس على ما تتطلبه صحة العبارة وسلامتها من الخطأ ، وما يساعد على تنمية الذخر اللغوى للمتعلمين . والقدر الذى يحقق هذا سهل هين .

فلننظر فيما عسى أن نختاره من القواعد للتلاميذ فى المراحل الأولى من تعلمهم فى المدارس الابتدائية وما فى مستواها وفى المدارس الثانوية ، مما يقوم ألسنتهم ويساعدهم على استخدام اللغة استخداما مجديا .

ولعل من المفيد قبل ذلك أن ننظر نظرة تصفح فى مناهج القواعد التى وضعت فى المدارس، وفى أساس اختيارها وترتيبها منذ أن وضعت فى أدوارها الأولى إلى الآن .

وان المطلع على هذه المناهج يجد أنها كانت تسير فى المدارس جميعها الابتدائية والثانوية وغيرها فى أول الأمر طبقا للعناصر النحوية المعروفة ، وكانت تدرس ابتداء من السنة الثانية الابتدائية ، وتسير بطريقة متدرجة ، على أسلوب الاجمال ثم التفصيل، طبقا لما رسمه ابن خلدون فى مقدمته، وتنتهى فى المدارس الثانوية بطائفة من القواعد يمثلها الكتاب الرابع من الدروس النحوية الذى وضعته نخبة من الأساتذة من رجال دار العلوم . وان المتصفح

لهذا الكتاب يجده تلخيصا منظما حافلا ودقيقا شاملا لجميع القواعد النحوية والصرفية المنثرة فى الكتب ، وهو كاف لمن يريد الاستعداد والالمام بالقواعد النحوية وجزئياتها بطريقة سهلة المأخذ .

وقد سار العمل بهذه المناهج دون تغيير إلى سنة ١٩٢٧ حين اتجه التفكير إلى شيء من التيسير وإلى اجتناب تكرار الموضوعات وترك ما درس فى فرقة سابقة . ثم جاءت بعد ذلك أنواع من التغيير كان الاختلاف فيها شكليا إلى حد كبير ، وتفرعت المناهج أحيانا للبنين والبنات . ولكن أساس الاختيار والترتيب فى جميع هذه الأدوار كان الأساس التقليدى التأليفى ، الذى يسير طبقا لوضع علم النحو وترتيب مسائله وأبوابه فى الكتب ، ولم يكن للأساس التعليمى نصيب .

وإن الذى سنحاول السير عليه فى اختيار المناهج وترتيب ما يدرس للتلاميذ هو الأساس التعليمى الطبيعى ، الذى ينبع من اللغة ، ويسير تبعا لنمو الجمل والتراكيب وتدرج طرائق التعبير ومراعاة مستوى الأطفال ، فنبدأ بالجمل السهلة فى أغراض متنوعة شائقة تنبع من تجارب التلاميذ ، وتتصل بما تتطلع اليه رغباتهم ، وما يغذى ميولهم وخيالهم وتعطشهم لتعرف ما فى الحياة . ثم نتدرج بالجمل تدرجا إنشائيا ولغويا بحيث يشعر المتعلم أنه لا يعالج مسائل نحوية ، بل موضوعات حيوية يجول فيها ميله الفطرى إلى التعبير عما فى نفسه وعما يحيط به .

وربما تطرق إلى الأفهام أنا بهذا سنغض النظر عن القواعد النحوية التى تقتضيها طبيعة اللغة والتى لا غنى عنها فى التعبير السليم ، ولكن هذا لا يجول لنا بخاطر ، فإنا سنحرص على هذه القواعد كل الحرص ، بل انا لا نستطيع أن نغض عنها النظر ، لانها جزء من اللغة ، ومظهر من مميزاتها وخصائصها . وغاية ما سنعمل انا سنرتب هذه الخصائص ترتيبا متماسكا ، ونعالجها طبقا لتدرج التعبير ومقدرة التلاميذ ، لا تبعا لتدوين النحو واستيعاب جميع مسائله

واصطلاحاته وأبوابه . ونقتصر من هذا على ما يحقق الغاية ، دون تقيد بما سطر فى الكتب النحوية مما لا تتطلبه مميزات اللغة ومقوماتها ، ولا يحتاج إليه التعبير السليم .

وسنراعى فى اختيار المادة والطريقة الأصول الآتية :

(١) جعل الأساس إنشائياً ولغوياً :

وذلك بأن نعرض العبارات على أسماع الأطفال وأنظارهم فى موضوعات كثيرة شائقة تتصل بحياتهم وتسترعى اهتمامهم وتغذى شوقهم . ويجىء كل هذا فى دروس المطالعة والمحادثة وغيرها ، وفى دروس خاصة بإنشاء الجمل، يقصد فيها المعلم إلى معالجة بعض العبارات مما يرد فى الموضوعات التى يختارها، ويقلبها على أوضاع شتى بالزيادة والحذف والتغيير المعنوى والزمنى والاشتقاق، وغير ذلك من ألوان الافتنان التى توضح ما يريد المعلم أن يصل إليه. وبذلك تتجلى أساليب اللغة أمام التلاميذ مقرونة بالمميزات النحوية والصرفية ، وسنشير إلى هذا فيما بعد بطريقة أوفى .

(٢) البدء بالعبارات والجمل وتنميتها تنمية متدرجة :

فيبدأ المعلم بالجملة السهلة ، ثم يطيلها بإضافة مكملات الاسم أو مكملات الفعل من صفة أو حال أو زمان أو مكان أو غير ذلك مما سنفصله .

(٣) جمع الحقائق المؤتلفة والمتماسكة والتى يدعو التعبير إلى تجانسها ، دون تقيد بما جرت عليه الكتب النحوية من تقسيم علمى يبدأ بالتحدث عن الاسم وأقسامه ثم الانتقال إلى الفعل وأنواعه ، أو التحدث عن المرفوعات ثم الانتقال إلى المنصوبات أو نحو ذلك . فقد يكون من الخير أن نتحدث عن النفى وأدواته، أو عن التوكيد وطرقه، أو عن الزمن وقيوده ،ونعالج ذلك فى أساليب متجانسة متسلسلة ، دون أن نفرق بين أجزاء هذه الموضوعات أو نتقيد بترتيبها على حسب ورودها فى أبواب من النحو مختلفة .

(٤) لا داعى للتعجل بسرد القواعد النحوية ولا للتقيد بالاصطلاحات إذا أمكن الاستغناء عنها. والأجدى أن نلجأ فى تثبيت خصائص اللغة فى أذهان المتعلمين إلى دراسة موضوعات متنوعة الأغراض وتفهمها وتوجيه الذهن إلى نسق الجمل والعبارات ووظائف كلماتها وأثرها فى المعنى وفى الأسلوب.

فإذا عالج التلاميذ على هذا النمط قدرا موفورا من اللغة وعباراتها كان استنباط القواعد أو الحقائق الخاصة بها هينا. هذا إلى أن دراسة هذه القطع له كثير من الفوائد فى تنمية القدرة على التعبير السليم.

(٥) الاستغناء عن تدريس المباحث النحوية التى لا تمت بصلة إلى التعبير الصحيح، ولا تساعد على تذوقه. وفى كتب القواعد قدر من هذا سنشير إليه بعد.

(٦) نتخذ من المباحث الصرفية والاشتقاقية عونا على تنمية معجم التلميذ تنمية متدرجة منظمة مرتبطة بنموه العقلى وبسعة أفقه الحيوى، وبما يقطع من مراحل فى القراءة وفى التعليم فى مختلف المواد، ويجىء هذا فى ثنايا جميع الدروس.

* * *

وسنعرض لهذه الملاحظات بالتفصيل حين نعرض للمادة والطريقة. ولنبدأ بكلمة عن القواعد النحوية وما تتضمن من مباحث ثم نبسط القول فى الطريقة التى تتبع.

القواعد النحوية ومباحثها

تبحث القواعد النحوية فى الكلمات وضبطها وتغيراتها وأوضاعها فى الجملة. ويرجع ذلك فى جملته إلى المباحث الآتية:

(١) موضوعات تطابقية.

(٢) موضوعات لغوية اشتقاقية أو صرفية .

(٣) موضوعات إعرابية .

(٤) موضوعات تتصل بترتيب الكلمات فى الجمل من حيث التقديم والتأخير والذكر والحذف .

الموضوعات التطابقية

(١) أما الموضوعات التطابقية فهى ما يتصل بتطابق الكلمات وموافقة بعضها لبعض من حيث العدد والنوع والأعراب، وذلك فى الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير ووجوه الاعراب .

وليست هذه النواحى بالعسيرة الادراك. فالأطفال فى مراحل مبكرة من حياتهم يتبينون كثيراً من وجوه التطابق ويستطيعون أن يدركوها مما يمر بهم من جمل وأساليب . وإذا نحن أحسنا التدرج وتخير العبارات التى نعرضها وربطنا الأشباه والنظائر المتماسكة ، استطعنا أن نصل بالتلميذ إلى أن يلم إلماماً مقبولا بالموضوعات الآتية، ويدركها إدراكا عمليا يحقق الغاية المرجوة وهى:

المفرد والمثنى والجمع — المذكر والمؤنث — أسماء الاشارة — الأسماء الموصولة — الضمائر — إسناد الأفعال إلى الضمائر — تطابق الصفة والموصوف — الافعال المعتلة — الأسماء المعتلة والممدودة تمهيد لفهم النعت السببى .

فالتطابق يظهر فى هذه الموضوعات ، ويستطيع المعلم أن يصل إليها بعرض العبارات على أسماع التلاميذ وعلى أنظارهم فى دروس المطالعة، أو فى الدروس التى يقصد فيها إلى معالجة هذه النواحى . وبذلك يدركون التغييرات التطابقية وما يرتبط بها ، ويثبتونها فى أذهانهم تثبيتا عمليا هين الادراك ، دون حاجة إلى التعاريف أو الاصطلاحات النحوية أو ما يتصل بذلك مما يمكن الاستغناء عنه.

وإن الطفل فى المراحل الأولى من حياته يدرك هذه الفروق العددية

والنوعية بين الكلمات ، ويدرك أن التطابق فى هذه النواحى لا بد منه ، وإذا طرق سمعه ما يشوبه الانحراف من هذا تنبه إليه وأنكره .

وإلى جانب ما يجىء فى ثنايا التطابق مما أشرنا إليه من موضوعات نحوية، تجىء أيضا بعض الموضوعات الإعرابية التى يمكن أن تعالج بطريقة عملية وهى: إعراب المبتدأ والخبر بالحركات وبالحروف ـ النواسخ وأثرها الإعرابى ـ المفعول به ـ الفاعل ـ الأفعال الخمسة ـ اسم الفاعل وعمله ـ الحال .

وللتطابق شذوذ فى بعض النواحى وهى : افعل التفضيل ـ صفة جمع مالا يعقل ـ الفعل إذا كان فاعله مثنى أو جمعا . ويعالج ذلك فى موضوع التطابق فى المرحلة الملائمة على حسب ما تحتمل مقدرة التلميذ وما يقتضيه نموه اللغوى والعقلى .

الموضوعات اللغوية أو الصرفية

ويندرج تحتها ما يأتى :

المجرد والمزيد من الأفعال والأسماء (أو تنمية الكلمات) ـ الجامد والمتصرف من الأفعال ـ صوغ المضارع من الماضى ـ المشتقات (أو الأسماء المرتبطة بالأفعال) ـ همزة الوصل .

وهناك مجال فى خلال معالجة هذه الموضوعات لتنمية الذخر اللغوى للتلميذ تنمية تسير طبقا لنموه الحيوى والعقلى ، وتكوين معجم يكون صورة لحياته وصلتها بتدرجه اللغوى . وسنرى ذلك مفصلا حين نتعرض للطريقة

الموضوعات الإعرابية

وترتبط بتغيير أواخر الكلمات طبقا للعوامل والأوضاع المختلفة . ولعل هذه الموضوعات هى التى تبدو فى الطليعة فى مباحث القواعد النحوية ، وهى

التى تتجه إليها الأنظار ، ويعتبر الانحراف عنها أو الخطأ فيها أو التزامها من غير اضطراب أو زلل، مقياسا لمعرفة القواعد النحوية وامتلاك زمامها .

وليست هذه الناحية الاعرابية بالعسيرة، لا من ناحية فهمها ولا من ناحية تطبيقها، وذلك لأن أسباب التغيير واضحة ، فمنها نوع هو أدوات معلومة ولها أثر اعرابى واضح ، ومنها نوع يرتبط بالمعنى وباتصال الكلمات بعضها ببعض.

فالتغير الاعرابى ترجع أسبابه إلى عاملين أساسيين : (أولها) الأدوات العاملة (والثانى) وظيفة الكلمة فى الجملة وفى معناها .

الأدوات العاملة

وهى قسمان :

(ا) ما يدخل على المفردات وهى :

النواصب
الجوازم } وتدخل على الأفعال

حروف الجر
أدوات الاستثناء
« النداء } وتدخل على الأسماء

(ب) ما يدخل على الجمل :

وهى النواسخ . ولها أثر معنوى ، فمنها ما يفيد التوقيت أو الاستمرار أو المقاربة أو الرجاء أو الشروع أو الرجحان أو اليقين أو التحول .

ونسير فى اختيار ما نعرضه من هذه الأدوات على التلاميذ سيرا متدرجا، على حسب نموهم ومقدرتهم، وتبعا لكثرة ورود هذه الأدوات واستعمالها،

ونعتبرها ألفاظا لغوية تنمى معجم التلميذ وتساير تفكيره ومقدرته التعبيرية.

وظيفة الكلمة فى الجملة

ويشمل هذا البحث ما يأتى :

المبتدأ والخبر ـ الفاعل ـ نائب الفاعل ـ المفعول بأنواعه ـ الحال ـ التمييز ـ المضاف اليه ـ الصفة ـ التوكيد ـ البدل ـ عطف البيان .

ومما يساعد على تيسير بعض هذه المباحث الاعرابية، وعلى تقريب متناولها وتقليل التفريع والتبويب فيها ، أن نلاحظ أن لكل من الاسم والفعل مكملات. فمكملات الاسم هى الصفة والبدل والتوكيد، وهى تتبعه فى الاعراب. ومكملات الفعل توضحه أو تؤكده أو تبين سببه أو زمانه أو مكانه ، وهى المفعول المطلق والمفعول لأجله وظرف الزمان وظرف المكان ، وتكون منصوبة .

ويجدر بنا كذلك أن نوازن بين مظاهر الاعراب وعلاماته فى خلال معالجة هذه المباحث الاعرابية، حتى يعرف التلميذ العلامات الأصلية للاعراب، ويدرك أيضا ما يجىء على غير ذلك ، وهذا فى مواضع سبعة وهى : المثنى وجمع المذكر والافعال الخمسة والاسماء الخمسة وجمع المؤنث السالم والممنوع من الصرف والمعتل من الأسماء والأفعال .

ترتيب الكلمات فى الجملة

ومسائل هذا الموضوع تجىء منثرة فى أبواب النحو ، وليس لها أثر كبير فى ضبط أواخر الكلمات . ولعل بعض هذه المسائل أقرب إلى البحث فى الأساليب وفى طرائق التعبير العربى منها إلى البحث الاعرابى الذى يحتاج إليه التلميذ لتقويم اللسان واتقاء الخطأ .

وهاك أمثلة من هذه المسائل مما يذكر فى مباحث النحو : ـ

(فمن أمثلة التقديم):

تقديم المبتدأ أو الخبر وجوبا أو جوازا ـ تقديم أخبار النواسخ عليها ـ توسط أخبار النواسخ بينها وبين أسمائها ـ وقوع معمول خبر النواسخ بعدها ـ تقدم الخبر على الاسم فى « ما » ـ تقدم خبر إن وأخواتها عليها ـ توسطه بينها وبين اسمائها ـ تقديم معمول الخبر على الاسم أو على الخبر ـ تقديم خبر « لا » على اسمها ـ توسط العامل بين المفعولين فى النواسخ ـ تقدم الفاعل على الفعل ـ تقدم المفعول على الفاعل وجوبا أو جوازا ـ تقدم المفعول على الفعل وفاعله ومتى يجوز ومتى يجب ومتى يمتنع ـ تقديم بعض المفاعيل على بعض ـ تقدم الحال على صاحبها أو على عاملها وتأخرها عنه ـ تقدم التمييز على عامله ـ تقدم المستثنى على المستثنى منه ـ الترتيب بين الاسم والكنية واللقب .

(ومن أمثلة الحذف):

حذف المبتدأ أو الخبر وجوبا أو جوازا ـ حذف عائد الموصول ـ حذف كان ـ حذف أحد المعمولين فى « لات » ـ حذف الخبر فى أفعال المقاربة ـ حذف اسم لا ـ حذف المفعولين أو أحدهما ـ حذف فعل الفاعل وجوبا أو جوازا ـ حذف العامل فى التنازع ـ حذف عامل المصدر فى باب المفعول المطلق ـ حذف عامل المفعول فيه ـ حذف الحال أو صاحبها أو عاملها ـ حذف المضاف إليه ونية لفظه أو معناه ، إلى غير ذلك .

فإذا كان من هذه المسائل ماله فائدة فى تذوق الأساليب وفهم ما بينها من فروق ، فإنه يكفى للوصول إلى ذلك أن تعرض العبارات وتعالج معالجة معنوية . وذلك انما يكون فى المرحلة التى يستطيع فيها التلميذ ادراك هذا والاستفادة منه .

* * *

وفوق ما أشرنا اليه من موضوعات نحوية وصرفية تجىء فى ثنايا مباحث التطابق وغيرها ، هناك موضوعات أخرى تعالج علاجا خاصا وهى :

(١) نعم وبئس - التعجب - التفضيل - الإغراء والتحذير - الاختصاص - الاستغاثة والندبة .

وهذه الموضوعات أشبه بتراكيب خاصة فى اللغة العربية لها نسق خاص فى صوغها . ويكفى فى إيضاح ميزاتها الإعرابية وغيرها أن تعرض عبارات مختلفة يدرك منها التلاميذ طريقة صوغ هذه التراكيب ومواطن استعمالها ومافى ثناياها من مختلف المعانى . ولسنا فى حاجة إلى التوجيه الإعرابى فى معظم هذه التراكيب ، وحسب المتعلم أن يفهمها ويصوغها صوغا صحيحا ويستطيع استعمالها فى المقاصد المختلفة .

(٢) التصغير والنسب :

ويكفى فى معرفة المسائل المختلفة لهذين الموضوعين أن نتخير طائفة من الأمثلة المستعملة فى الحياة ، لا الأمثلة الفرضية ، ونعرضها على التلاميذ فى جداول يرجعون إليها ، ويتتبعون مااعترى الكلمات من تغيير فى حالات التصغير والنسب ، ويستطيعون من تتبع الأمثلة أن يدركوا ماهنالك من قواعد لهذين الموضوعين، ولايكونون فى حاجة إلى أن تسرد لهم قواعدهما المختلفة ، بعد أن عرفوا الطريقة العملية فى أكثر الكلمات المستعملة أو التى يمكن أن تصادفهم فى حياتهم العملية أو التعليمية .

(٣) العدد :

وطريقة معالجته إنما تكون بالتمرين العملى وبالأمثلة الكثيرة التى تثبت بها قواعد العدد فى الأذهان ثباتاً عمليا .

(٤) توكيد الفعل :

يجىء إلى جانب إسناد الأفعال للضمائر ، وتوضع له جداول تتضمن طائفة من الأفعال يقاس عليها غيرها، ويتخذ المعلم من معالجة هذا الموضوع وسيلة لتنمية الناحية اللغوية فى معجم التلاميذ، وذلك بعرض بعض الأفعال التى تلائم مستواهم ويستطيعون الانتفاع بها .

ولعل من الخير أن يعالج موضوع توكيد الأفعال مع موضوع التوكيد بصفة عامة وشرح وسائله المختلفة وأدواته ومايتصل بذلك . ويكون هذا فى المرحلة التى يأنس فيها المعلم من استعداد التلاميذ على حسب معلوماتهم ومداركهم .

(٥) أسماء الأفعال والأصوات :

تعالج على أنها كلمات لغوية، فنوضح للتلاميذ معانيها وطريقة استعمالها. ومتى أدركوا ذلك كان من الهين أن يفهموا مالها أو مالبعضها من أثر إعرابى.

(٦) العلم والمحلى بأل والمضاف إلى أحد المعارف :

ولعل هذه المسائل لاتحتاج إلى بحث خاص ، وليس هناك مايدعو إلى التعرض لها فى تعليم الناشئين فليس لها أثر إعرابى .

(٧) همزة إن وفتحها أو كسرها :

ويعالج من هذا الموضوع ماله أسباب واضحة كثيرة الاستعمال،وذلك بالطريقة العملية ، بعرض الجمل والتراكيب المختلفة .

(٨) دخول « ال » على المضاف :

ويعالج بالطريقة العملية أيضا فى ثنايا إنشاء الجمل والعبارات .

(٩) الاشتغال :

ومسائله ترجع إلى مباحث المبتدأ والخبر أو إلى مباحث المفعول به . وإن المعنى الذى يراد ، سيساعد على التوجيه الإعرابى . ولامانع من السير على مذهب الكوفيين فى حالات نصب المشغول عنه من جعله منصوبا بالفعل بعده ، لا بفعل محذوف يفسره المذكور .

(١٠) وهناك مبحث آخر وهو زيادة بعض الكلمات وذلك مثل :

زيادة كان — زيادة غيرها من النواسخ — زيادة الباء فى خبر ليس وفى خبر « ما » — جر التمييز بمن الزائدة ، إلى غير ذلك . وشأن هذه

المسائل الخاصة بالزيادة شأن التقديم والحذف ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم .

* * *

لعلنا بعد هذا ننتظر تحديد المنهج الذى سيدرس، وسرد مباحثه، وترتيب أبوابه ، ولكننا لانريد أن نتعجل فنرسم هذا المنهج، لأن العناصر التى أشرنا إليها وهى النواحى التطابقية والإعرابية والاشتقاقية سيجىء كثير منها فى ثنايا الجمل والعبارات التى سنتخذها أساساً للطريقة ، وفى أثناء ذلك يدرك التلميذ المسائل النحوية ، دون أن نشعره بأنها قواعد تتطلب التعاريف والألفاظ الاصطلاحية، أى أن كثيراً من هذه المسائل سيجىء فى صورة إنشائية وعلى أسلوب تكوين الجمل ، طبقاً للأصول التى أوضحناها من قبل .

لهذا سنرجىء التعرض لتحديد المنهج الدراسى فى القواعد النحوية إلى أن نشرح الطريقة التى تتبع ، ثم نبين مايستفيده التلميذ فى أثناء ذلك من خصائص اللغة ومميزاتها، ونوازن بين ذلك وبين القواعد النحوية المسطورة فى الكتب ، لنرى مايجنى التلاميذ فى الحالين ، ولنعلم الفرق التعليمى والعلمى بين الاتجاهين .

طريقة التدريس

الطريقة التى سنتبعها فى تعليم القواعد هى طريقة عرض العبارات وإنشاء الجمل كما أشرنا . ويجمل بنا قبل السير فى تفصيل هذه الطريقة أن نوضح حقيقة نرى أن لها شأناً فى الإفادة ،وفى تحقيق الغرض الذى نقصده ، وهى طبيعة الأمثلة التى نرتكز عليها فى الإيضاح وموضوعاتها . فقد قلنا أن الخطة التى نرى اتباعها فى تعليم القواعد يجب أن تكون إنشائية لغوية فى ميدان حيوى شائق ، فالأمثلة البتراء المتكلفة لاتحقق الغاية التى ننشدها .

وقد جرى تعليم القواعد وبعض كتبها على نهج عماده التمثيل بعبارات

لاتحمل فى طياتها من صور الحياة شيئاً ذا شأن، مثل جاء زيد وضرب زيد عمرا، ثم أراد المجددون أن يكسبوا أمثلتهم لونا طريفا، وأن يهجروا التمثيل بزيد وعمرو، فاتجهوا إلى الزهرة وإلى تغريد الطيور وإلى السباحة واللعب ونحو ذلك. ولسنا ننكر مافى بعض هذا من طرافة، ولكننا لانرى فى التغيير الشكلى كل مانريد، بل إن بعض هذه الأمثلة لايختلف اختلافا كبيرا عن التمثيل بزيد وعمرو. وليس منشأ الاعتراض على هذه الأمثلة هو قصرها، فإنا لانعترض على أن تكون الأمثلة أحيانا جملا قصيرة، إذا دعت الحال إلى ذلك، ولانقيس المثال بعدد كلماته، وإنما نقيس الأمثلة بمقدار مالها من صلة بالحياة، ومافيها من تشويق وإثارة لاهتمام التلميذ ونشاطه الحيوى، وبسعة أفقها، ومدى اتصالها بعناصر تكسبها حياة وقوة وطرافة، وتجعل أثرها فى النفس قويا عميقا. فالمثال وحدة لغوية إنشائية يشبه الوحدات الإنسانية التى يتكون منها المجتمع، فمن الناس من لاتحس له أثراً حيويا ولاتشعر بفراغ إذا غاب، ومنهم من تجد فى مجالسته سروراً وفائدة وتوجيها نافعاً، وتحس أن لحياته مكانة وأثرا. وكذلك الأمثلة، منها مانجده أبتر مقطوع الصلة بالصور العقلية وبالحقائق الحيوية، ويكون أشبه بشخص هائم لاترتبطه بالحياة صلة، ولايكون له شأن ولا أثر، ومنها ماتجد فيه الحياة الحقيقية وصورها وما تأنس به النفس. وإن هذه الصلة وربط الحقائق بعضها ببعض، هو الذى يكسبها قوة ويجعل منها مجموعات تشبه مجموعات بنى الإنسان، فالحقائق العقلية كالجنود المجندة، ماتعارف منها ائتلف وماتناكر اختلف. وهذه نظرية معروفة فى التربية، وهى إحدى النظريات التى جاء بها «هربارت» وبناها على رأيه فى العقل وأنه مكون من مجموعات الحقائق المؤتلفة.

وعلى هذا سنقيس الأمثلة التى نجىء بها فى القواعد بمقياس ارتباطها بسلسلة من الحقائق الحيوية، وبما ينسج حولها من صور عقلية، وبما تثيره من شوق التلميذ واهتمامه، ومايرتبط منها بتجاربه وبميدانه الحيوى.

واختيار الأمثلة على هذا الأساس يستلزم أن نحقق فكرة أشرنا إليها،

وهى أن تعليم القواعد يجب أن يسير على نهج إنشائى لغوى ، وأن يرتكز على تعليم اللغة وعلى مايجىء فى ثنايا ذلك من عبارات وأفكار . وعلى هذا ينبغى أن يكون مجال تعليم القواعد موضوعات تامة شائقة تناسب مستوى التلاميذ ، كقطع المطالعة وموضوعات المحادثة ، وأن يكون منها الحكايات المصورة وغير ذلك .

وعلى هذا سنلجأ فى تعليم القواعد إلى المطالعة والمحادثة على أساس المحاكاة والتكرار ، وسنعالجها فى ثنايا تعليم اللغة كما أوضحنا .

إنشاء الجمل

وإنشاء الجمل أسلوب من التمرين نستطيع استخدامه فى تعليم اللغة وخصائصها بطريقة تحقق كثيراً مما أشرنا إليه من السير فى تعليم القواعد على الأساس الإنشائى واللغوى ، ومزج تعليمها بتعليم الأساليب والعبارات وبذلك يدرك التلميذ قواعد اللغة إدراكا عملياً تطبيقياً .

وإن الإكثار من التمرين ، والافتنان فى أنواعه وأساليبه، يفسح المجال لتحقيق الأساسين اللذين أشرنا إليهما ، وهما المحاكاة والتكرار . وبذلك يجول التلاميذ فى ألوان التعبير وفنونه جولات تفيدهم فى النواحى الانشائية واللغوية ، وتطبع فى أذهانهم خصائص اللغة أو قواعدها بطريقة عملية يستطيعون احتذاءها فى تعبيرهم وقراءتهم .

وسنتبع فى إنشاء الجمل طريقة متدرجة :

(١) فنبدأ بالجملة السهلة المشتملة على عنصرين ، ثم ننميها بما يزاد عليها من مكملات الاسم ومكملات الفعل وأسماء الاشارة والأسماء الموصولة ونقرن ذلك بالضمائر وأحوالها ومافى كل ذلك من تطابق فى الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وأوجه الإعراب .

(٢) ثم ندخل الأدوات العاملة على الجمل وعلى المفردات ، على حسب كثرتها فى الاستعمال وحاجة التلاميذ اليها وإدراكهم لمعانيها .

(٣) ونعالج أيضا أنواع الاعراب التى قلنا أن مرجعها إلى موضع الكلمة فى الجملة وإلى ما يسبقها .

(٤) وفى ثنايا كل هذا نتعرض للناحية الاشتقاقية التى يمكن اتخاذها وسيله لتنمية الذخر اللغوى للتلاميذ .

(٥) أما نواحي التقديم والتأخير والذكر والحذف والزيادة، فإن علاجها أقرب إلى ناحية الأسلوب منه إلى البحوث الاعرابية الخالصة كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وهذه هى الأقسام الأربعة التى قلنا إن القواعد النحوية والصرفية تنحصر فيها وهى : التطابق - والاعراب الذى يرجع إلى أدوات ظاهرة أو إلى وضع الكلمة - والجانب الاشتقاقى - وما يتصل بترتيب الكلمات فى الجملة .

ولا نعالج هذه المباحث منفصلا بعضها عن بعض ، فان هذا الفصل لا يساير التدرج الإنشائى ، والأجدى مزج بعضها ببعض على قدر ما تحتمل مقدرة التلاميذ من الوجهتين الإنشائية واللغوية .

☆ ☆ ☆

وسنبسط كل هذا بذكر أنواع الجمل التى نعرضها على التلاميذ ونتدرج فى تنميتها على النهج الآتى :

( ) جمل اسمية تشتمل على مبتدأ وخبر مع تثنيتها وجمعها .

(٢) زيادة أسماء الاشارة عليها .

(٣) جمل اسمية خبرها فعل ماض لازم مرة ومتعد مرة أخرى ، مع ذكر مفعوله مشتملا على ضمير .

(٤) جعل المبتدأ فى هذه الجمل للعاقل مرة ولغير العاقل أخرى ، حتى يدرك التلاميذ الفرق فى الأسلوب فى الحالتين .

(٥) جمل اسمية تشتمل على صفة للمبتدأ .

(٦) وصف المبتدأ باسم موصول .

(٧) جمل اسمية مبتدؤها ضمير منفصل .

(٨) تكوين جدول للضمائر الاثنى عشر ، للمتكلم وللمخاطب وللغائب، مقترنة بالأفعال الماضية والمضارعة ، مع الاهتمام باختيار الأمثلة مماله صلة بحياة التلاميذ وبيئاتهم،حتى تكون ذخرا نافعاً لهم .

(٩) الموازنة بين جمل اسمية خبرها فعل مسند لاسم ظاهر ، وجمل اسمية خبرها فعل وفاعله ضمير مستتر يعود على المبتدأ .

(١٠) التدرج من ذلك إلى فكرة ارتباط الوصف بغير الموصوف (النعت السببى) .

(١١) جمل اسمية بحتة وجمل اسمية خبرها فعل وتشتمل على حال .

(١٢) عبارة تكون الحال فيها جملة .

وإن معالجة هذه الجمل تحقق جانبا عظيما من التمرين الانشائى، وتتخذ وسيلة لعرض طائفة من القواعد النحوية أو الخصائص اللغوية، وقد أشرنا إليها من قبل ، عند الكلام على الموضوعات التطابقية .

ولنذكر نماذج عملية للطريقة التى ستعالج بها هذه الأنواع من الجمل :

(١) تعرض على التلاميذ قطعة كالقطعة الآتية :

(الشرطى) « الشرطى واقف فى الشارع ليحافظ على النظام ويقبض على اللصوص ويمنع المتشاجرين . وهو قوى الجسم ويلبس ملابس خاصة » .

وبعد قراءة القطعة وفهم مافيها من ألفاظ وجمل ، نبدأ بمعالجتها من الناحية الانشائية بطريقة المحادثة، ثم نوجه إلى التلاميذ أسئلة كالأسئلة الآتية للإجابة عنها :

ماوظيفة الشرطى ؟ أين يقف ؟ ماالذى يلبسه ؟.

ثم نتدرج فى هذه المعالجة الانشائية فنمزجها ببعض الخصائص النحوية مثل:

الشرطى واقف فى وسط الشارع

الشرطيان واقفان «

الشرطيون واقفون «

الشرطى سائر فى الطريق

الشرطيان سائران «

الشرطيون سائرون «

وفى مرحلة تالية نعود إلى هذه الجمل فنضيف إليها اسم الاشارة .

(٢) تعرض القطعة الآتية :

(الكشاف) انظر إلى الكشاف فى ملابسه وهو يحمل الراية المصرية ويسير أمام الصفوف ، والكشاف كأنه جندى صغير . وهو محب للخير ويساعد جميع الناس .

ونعالج القطعة معالجة إنشائية على مثال مافعلنا فى القطعة السابقة ، ثم نتدرج ونعرض عبارات كالآتية :

الكشاف محب للخير	الكشاف لابس ملابس الجنود
الكشافان محبان «	الكشافان لابسان «
الكشافون محبون «	الكشافون لابسون «

وبعد ذلك نضيف اسم الإشارة .

(٣) ذهبت البنت لتطعم الدجاج، فأخذت الحبوب، ثم نثرت بعض الحب، فأسرعت الدجاجات إليه، وأخذت تلتقطه بسرعة .

نعالج الناحية الانشائية بإلقاء أسئلة يجيب عنها التلاميذ ، ثم نتدرج إلى الناحية النحوية كما يأتى :

البنت تطعم الدجاج	الولد يطعم الدجاج
البنتان تطعمان «	الولدان يطعمان «
البنات يطعمن «	الأولاد يطعمون «

الدجاجة تلتقط الحب

الدجاجتان تلتقطان «

الدجاجات تلتقط «

ثم نضيف بعد ذلك اسم الاشارة .

(٤) جلس تلميذ على شاطىء البحر وكان معه بعض زملائه من مدرسته، وكان الهواء جميلا نقيا والبحر لونه أزرق والأمواج شـــديدة تصطدم بالشاطىء فيصعد الرشاش .

وكان بعض الأولاد يستحمون فذهب أحدهم فى داخل البحر،ولما تعب صاح طالباً الانقاذ ، فأسرع أحد حراس الشاطىء وعام فى الماء حتى وصل إليه وأنقذه .

بعد المعالجة الانشائية بالأسئلة والاجابات نتدرج إلى الناحية النحوية كما يأتى :

التلميذ جالس على شاطىء البحر	الولد سابح فى الماء
التلميذان جالسان « «	الولدان .. ..
التلاميذ جالسون « «	الأولاد .. ..
التلميذة جالسة « «	البنت .. ..
التلميذتان جالستان « «	البنتان .. ..
التلميذات جالسات « «	البنات .. ..

ثم نضيف اسم الاشارة إلى هذه الجمل كما فعلنا من قبل .

(٥) غرس البستانى فى حديقة المدرسة شجرة ورد ، وبعد مدة كبرت هذه الشجرة وأثمرت ، وظهر فيها الورد الصغير . وكانت كل وردة فى أول الأمر فى غلاف أخضر ، ثم نمت وتفتحت وظهر الورد جميل اللون ، ثم غرس البستانى شجرة أخرى فنمت أيضا وأثمرت .

وبعد ذلك فكر تلاميذ المدرسة فى أن يغرسوا شجرة ثالثة فى الحديقة وقد أثمرت بعد مدة وأصبح فى حديقة المدرسة ثلاث شجرات مثمرات .

الشجرة مثمرة	هذه الشجرة مثمرة
الشجرتان مثمرتان	هاتان الشجرتان مثمرتان
الشجرات مثمرات	هذه الشجرات مثمرات
التلميذ غرس شجرة	هذا التلميذ . . . .
التلميذان غرسا شجرتين	هذان . . . . . .
التلاميذ غرسوا ثلاث شجرات	هؤلاء . . . . . .

هذه أمثلة يستطيع المعلم أن يجىء بكثير من أشباهها . وأن يفتن فى معالجتها افتنانا شاملا واسع المدى ، مقرونا بما يبعث شوق التلاميذ ويثير اهتمامهم . وإن فى شؤون الحياة وما يحيط بهم ميدانا حافلا بالمعانى الملائمة لعقولهم ، وبالطرائف التى تجتذب انتباههم . ونستطيع أن نتخذ من كل ذلك عونا على إنشاء موضوعات سهلة ، نعالجها كما نعالج قطع المطالعة ودروسها ، ونستخدم فى ذلك الحوار الذى يوجه العقول إلى مختلف المعانى ومتنوع العبارات . فيقرأ التلاميذ القطعة ويفهمونها فهما كليا وجزئيا من جهة المعنى والتراكيب والألفاظ ، ثم نحاورهم فيها حوارا معنويا يدعو إلى تغيير الأساليب طبقا للغاية التى يقصد المعلم إلى تحقيقها .

وبذلك يشعر التلاميذ أنهم فى جو مألوف لهم ، وهو جو الحقائق الحيوية والتعبير الطبيعى، الذى يستخدمه جميع الناس فيما يصادفون من شئون الحياة .

ويستطيع المعلم أن يتخذ من دروس المطالعة وغيرها وسيله لتعليم القواعد، مادام قد وضع نصب عينيه أن القواعد ليست إلا خصائص للغة تتجلى فى مختلف عباراتها ، ويستطيع التلميذ أن يدركها بمعونة وبغير معونة ، فيراها ممثلة فيما يعرض عليه من عبارات ثم يحاكيها فيما ينشىء من جمل وتراكيب ، ويحتذى مايراه من افتنان فى التنويع الذى يعرضه المعلم فى الجمل والأساليب ، طبقا للتغيير العددى أو الذاتى أو الاعرابى أو غير ذلك مما أوضحناه .

ويتدرج المعلم فى إنشاء الجمل وتنميتها طبقا لما أشرنا إليه ، بادئا بالجمل السهلة التى تشتمل على مبتدأ وخبر ، ثم يزيد فيها أسماء الاشارة والأسماء الموصولة والصفة والحال ، ثم يستخدم الضمائر ويشفع ذلك بجدول يحقق، إلى جانب معرفة الضمائر ، غرضا آخر وهو اسناد الأفعال اليها . وبعد ذلك يمهد للنعت السببى بالطريقة التى أشرنا إليها من قبل، بالموازنة بين جمل اسمية يتضمن خبرها فعلا وفاعله ضمير أو اسم ظاهر .

وليكن أسلوب المعلم فى كل هذا طبيعيا يساير مقدرة التلميذ من جميع الوجوه اللغوية والحيوية والعقلية . وليضع نصب عينيه حقيقة لها شأنها فيما نحن بصدده ، وهى أن اللغة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، تلازم الحياة وتساير التفكير ، ومن الخطأ أن تفصل اللغة أو خصائصها أو قواعدها عن ميادين التعبير أو التفكير .

وللمعلم أن يمزج أنواع الجمل التى أشرنا اليها ، أو يقدم أو يؤخر ، فله بعد أن يعالج الجملة السهلة المكونة من مبتدأ وخبر مفردين ، أن يتبع ذلك بجمل اسمية خبرها فعل أو ظرف أو جار و مجرور ، ثم يجىء بعد ذلك بجمل فيها وصف للمبتدأ أو اسم إشارة أو اسم موصول أو حال أو نحو ذلك ، وله أن يرتب هذه الموضوعات ترتيبا آخر على حسب الظروف التى تحيط به وبتلاميذه، مادامت الخطة العامة التى يسير عليها هى اتباع الأسلوب

الانشائى واتخاذه أساسا لعرض خصائص اللغة وتثبيت أثرها العملى فى أذهان التلاميذ .

ويراعى فى هذه التمرينات أن يكون بعضها من عمل المعلم ، وأن يترك بعضها الآخر يتمه التلميذ محاكيا فى ذلك الأساليب التى عرضت عليه .

* * *

ويجدر بالمعلم أن يلاحظ ما هنالك من تقارب معنوى بين الخبر والصفة والحال ، وما يثيره هذا التقارب فى بعض الأحيان من شبهات تعرض للأطفال ، فليحسن اختيار الأمثلة بحيث لاتثير شيئا من ذلك ، وليرجىء الفروق الدقيقة بين هذه الموضوعات إلى أن تنمو مقدرة التلاميذ ويلموا بالقدر الكافى من أساليب اللغة وعباراتها ، وبذلك يستطيعون إدراكها فى سهولة ويسر .

ويستطيع المعلم وهو فى هذا النطاق الانشائى، نطاق إنشاء الجمل وتغيير العبارات تغييرا تطابقيا ، أن يتعرض لمكملات الفعل ومكملات الاسم . أما مكملات الفعل فهى : الظرف والمفعول لاجله والمفعول المطلق ، ويمكن اعتبار الحال مكملا للفعل وهو وصف له فى المعنى ، كما نص على ذلك سيبويه فى كتابه إذ سماه نعتا للفعل، والمراد بالفعل المصدر الذى يدل عليه الفعل . وأما مكملات الاسم فهى : الصفة والتوكيد والتمييز والمضاف إليه . فيعالج كل هذا على أساس معنوى بأن يوجه الأذهان إلى ما لهذه المكملات من أثر فى المعنى وفى توضيح المقصود وفى تحديد الزمان أو المكان أو بيان السبب أو التوكيد أو غير ذلك . ويزيد هذه الحقائق وضوحا أن تقترن بأدوات الاستفهام عن الزمان أو المكان أو السبب أو الحال، مثل : متى وأين ولماذا وكيف إلى غير ذلك ، وسيرى التلاميذ فى خلال كل هذا أن مكملات الفعل تكون دائما منصوبة ، وأن مكملات الاسم تكون مثله فى الاعراب فى أغلب الحالات .

* * *

مما تقدم نرى أن الطريقة الانشائية أو طريقة إنشاء الجمل وتنويع الأساليب ، نستطيع بها أن ننفذ إلى طائفة من القواعد النحوية، وأن نثبت أثرها فى أذهان التلاميذ ، دون أن يشعروا بأعباء ما هو متبع الآن من أساليب تجعل هذه القواعد كالطلاسم ، وتبرزها فى شكل يبدو منقطع الصلة بالتعبير والتفكير . ويضع حاجزا حصينا بين التعبير وبين مايتضمنه من خصائص هى فى حقيقتها قواعد اللغة .

(الأدوات العاملة) .

قد أشرنا من قبل إلى أن ضبط أواخر الكلمات أو تغييرها له سببان : أولهما ما تكتسبه الكلمة تبعا لوظيفتها فى الجملة وما تؤديه من معنى ، والثانى أدوات خاصة محصورة لها أثر فى الاعراب معروف.

وقد رأيت فيما أوضحنا فى انشاء الجمل أنه يمكن أن تجىء فى ثنايا جميع الموضوعات الاعرابية التى ترجع إلى وظيفة الكلمة ما عدا نائب الفاعل ، وهو موضوع نستطيع أن نعالجه فى ناحية خاصة من نواحى انشاء الجمل وننتهز الفرصة للتعرض لتغيير الفعل فى حركات حروفه .

أما الأدوات العاملة أى التى يصحبها ضبط خاص للكلمات، فانا نسير فى عرضها وفى استخدامها على حسب مكانتها فى الاستعمال الانشائى وكثرة ورودها فى التعبير . وقد أشرنا من قبل إلى أنها قسمان . (١) ما يدخل على المفردات ، أسماء كانت أو أفعالا (٢) ومايدخل على الجمل وهى النواسخ .

وهذه الأدوات معروفة محصورة وهى :

(١) حروف الجر :

من ـ إلى ـ عن ـ على ـ فى ـ حتى ـ مذ ـ منذ ـ رب ـ خلا ـ عدا ـ حاشا ـ كى ـ لعل ـ متى ـ اللام ـ الباء ـ الواو ـ التاء ـ الكاف .

(٢) أدوات الاستثناء :

إلا ـ غير ـ سوى ـ عدا ـ حاشا ـ ليس ـ لايكون ،

(٣) أحرف النداء :

يا ـ أيا ـ هيا ـ أى ـ الهمزة .

(٤) النواصب :

أن ـ لن ـ كى ـ إذن ـ أو ـ لام الجحود ـ حتى ـ فاء السببية ـ واو المعية ـ لام التعليل .

(٥) الجوازم :

لم ـ لما ـ لا الناهية ـ لام الأمر ـ إن ـ إذ ما ـ من ـ ما ـ مهما ـ متى ـ أيان ـ أين ـ أنى ـ حيثما ـ كيفما ـ أى .

(٦) كان وأخواتها :

كان ـ أصبح ـ أمسى ـ أضحى ـ ظل ـ بات ـ صار ـ مادام ـ مابرح ـ مازال ـ ما انفك ـ مافتىء ـ ليس .

كاد ـ كرب ـ أوشك (وهى للمقاربة)

عسى ـ حرى ـ اخلولق (وهى للرجاء) .

شرع ـ أنشاء ـ طفق ـ جعل ـ علق ـ أخذ ـ قام ـ أقبل ـ هب (وهى للشروع) ـ آض ـ رجع ـ عاد ـ استحال ـ قعد ـ حار ـ ارتد ـ تحول ـ غدا ـ راح (وهى بمعنى صار)

ما ـ لا ـ لات ـ إن (المشبهات بليس)

(٧) ان وأخواتها :

إن ـ أن ـ لكن ـ كأن ـ ليت ـ لعل ـ عسى (بمعنى لعل فى لغية) ـ لا

(٨) ظن وأخواتها :

وجد ـ درى ـ ألفى ـ تعلم (أفعال القلوب لليقين)

جعل حجا ـ عد ـ زعم ـ هب (للرجحان)

رأى ـ علم (لليقين غالبا)

ظن ـ خال ـ حسب (للرجحان غالبا)

صير ـ جعل ـ اتخذ ـ وهب ـ ترك ـ رد (للتصيير)

* * *

وواضح أن هذه الأدوات ليست كلها فى درجة واحدة من الذيوع ، ومنها أدوات أثبتها النحاة لأنها وردت فى بعض لهجات العرب ، مثل كى ولعل ومتى حين تكون حروف جر . ومنها أدوات تستعمل استعمالات مختلفة تبعا لمعناها مثل : متى وأى ، فإنهما تجيئان للاستفهام وللشرط . ومثل «جعل» فإنها تجىء من أخوات ظن للرجحان ، ومن أفعال الشروع ، ومن أفعال التصيير . ومثل «عسى» فإنها تجىء للرجاء ومن أخوات «إن» بمعنى لعل . ومثل : «خلا وعدا وحاشا» فإنها تكون أحرف جر وأدوات استثناء . ومثل «من» فإنها تجىء للشرط وللاستفهام وموصولة . ومثل : «ما» فان لها معانى عشرة وهى :

استفهامية — شرطية — موصولة تعجبية — نكرة موصوفة — كافة — نافية - زائدة- مهيئة لدخول رب - مصدرية .

ومن هذه الأدوات ما يمكن حذفه من مبحث العوامل ، لأنها ليس لها أثر خاص يميزها من بقية الأفعال بمظهر إعرابى تستحق به أن تفرد بالذكر بين العوامل الاعرابية . وذلك مثل أفعال المقاربة وأفعال الرجاء وأفعال الشروع ، فإن ما اشترطه النحاة من أن خبرها يكون فعلا ، يجعل أثرها فى الخبر أثرا فى المحل لا فى اللفظ .

وعلى ذلك يمكن النظر اليها من ناحية أنها أفعال تحتاج إلى مرفوع فقط . وهذا المرفوع قال بعض النحاة أنه شبيه بالفاعل ، وإذا سرنا فى خبر كان وأخواتها على رأى «الفراء» من أنه شبيه بالحال ، أو على رأى باقى الكوفيين من

أنه حال ، فانا نصبح فى غير حاجة إلى التعرض لهذه الأدوات أو ذكرها ضمن النواسخ .

ونستطيع أيضا أن ننظر إلى « إن وأخواتها » على أساس ماقال النحاة من أنها شبيهة بالأفعال . وبذلك يكون السبب فى نصب مابعدها واضحا .

من كل هذا يتضح أن فى الأمكان الاستغناء بتاتاً أو إلى درجة ما ، عمايذكر لهذه الأدوات من أنها ترفع الاسم وتنصب الخبر أو بالعكس ، وإذا لم نشأ الاستغناء عن هذا التفصيل النحوى فان الفكرة التى أشرنا إليها تذلل الصعاب إلى حد كبير ، على أنا نعتقد أن الاستغناء عنها هين يسير لايفوت معه شىء ذو شأن .

والباقى من الأدوات العاملة بعد هذا يمكن أن يرتب تبعا لكثرة دورانه وذيوع استعماله ، ويكتب فى جداول فى مصورات تشبه المصورات الايضاحية فى دروس مبادىء العلوم ونحوها ، وبجانب كل أداة بعض الأمثلة المألوفة . وتعرض هذه المصورات فى الدروس المختلفة للاستعانة بها على تثبيت الحقائق بعد الايضاح المقترن بالأمثلة الكثيرة ، وتعلق على جدران حجرات الدراسة للإشارة إليها عند الحاجة. وإن الافتنان فى هذه المصورات واسع المجال ، ويمكن أن يقترن فى الفرق الصغيرة بالصور التى يكلف التلاميذ التعبير عما تتضمنه من المعانى .

وتكون هذه المصورات على نمط يشبه مايأتى :

حروف الجر (ا)

الحرف	المثال
من	اشترى الولد القلم من المكتبة
إلى	وصلت السفينة إلى الشاطىء
فى	صب الماء فى الكوب
على	وضع الكتاب على المنضدة
الباء	فتح الباب بالمفتاح

وننتقل بعد ذلك إلى باقى أدوات الجر فنضعها بالتدريج فى جداول أخرى على الترتيب الآتى :

اللام ـ الكاف ـ عن

الواو ـ التاء ـ منذ

أما « مذ » فيشار إلى أنها لغة أخرى فى منذ

وأما « حتى » فانها ترجأ إلى مرحلة مقبلة ، لأن مجيئها أداة نصب بأن المقدرة بعدها يجعل لها شأناً آخر مشوبا بشىء من الصعوبة على الصغار . وكذلك الشأن فى «خلا وعدا وحاشا » .

ونسير فى النواصب على نظام كهذا ، على الترتيب الآتى :

(١) أن ـ لن ـ كى ـ لام التعليل.

(٢) لام الجحود ـ حتى .

(٣) الفاء ـ أو ـ إذن .

ونسير فى أدوات الاستثناء وأحرف النداء على هذا النظام .

يبقى بعد ذلك «ظن وأخواتها» وأفعال التصيير، والمستعمل منها بكثرة إنما هو أدوات قليلة ولعلها لاتعدو ما يأتى :

ظن ـ حسب ـ خال ـ وجد ـ ألفى ـ رأى ـ علم ـ صير ـ اتخذ .

فتوضع هذه الأدوات فى جداول مقرونة بالأمثلة كما سبق ، على أنه يمكن أن يكون البحث فيها حين البحث فى المفعول .

* * *

فالأدوات العاملة يسيرة الخطب فى تفهمها وتعرف أثرها . ومما يزيد هذا اليسر أنا سنعالجها على أساس معنوى فى ثنايا الموضوعات المتصلة بحياة التلاميذ ومنابع شوقهم واتجاه اهتمامهم ، على أن تكون موضوعات تامة لا أمثلة بتراء ، وقد أوضحنا ذلك عند الكلام على الأمثلة .

* * *

والجداول التى تتضمن الأدوات العاملة لن تكون أساس الايضاح ، بل خلاصة يشير إليها المعلم للتذكير . أما تعرف الحقائق وتثبيت أثرها فإنا نسلك إليه قاعدتنا العامة التى رسمناها، وهى مزاولة الموضوعات ومافيها من عبارات كما أوضحنا .

وتيسير هذه النواحى الاعرابية يتطلب أن يعرف التلميذ علامات الاعراب الأصلية ومايشذ عن اطرادها .

وجولة يسيرة بالتلاميذ فى إحدى قطع المطالعة تكفى لتوجيههم إلى هذه العلامات .

ومن الصعاب التى تعترض التلاميذ فى هذا الصدد ، تلك التفرقة بين علامات الاعراب وعلامات البناء ، فإن النحاة قد اصطلحوا على أن علامات الاعراب هى :

الرفع ـ النصب ـ الجر ـ الجزم .

وعلامات البناء هى :

الضم ـ الفتح ـ الكسر ـ السكون (أو الوقف) .

ومن الخير التفكير فى توحيد هذه الاصطلاحات ، والاتفاق على اسم واحد لحالتى الاعراب والبناء .

أما العلامات الفرعية التى تحل محل هذه العلامات الأصلية فقد أشرنا من قبل إلى أن مواضعها سبعة وهى :

الأسماء الخمسة ـ الأفعال الخمسة ـ المثنى ـ جمع المذكر ـ جمع المؤنث ـ مالا ينصرف ـ الفعل المعتل الآخر المجزوم . ويضاف إلى ذلك الاعراب التقديرى فيما كان معتل الآخر من الأسماء والأفعال .

وإن الأمثلة التى تمر بالتلاميذ فى خلال معالجة النواصب والجوازم وحروف الجر والنواسخ وغير ذلك من الأدوات العاملة ، سيرون فيها الأثر الاعرابى، ويرون من الموازنة بين الأمثلة فى أحوال الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، أن هناك فروقا تبين لهم العلامات الأصلية والعلامات الفرعية ويستنبطون من أنفسهم أنواعها .

فإذا اطمأن المعلم إلى كل ذلك ، عرض على التلاميذ جدولا إيضاحيا يبين فيه أنواع الاعراب وعلاماته الأصلية والفرعية لكى يوازنوا بينها ويدركوا مواضعها .

* * *

لعلنا بهذا قد أوضحنا مجمل الطريقة العملية التى تتبع فى موضوع التطابق وفى موضوع التغيير الاعرابى وأسبابه ومواضعه .

وإنا نترك لمن يقتنعون بفائدة هذه الطريقة الانشائية فى تعليم القواعد النحوية أن يتسابقوا فى الافتنان ، فى اختيار القطع، وإنشاء النماذج التى تستخدم لا لاستخلاص القواعد منها ، بل لتثبيت أثرها على النهج الذى أوضحناه .

وإن المسابقة فى كتب إنشائية تؤلف لتحقيق هذه الغاية لها أثر محمود .

(المباحث الصرفية) .

يبحث العلماء فى كتبهم فى الأفعال والأسماء من النواحى الصرفية الآتية :

فى الأفعال :

الماضى والمضارع والأمر ـ الصحيح والمعتل ـ المجرد والمزيد ـ الجامد والمتصرف ـ المتعدى واللازم ـ المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ـ المؤكد وغير المؤكد ـ ثم يذكرون حكم الأفعال عند اسنادها للضمائر .

فى الأسماء :

المجرد والمزيد ـ الجامد والمشتق ـ المذكر والمؤنث ـ المنقوص والمقصور والممدود والصحيح ـ المفرد والمثنى والجمع .

ومن الجهة النحوية يبحثون فى الأفعال من النواحى الآتية :

التام والناقص ـ المعرب والمبنى .

وفى الأسماء من النواحى الآتية :

النكرة والمعرفة ـ المنون وغير المنون ـ المعرب والمبنى .

أما الجانب النحوى فإن الطريقة الإنشائية التى اتبعناها كفيلة بإيضاحه بأسلوب عملى .

وأما المباحث الصرفية فى الأسماء الأفعال فمنها ما يجىء فى ثنايا التطابق وإنشاء الجمل كما رأيت مثل :

(١) اللازم والمتعدى من الأفعال : فإنه يجىء فى أثناء البحث فى المفعول .

(٢) الصحيح والمعتل من الأفعال .

ويجىء الجانب الخاص بالاسناد إلى الضمائر فى ثنايا تكوين الجمل ، والجانب الخاص بالاعراب فى ثنايا المعالجة الاعرابية .

(٣) الجامد والمتصرف من الأفعال :

يستغنى عن هذا البحث اكتفاء بالبحث فى تصرف الأفعال بعضها من بعض كما سيجىء .

(٤) المقصور والمنقوص والممدود :

يعالج بطريقة عملية فى أثناء التطابق ، فى الفرق الدراسية التى يناسبها ذلك .

(٥) المفرد والمثنى والجمع وكذا المذكر والمؤنث :

وهذا يجىء فى ثنايا التطابق .

المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول :

يعالج فى ثنايا نائب الفاعل .

والموضوعات الصرفية التى ستبقى بعد ذلك هى

(١) الماضى والمضارع والأمر وتصرف بعضها من بعض

(٢) المجرد والمزيد من الأفعال والأسماء

(٣) الجامد والمشتق من الأسماء

(٤) همزة الوصل .

وواضح أن هذه المباحث هى فى حقيقتها مباحث لغوية ، تتصل بتنمية الكلمات وبطريقة البحث فى المعاجم والانتفاع بها . فلنعالجها أولا على الأساس الإنشائى باستخدام الأفعال فى فنون من المعانى مختلفة ثم نشير إلى ما يشتق منها وإلى ما يفيده من معنى . وبعد ذلك نثبت الكلمات فى جدول فى كراسات التلاميذ على نحو ما يأتى : —

افعال			اسماء ترتبط بالافعال		
الماضى	المضارع	الامر	صفة الفاعل	صفة المفعول	المصدر
نصر	ينصر	انصر	ناصر	منصور	نصر
استخدم	يستخدم	استخدم	مستخدم	مستخدم	استخدام

إلى غير ذلك من الأمثلة التى يتخيرها المعلم مما يرد فى دروس المطالعة أو نحوها ،

ونتخذ البحث فى كل هذا وسيلة لتنمية الذخر اللغوى للتلميذ ، وتكوين معجم له يسمى معجم التلميذ يدونه فى كراسة له خاصة

ومما يتمم هذا الجانب اللغوى أن يكون بأيدى التلاميذ فى المرحلة المناسبة معجم عربى سهل ملائم ، ليرجعوا إليه بعد أن تشرح لهم طريقة البحث فيه ، وسيكون لهذا المعجم أثر فى إيضاح كثير مما يسطر فى الكتب من معلومات وقواعد صرفية .

وأن الاصطلاحات والطرق التى تستخدم فى هذا المعجم فى وزن الكلمات بنظائر لها مألوفة ، كما تفعل بعض المعاجم العربية ، ستغنينا عن مبحث الميزان الصرفى وما فيه من رموز وماله من قواعد .

أما المباحث الباقية بعد ما تقدم ، فقد أشرنا إليها وإلى طريقة معالجتها .

(الاعلال والابدال)

يجىء كثير من مسائلهما فى خلال تصريف الأفعال وإسنادها إلى الضمائر ، وفى مواطن أخرى . فتنتهز الفرص حين تعرض هذه الحالات للإشارة إليها ، ولا داعى لسرد القواعد المفصلة والشروط الجامعة المانعة لمباحث الاعلال وموضوعاته .

(التقديم والتأخير)

قد أشرنا فيما تقدم إلى طائفة من مواضع التقديم والتأخير . وواضح أن ليس لهذا أثر إعرابى يستحق الذكر ، فهذه المباحث هى أقرب إلى الترتيب الإنشائى فى صوغ الجمل واتساق كلماتها ، وإن إعراب الكلمات فى هذه المواضع لا يختلف قدمت أو أخرت . وإن كان هناك موضع يحتاج إلى توجيه نظر المتعلمين ، فهو تقديم الخبر حينما يكون شبه جملة ، فإن خفاء إعراب الخبر يجعل من المفيد الإشارة إليه . وقد تكون هناك فائدة أخرى ، وهى تنبيه التلاميذ

إلى هذه الحالة حين دخول النواسخ ، ولا مانع من أن تساق بعض الأمثلة لشرح هذا . أما فيما عدا هذه الحالة ، فإنه لا ضير يلحق الإعراب إذا لم يتعرض المعلم لذلك .

(الذكر والحذف)

وهذا أيضا بحث لا يتوقف عليه الأعراب ، وهو من البحوث التي لا بأس من التعرض لها بالأمثلة في بعض الفرق العالية لنبين شيئاً من أساليب اللغة وتراكيبها وما لذلك من أثر في المعنى .

* * *

الاصطلاحات النحوية

يجدر بنا أن ننظر في الإصطلاحات النحوية لنرى هل من داع إلى الاستمساك بها ، ولنتبين صلتها بالغاية التي نسعى لتحقيقها .

لا ننكر أن الاصطلاحات في العلوم والفنون عون على الإيضاح الموجز وعلى التفاهم السريع ، ولا نجادل في أن بعض الاصطلاحات النحوية لا بد منها ، ما دمنا سنعرض للقواعد النحوية من ناحية ما . كما أنه لا شك في أن بعض هذه الاصطلاحات لا يتوقف عليها الأعراب ولا تفهم القواعد تفهما عمليا ، ولا يمت بصلة كبيرة إلى الغاية التي نسعى إلى الوصول إليها .

وهناك طائفة من الاصطلاحات تتطلب النظر فيها وفي تغييرها أو الاستغناء عنها وهي :

(١) اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة والمصدر :

والأولى الاستغناء عن هذه التسمية الاصطلاحية والاكتفاء بأنها أسماء ترتبط بالأفعال . وإن المعاني التي تدل عليها هذه الاصطلاحات كفيلة بأنها

للفاعل أو للمفعول أو للوصف الثابت أو للدلالة على الحدث وحده .

(٢) الفعل المضارع

يسمى النحاة الفعل الصالح للحال وللاستقبال « المضارع » ويرجعون السبب فى هذه التسمية إلى أن هذا الفعل يضارع الاسم المصوغ للفاعل، لفظا فى حركاته وسكناته وعدد حروفه ، ومعنى لدلالة كل منهما على الحال أو الاستقبال .

فهل من داع للتمسك بهذه التسمية لصغار التلاميذ؟ وماذا يضيرنا لو قلنا أنه للحال ، كما هو الغالب أو الأصل فى استعماله إذا جرد من الأدوات التى تعينه لغير ذلك؟ وكونه صالحا لحالتين هما الحال والاستقبال ، لا يمنع من تسميته بإحداهما ، والمسألة لا تخرج عن أنها اصطلاح ، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقولون .

(٣) خبر كان وأخواتها واسم إن وأخواتها

لا داعى لهذه الاصطلاحات، وقد أشرنا إلى بعض الأسباب فيما مضى، والنحاة أنفسهم صرحوا فى كتبهم بأن تسمية المبتدأ اسما لكان أو لإن تسمية اصطلاحية خالية من المناسبة . وقالوا فى « اسم كان » أنه باق على رفعه على الابتداء .

(٤) المفعول معه :

إن أمثلته قليلة فى الاستعمال . ويمكن الاشارة . حين يعرض بعضها على التلاميذ ، إلى أن الواو بمعنى أصاحب أو مصاحب ، وهذا هو سبب نصب ما بعدها ، ولا داعى إذن لاصطلاح جديد .

(٥) المضاف إليه :

ان فهم هذه التسمية ليس بالهين على الصغار ، فمرجع الضمير فى « إليه » مجال للخطأ ، فانك إذا سألت تلميذا أن يعرب « كتاب محمد » فقال « محمد »

مضاف إليه، ثم سألته عن مرجع الضمير فى «إليه» فانه يقول أنه راجع إلى «كتاب» أى أن «محمداً» مضاف إلى «كتاب» مع أن الأمر بالعكس.

ولعل الأولى أن نتحلل من هذا الاصطلاح، ويكفى أن نقول أنه مكمل للاسم السابق.

( ) المؤنث الحقيقى والمؤنث المجازى :

نكتفى بكلمة المؤنث ولا داعى للتفصيل بذكر المجازى والحقيقى.

(٧) الممنوع من الصرف :

يختلف النحاة، هل الصرف هو التنوين وحده، أو هو الجر والتنوين. وقد اختلفوا أيضا فى اشتقاق كلمة «الصرف» فقالوا من «الصريف» وهو الصوت، وقيل من الصرف وهو الفضل، لأن للمنصرف فضلا على غير المنصرف، وقيل من الانصراف أى الجريان فى جهات الحركات، وقيل من الانصراف وهو الرجوع فكأنه انصراف عن شبه الفعل. وقيل غير ذلك.

فما لنا ولكل هذا؟ وحسبنا أن نعود إلى الكلمة التى يفهمها التلميذ وهى «الممنوع من التنوين» ويجىء تبعا لذلك منعه من الجر.

(٨) لام الجحود :

معنى الجحود الانكار، لأن هذه اللام تستعمل بعد الكون المنفى. والنحاة يسمونها أيضا لام النفى، ولعل هذا الاصطلاح أسهل وأقرب.

(٩) المبنى للمجهول والمبنى للمعلوم :

اصطلاح صعب الفهم على التلاميذ، ولا داعى إليه. ويمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بما سيراه التلميذ من التغيير الذى يعترى الفعل فى حركاته عند الكلام فى نائب الفاعل، وقد أشرنا إلى ذلك.

(١٠) كنايات العدد :

وهى «كم وكأين وكذا» والسبب فى تعرض النحاة لها، أن لها ارتباطا بالاعراب، فإن تمييز «كم» الاستفهامية وتمييز «كذا» يكونان منصوبين، وتمييز «كم» الخبرية يكون مجرورا.

على أن هذا لا يتطلب اصطلاحا خاصا ولا تسمية خاصة بهذه الأدوات. وإن التعرض لإعراب ما بعدها ميسور من غير وضع اصطلاحات خاصة.

(١١) اصطلاحات أخرى يمكن الاستغناء عنها وهى :

الجامد ـ المشتق ـ المتصرف ـ اسم الزمان ـ اسم المكان ـ اسم الآلة ـ النكرة ـ المعرفة ـ اسم الإشارة ـ الاسم الموصول (وهما كناية عن الاسم مثل الضمير) ـ الندبة ـ مهموز ـ مضعف ـ مثال ـ أجوف ـ لفيف مفروق أو مقرون ـ التام ـ الناقص ـ الأمثلة الخمسة ـ حرف مصدرى ـ فاءالسببية ـ واو المعية ـ المقصور ـ المنقوص ـ المحلى بال ـ المفعول لأجله ـ المفعول المطلق (مكملان لبيان السبب وللتوكيد أو بيان العدد أو النوع ، ومثلهما الظرف) عطف البيان ـ الاشتغال ـ الاختصاص ـ التنازع فى العمل ـ الالغاء ـ التعليق ـ العلم ـ صيغة منتهى الجموع ـ لام الابتداء .

* * *

ونعتقد أن حذف هذه الاصطلاحات لا يؤثر ، لافى الإعراب ولا فى إيضاح القواعد النحوية ولا فى الانتفاع بها .

أما الاصطلاحات التى نرى التمسك بها فهى :

الاسم ـ الفعل ـ الحرف ـ الماضى ـ الأمر ـ المجرد ـ المزيد ـ همزة الوصل ـ همزة القطع ـ المعتل ـ اللازم ـ المتعدى ـ نون التوكيد ـ لام التعليل ـ اسم التفضيل ـ المفرد ـ المثنى ـ الجمع ـ المذكر ـ المؤنث ـ الضمير (كناية عن الاسم) ـ الأسماء الخمسة ـ المعرب ـ المبنى ـ الفاعل ـ المفعول (للمفعول به خاصة) ـ نائب الفاعل ـ المبتدأ ـ الخبر ـ المستثنى ـ المنادى ـ العطف ـ التعجب ـ التصغير ـ النسب ـ الاغراءوالتحذير ـ الاستغاثه ـ الاعلال والابدال ـ المكملات » وهى : (الظرف ـ الحال ـ الصفة ـ التوكيد) .

منهج يقترح للقواعد النحوية

عرفنا الآن النواحى التى سنتعرض لها وهى :

التطابق ـ الأدوات العاملة ـ التراكيب الخاصة . وقد ألممنا بالمباحث النحوية التى تجىء فى ثنايا ذلك وقلنا إن الذى سيعنينا إنما هو أثر القواعد وتطبيقها عمليا ، لا القواعد نفسها ولا ألفاظها ولا التعريفات والاصطلاحات المتصلة بها من قرب أو من بعد . وأوضحنا أن أمثل الطرق لتعليم هذه المباحث أن تعلم فى ثنايا إنشاء الجمل ، وفى خلال التمرين الإنشائى المصحوب بقراءة العبارات وتفهمها والحوار فيها ، وأن تعليمها لن يكون مصحوبا بالارهاق فى حفظ قواعد خاصة ، ولكنه سيكون بطريقة طبيعية تساير تعلم التعبير وتنمية الذخر اللغوى ، وتقترن بتعرف حقائق مناسبة لسن التلميذ مما يحيط به ، وما يتغلغل فى نفسه . وسنراعى فى كل ذلك الاطمئنان والهوادة والاكثار من التمرين الإنشائى الشائق الذى يحقق الغاية ، ويشعر التلاميذ بأنهم إنما يجولون فى ميدان مألوف يتصل بحياتهم . ولنذكر على سبيل الاقتراح منهجا لتلاميذ المدارس مبنيا على ما أوضحنا .

(فى المدارس الابتدائية)

(السنة الثالثة)

نوجه نظر التلاميذ إلى اختلاف ضبط الأواخر فى الكلمات بالرفع والنصب والجر والسكون ـ أمثلة متنوعة للجملة السهلة الاسمية والفعلية ـ التطابق بين جزأى الجملة الاسمية فى الإفراد والتثنيه والجمع والتذكير والتأنيث ـ الفعل والفاعل والمفعول ـ أمثلة متنوعة لذلك ـ تنمية الجمل باستعمال أسماء الإشارة فى أحوال التطابق ـ التكملة بوصف المبتدأ أو الفاعل أو المفعول ـ التكملة بإضافة زمان أو مكان ـ استعمال بعض حروف الجر ـ عبارات تستعمل فيها بعض أدوات الاستفهام .

تمرين عام على الجملة ومكملات أجزائها وأحوال التطابق فيها — الجملة الاسمية التى خبرها جملة فعلية أو جملة اسمية ـ التطابق الذاتى (التذكير والتأنيث) والعددى (الإفراد والتثنية والجمع) فى الجمل الاسمية السابقة .

(السنة الرابعة)

تنمية الجملة بذكر المكملات المبينة للسبب أو للحال أو المؤكدة أو المميزة: (المفعول المطلق ـ المفعول لأجله ـ الحال ـ التمييز ـ التوكيد) ـ بعض النواسخ ـ بعض النواصب ـ بعض الجوازم ـ بعض حروف العطف ـ المجرور للاضافة .

الكلمات المبنية ـ تنمية الجملة بذكر الأسماء الموصولة ـ تمرين على التطابق فى الجملة الاسمية التى خبرها جملة فعلية مع استعمال بعض النواصب والجوازم فى المضارع ـ نائب الفاعل ـ ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب واستعمال الفعل الماضى والمضارع معها (وتدوين طائفة من ذلك فى جدول خاص) ـ المنون وغير المنون ـ مايحل محل المفرد (الجملة وشبه الجملة) صفة أو حالا أو خبرا ـ بعض النواسخ ـ الجملة الشرطية ـ تصرف الأفعال المعتلة (تدون طائفة منها فى جدول خاص) ـ الاعراب التقديرى .

(الاصطلاحات النحوية) :

لاتعرض على التلاميذ اصطلاحات نحوية إلا بعد التمرين والفهم . ويقتصر على الاصطلاحات الآتية :

(السنة الثالثة الابتدائية)

المبتدأ ـ الخبر ـ المفرد ـ المثنى ـ الجمع ـ المذكر ـ المؤنث ـ الماضى ـ المضارع ـ الأمر ـ الفاعل ـ المفعول ـ الجملة الاسمية ـ الجملة الفعلية ـ الصفة .

(السنة الرابعة)

نائب الفاعل — الحال — التمييز — التوكيد النواصب ـ الجوازم أدوات تدخل على المبتدأ والخبر (النواسخ) حروف العطف .

المعرب - المبنى — الجملة الشرطية .

(فى المدارس الثانوية)

التراكيب الخاصة وأمثلة لها : (نعم وبئس — الاستغاثة والندبة — التعجب — أفعل التفضيل) - كسر همزة ان وفتحها — أمثلة لاقتران جواب الشرط بالفاء — الجزم بإن المقدرة فى جواب الطلب — دراسة الأساليب الآتية :

(النفى — التوكيد — نون التوكيد وأثرها — الاستفهام - التعليل وطرقه — التوقيت ووسائله — الاستدراك — الحذف — الزيادة — ترتيب أجزاء الجملة من تقديم وتأخير) — التنويع فى صوغ العبارات للتعبير عن المعنى الواحد مثل : ثوب حرير ، ثوب حريرى ، ثوب من حرير ، ثلاثة كتب ، كتب ثلاثة ، كل الناس ، الناس كلهم ، ونحو ذلك - صوغ اسمى الفاعل والمفعول وعملهما — أسماء الزمان والمكان - دخول « ال » على المضاف — أمثلة للاعلال والابدال .

وتدرس هذه الموضوعات فى السنتين الأولى والثانية . على أن تعالج فى السنة الأولى بطريقة سهلة ثم تعالج فى السنة الثانية بطريقة أوسع . وإذا رأى المعلم أن يعالج بعضها علاجا تاما فى إحدى الفرقتين فلامانع من ذلك .

* * *

هذه طائفة من الموضوعات التى نقترح أن يتضمنها منهج المدارس، وهى خاضعة للتعديل والحذف أو الزيادة ، طبقا لما تهدى إليه التجارب ، وماتحتمله عقول التلاميذ . والذى نأمله أن تسير معالجتها على النهج الإنشائى الذى رسمنا خطته ، وأن نقتصر فى ذلك على ما يوصل إلى الغرض ويحقق الغاية . ولتكن العبارات الصحيحة محوراً للطريقة ، نعرضها على التلاميذ لتفهمها ، وتبين خصائصها ، ثم نطالبهم باحتذائها مع الافتنان فى كل ذلك ، ومزجه بالشائق النافع من شؤون الحياة . وبذلك تتحول القواعد إلى ميدان من الطرائف

المعنوية ، وتصبح الحياة العملية والعقلية ميدانا لتعلم اللغة وأساليبها وقواعدها، وتمتزج اللغة وقواعدها بالحياة وتزداد الصلة بينهما ، وتكون اللغة عونا للحياة وللتفكير ، وميدانا يجد فيه المتعلم ما تتطلع إليه نفسه ، وما ينشد من غذاء عقلى يجنى منه المتعة والسرور ، وتجيء القواعد النحوية فى خلال ذلك فتطبع فى ذهنه ويجرى بها لسانه فى يسر وسهولة .

ومن التمرينات النافعة التى تذلل صعاب القواعد النحوية وتمزجها بقراءة الطرائف الشائقة ، أن نتخير طائفة من القصص أو الموضوعات التى تجتذب ميل الأطفال ، ثم نتبعها بالمناقشة وبالأسئلة المتنوعة التى تتجه إلى نواحى التفكير والتعبير واللغة وضبط أواخر الكلمات وتنمية الملاحظة اللغوية .

وقد أوضحت نموذجا لذلك فى كتيبين صغيرين تضمنا بعض القصص الشائقة لتلاميذ المرحلة الأولى (١) .

* * *

وهناك ملاحظة يجب أن نشير إليها ، وهى أن مناهج البلاغة وفروعها فى المدارس الثانوية تسير مستقلة منفصلة عن مناهج القواعد النحوية ، ونحن وإن لم نكن بصدد التعرض للبلاغة وطرق تدريسها ، نستطيع أن نقول إن فى الامكان أن ننظر إلى القواعد العربية نظرة عامة موحدة ، فنجعلها تشمل جميع خصائص اللغة وأساليب التعبير ، لا فرق فى ذلك بين النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، ولا داعى لفصل هذه الموضوعات فى مناهج مستقلة كما نراها فى مدارسنا . فقد أدى هذا إلى أن يعالج المعلم كل فرع من هذه الفروع معالجة مستقلة أبعدت المتجانس منها بعضه عن بعض .

ومن الخير أن تعالج موضوعات البلاغة ودراسة الأساليب المختلفة معالجة تقترن بدراسة الأدب والنصوص وتمتزج بتذوق فنون البيان .

---

(١) راجع كتاب القصص التعليمية للمؤلف

ولو سارت الأمور على طبيعتها لارتبطت طائفة كبيرة من مسائل هذه العلوم ، وعولجت معالجة موحدة ، محورها دراسة العبارات العربية ، فان هذه المسائل لا تخرج عن أنها خصائص للتعبير ومظاهر للغة وتراكيبها وأساليبها .

ومما يعزز هذا ما هو معروف فى تاريخ البحوث اللغوية فى أدوارها الأولى من امتزاجها ، وما تجلى فى بعض كتب المؤلفين الأولين من جمع المتجانس من المسائل ، سواء فى ذلك الموضوعات النحوية والبلاغيه والأدبية واللغوية . ولعل قواعد الربط التعليمى بين الحقائق المؤتلفة والمباحث المتصلة تعزز أو تحتم ما نقول .

ولسنا هنا بصدد الافاضة فى هذا الموضوع ، وحسبنا هذه الإشارة المجملة .

على أنا قد أثبتنا فيما اقترحنا من موضوعات فى منهج المدارس الثانوية بعض مباحث قد تكون عناصرها المفصلة مما يدخل فى دائرة علم المعانى .

وللمعلمين أن يختاروا ما تهديهم إليه تجاربهم وما يرونه أمثل وأجدى .

عِلمُ النّحو

نبحث الآن فى علم النحو من نواحيه المختلفة، فى نشأته، وطبقات رجاله، وأصوله، وغير ذلك مما يتصل بأوضاعه ومسائله المتعددة.

ولكى نحدد أطراف البحث يجمل بنا أن نتخذ من تعريف النحو أساسا لذلك:

(١) وقد عرفه ابن جنى فى كتاب الخصائص(١) فقال: «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه، من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكثير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغه العربية بأهلها فى الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، أو إن شذ بعضهم عنها رد اليها»

(٢) وأشار العلامة عبد القاهر الجرجانى (٢) فى كتابه دلائل الاعجاز إلى النحو والاعراب وأثره فى المعنى وفى نظم الكلام ومكان النحو منه.

ويبدو من كلامه أنه يرى أن دائرة النحو يجب أن تكون أوسع من البحث فى الاعراب وضبط أواخر الكلمات. وقد تكلم فى النظم وإطباق العلماء على تعظيم شأنه وتفخيم قدره والتنويه بذكره، ثم قال:

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها »

---

(١) ص ٢٢

(٢) هو ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى من كبار أئمة اللغة والنحو ومؤسس علوم البلاغة فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز. وله أيضا كتاب « العوامل المائة » فى النحو. توفى سنة ٤٧١ هـ

ثم ضرب أمثلة للجمل الاسمية والفعلية ، وللشرط ، وللحال ، ولأنواع من التقديم والتأخير . وقال بعد ذلك : « فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه، ووضع فى حقه ، أوعومل بخلاف هذه المعاملة وأزيل من موضعه ، واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أووصف بمزية وفضل فيه، إلا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه (١) »

(٣) وعرفه العلامة الأشمونى فى شرحه على الفية ابن مالك بما يأتى :

« هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة إلى معرفة أجزائه التى ائتلفت منها .

والمراد به هنا مايرادف قولنا علم العربية لاقسيم الصرف .وهو مصدر أريد به اسم المفعول أى المنحو ، كالخلق بمعنى المخلوق »

(٤) وعرفة العلامة الخضرى فى حاشيته على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بما يأتى :

« يطلق على ما يعم الصرف وعلى مايقابله . ويعرف على الأول بأنه علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال افرادها وحال تركيبها وما يتبعها من بيان شروط لنحو النواسخ . وحذف العائد ، وكسران وفتحها أو نحو ذلك . وعلى الثانى يخص بأحوال التركيب».

٭ ٭ ٭

وتختلف هذه التعاريف فى تحديد دائرة القواعد النحوية . فمن الباحثين

(١) ص ٦٢

من يرى أن تشمل هذه القواعد أساليب اللغة من جميع نواحيها. ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها وتصرفها .

ولعل منشأ هذا الخلاف فى تحديد دائرة النحو راجع إلى صلة هذا العلم بالفروع الثقافية العربية الأخرى ، فإن علم النحو هو فرع من العلوم العربية وقد كانت هذه العلوم فى أول الأمر تشمل النحو واللغة والأدب ، ثم اتسع نطاقها فشملت الأخبار والسير ، ثم ازدادت فروعها عددا فأصبحت تشمل اثنى عشر علما وهى :

اللغة — الصرف — الاشتقاق — النحو — المعانى البيان — الخط — العروض — القافية — قرض الشعر — انشاء الخطب والرسائل — التاريخ ، ومنه المحاضرت ، أما البديع فذيل لاقسم برأسه وكذا علم الوضع .

وإن الأساس الذى كان يرتكز عليه البحث فى هذه العلوم هو الأدب أو كلام العرب ، فكان الباحثون يجولون فيه من جميع نواحيه لتعرف الأساليب والتراكيب ، والشعر وأوزانه وقوافيه ، والكلمات وبنيتها وضبط أواخرها وغير ذلك ، وكان البحث فى النحو فى الأدوار الأولى للثقافة العربية ممتزجا باللغة والأدب ، وكان كذلك يمتزج بعلم القراءات فى معظم الأحوال . فكان كثير من العلماء تشمل ثقافتهم وبحوثهم هذه الفروع الأربعة . ومن المؤلفين من كان يجمع فى مؤلفاته بين المسائل النحوية والصرفية والأدبية وماله صلة بأخبار العرب وتاريخهم كالمبرد فى كتاب الكامل . وذلك أن مسائل النحو والصرف إنما هى ظاهرة من الظواهر التى تعترى الكلمات حالة أفرادها أو تركيبها ، وتستأنس بالشواهد من كلام العرب . وإن البحث فى هذه الشواهد من شتى نواحيها مما يقتضيه اتمام البحوث النحوية .

ثم اقتضت طبيعة التدرج والتعمق فى البحث أن يستقل النحو عن الفروع العربية الأخرى ، وأن ينفرد به بعض العلماء ، وأن تظهر فيه مؤلفات مستقلة وللعلماء نهجهم فى أن يفردوا علم الاعراب ببحوث مستقلة لكى يحصروا

مسائله ويبسطوا أصولها وفروعها . ويذكروا مافيها من خلاف ، ويسوقوا الشواهد لتعزيز ذلك — لهم هذا ، ولكن هل من الميسور أن نبحث فى الخصائص النحوية الاعرابية دون أن نمس المعنى ؟ وهل من الهين أن نفهم المعنى دون أن نفهم ما ينطوى عليه الاعراب من معانى الفاعلية والمفعولية ، والمواطن المبينة للذات وللحال وللزمان والمكان وغير ذلك ؟ وإذا كان هذا ميسوراً ، فهل من الخير للغة وهى أداة التعبير أن نفصل بحوثها وعلومها بعضها عن بعض فى اذهان الناشئين من المتعلمين ؟

إن اللغة والمعنى متلازمان ، وكلاهما فرع الآخر ، ولا تجىء القواعد النحوية إلا فى خلال الأساليب والتراكيب . فالبحث فى الكلمات واشتقاقها ، والجمل وتركيبها ، والأساليب وأنواعها ، كل هذا ينبغى أن تسير مسائله جنباً إلى جنب حتى تتحقق الغاية التى تتعاون العلوم العربية على الوصول إليها .

ولسنا هنا بصدد البحث فى أى الطرق أجدى ، أنعلم النحو منفصلا عن الفروع العربية الأخرى التى تتعرض لألوان الأساليب وفنون البيان ، أم نمزج بين كل هذا ؟ ولسنا نريد كذلك أن نحدد ما يجب أن تشمله دائرة علم النحو ، ولكنا بصدد البحث فى هذا التراث الذى تركه لنا المتقدمون فى كتب النحو والصرف التى بين أيدينا ، وهو تراث أصبح محدود الاطراف ، وقد ألفت فيه كتب تفوق الحصر ، ومتون وشروح وحواش وتعليقات وتقريرات . فلننظر فى هذا العلم كما هو الآن وكما دونه السابقون ، باحثين فيه من الوجوه التاريخية واللغوية .

ولا شك أن علم النحو إنما هو طائفة من خصائص اللغة العربية ، وليست هذه الناحية الاعرابية والصرفية هى كل خصائص اللغة ، ولكنها ناحية لها كثير من الشأن فى اللغة العربية ، ولعلها الناحية التى كان تسرب اللحن إليها الاذهان لوضع قواعد لاجتناب هذا اللحن . فلنجعل بحثنا موجها إلى منهجها هذه المسائل النحوية كما نجدها فيما بين أيدينا من كتب ، ناظرين فى نشأتها

ونموها وكنهها وأساليب البحث فيها وصلتها بالثقافة العربية .

الثقافة العربية ونشاطها

ظل العرب حينا من الدهر يتوارثون لغتهم جيلا عن جيل ، وطريقتهم فى ذلك هى المشافهة والمحاكاة ، ولم تكن لهم كتب مدونة ، ولم يكن للغة علوم تخوض فى أساليبها ووجوه النطق بها .

ولم تنشأ اللغة العربية تامة التكوين ناضجة مكتملة ، بل قطعت مراحل فى نموها وتهذيبها . وكان عماد العرب فى ذلك إنما هو حسهم المرهف وذوقهم الفطرى الصافى . وكانت ثقافتهم محدودة لا تعدو النظر فيما أحاط بهم فى بيئتهم من مظاهر طبيعية ، ونبات وحيوان ، وما اتصل بحياتهم فى حلهم وترحالهم .

جاء الإسلام فجمع شملهم ، وهذب عاداتهم وقوم طباعهم ، ووسع أفقهم الحيوى ، وحفزهم إلى البحث فى ضروب من المعارف وبخاصة المتصلة بالقرآن الكريم وتفهمه ، وبالدين وما فيه من أحكام وآداب ونظم حيوية . وكانت بلاد الحجاز مثابة للناس ، يفدون إلى المدينة ، ويقصدون مكة للحج ، فيزداد تعارفهم ، وتقوى الصلة بينهم . وكان لمكة إلى جانب مركزها الدينى والاجتماعى مركز تجارى ، فقد كانت على طرق تجارية تصلها شمالا وجنوبا بالشام واليمن وغيرهما . وكان أهلها يرحلون رحلتى الشتاء والصيف للتجارة . كل ذلك كان داعيا إلى أن يفد إلى مكة كثير من الشعوب والقبائل . ولا يخفى ما لهذا من أثر فى اللغة ، وفى المكانة الاجتماعية لسكان هذه البقاع .

وفى عصر الدولة الأموية انتقل مركز الخلافة إلى دمشق . وكانت النعرة العربية لا تزال ناشطة ، والاعتزاز بالعروبة بالغا حدا عظيما ، وكانت المملكة الإسلامية عربية الصبغة ، فالولاة والحكام والعمال من العرب ، والسيطرة العامة للعرب فى جميع المناصب إلا بعض الأطباء والكتبة ونحوهم .

ثم جاءت الدولة العباسية فكان للعناصر غير العربية شأن فى إدارتها

وسياستها وجميع مرافقها،وازداد اختلاط العرب بالفرس، وامتزجوا بهم، ولا شك أن هذا الاختلاط الشامل كان له أثره فى اللغة . فبعد أن كانت سليقة أصبحت تنال بالتعلم والدرس . ولذا عكف كثير من الأعاجم على دراسة اللغة وعلى التأليف والتدوين فى شتى نواحيها ، وذلك لحاجتهم إلى مايقوم ألسنتهم ويكسبهم المقدرة البيانية التى يجارون بها العرب الخلص . ومن هذا كانت أكثر المؤلفات فى اللغة وفروعها مما أخرجته عقول غير عربية من العناصر التى امتزجت بالعرب فى العصر العباسى ، وكان لهم فى ذلك الميدان حظ وافر .

ومما زاد العناصر غير العربية نشاطا وجعل أثرها قويا انتقال الخلافة إلى العراق ثم تأسيس بغداد .

وبلاد العراق كانت موطنا لحضارات قديمة ذات علوم ومعارف ، وسكانها بقايا أمم لها من هذه الحضارات نصيب ، وقد ازداد شأن هذه البلاد بعد الإسلام وامتلاك العرب لها وتمصير الأمصار بها . فقد اجتمعت فيها عناصر مختلفة من الشعوب على تباين أجناسهم ودياناتهم، وكان لكل هؤلاء نصيب من الاشتغال بالعلوم الإسلامية ومزاولة الثقافة العربية . فكان من الطبيعى أن يكون مايخرجون من علم وليد عقليات لها من النظام العلمى حظ، ولهذا كان العراق أهم مراكز الثقافة فى الحياة العقلية بين البلدان العربية ، وكانت البصرة والكوفة تموجان بالباحثين والعلماء وطلاب العلم فى شتى الفروع الثقافية التى نشطها ظهور الإسلام والاشتغال بمدارسة القرآن الكريم وتفسيره وتفهمه من جميع النواحى.وقد استدعى ذلك دراسة لغوية وأدبية ، وعناية بجمع الشواهد من أشعار العرب وكلام البدو لتأييد ماورد فى القرآن من أساليب وألفاظ وتراكيب .

نشط كل ذلك وبحث العلماء فى اللغة وفى الأدب وفى التفسير وفى الشريعة وغير ذلك .وكان حظ الموالى والعناصر غير العربية من ذلك كثيرا كما أشرنا .

ومن بين من زاولوا العلوم العربية من كان لهم إلمام بثقافات أخرى كالثقافة الفارسية والسريانية ، ولهم اتجاهات عقلية خاصة فى التفكير والبحث، تبعا لما ألفوا فى لغاتهم وما درجوا عليه فى معارفهم وما طبعوا به فى نشأتهم وحياتهم.

جمع اللغة وتدوينها

اشتغلت هذه الطوائف المختلفة التى أشرنا إليها بجمع اللغة ، وكان لهم فى ذلك طريقان يرجعان إليهما : أولهما الشعر العربى القديم الذى يرويه الرواة، وثانيهما مشافهة الأعراب الذين كانوا يفدون إلى المدن أو الذين كان العلماء والرواة يذهبون إليهم فى بواديهم .

وقد تحرى الصواب من جمعوا اللغة وشواهدها على قدر ما استطاعوا، ولكن جهودهم لم تكن مكللة بالصفاء والوثوق فى جميع نواحيها ، فقد اقترنت بها عوامل نجم عنها بعض الشوائب وشىء من الانحراف . ومن ذلك ما يأتى :

(١) كان هم من جمعوا اللغة أن يسجلوا ألفاظها من شتى لغات العرب ولهجاتهم ، دون أن يوضحوا هذه اللهجات بالتحديد .

(٢) أخذ بعضهم اللغة فى بعض العصور عن الكتب ، وقد كانت غير منقوطة ، أو كان النساخ يغفلون عن نقطها ، فنشأ عن ذلك أنواع من التصحيف والاختلاف .

(٣) لم يكن رواة اللغة فى درجة واحدة من حيث التحرى والثقة بهم فيما يروون .

(٤) الشعر الموضوع الذى قصد به واضعوه أن يعززوا رأيا أو يبرهنوا على وجهة من النظر . وقد وضع المولدون كثيراً من هذا ودسوه على الأئمة فاحتجوا به .

(٥) عدم تحديد المعانى تحديدا تاما يرفع اللبس ويزيل الشبهة .

(٦) اختلاف اللهجات وتباين طريقة النطق جعل بعض من ينشدون الشعر ينطقون به على مقتضى سجيتهم ولهجتهم . فنجم عن هـــذا شيء من الاختلاف .

* * *

كل هذا وغيره هو من العوامل التى تستدعى من الباحث النظر والتحرى، حتى يزن اللغة بميزان يبعد بها عن المزالق ومواطن الانحراف .

القبائل التى أخذت عنها اللغة

علمنا أن اللغة العربية قد جمعت من قبائل شتى ولهجات مختلفة ، ولذا ظهرت فيها صيغ متباينة. ونجد أمثلة كثيرة لهذا فى جموع التكسير والمصادر وغير ذلك مما هو مدون فى كتب اللغة .

وليست القبائل العربية فى درجة واحدة من الفصاحة وصفاء العروبة . فقد اختلط بعضها بعناصر غير عربية وبيئات كانت سببا فى تسرب الدخيل والأساليب غير الصافية إلى ألسنتهم، ولهذا كان الرواة يتحرجون أن يأخذوا شيئا من اللغة إلا عمن خلصت عروبتهم ، واستقامت ألسنتهم ، وسلمت من العجمة، وصفت من الشوائب والانحراف، وأمنت طغيان الصبغة الأجنبية.

والعرب قسمان : القحطانية والعدنانية :

فالقحطانيون هم عرب اليمن وينتسبون إلى يعرب بن قحطان . وقد نزحت بعض قبائلهم إلى الشمال والشرق من جزيرة العرب ؛ فنزل بعضهم اليمامة والبحرين وعمان والحجاز ومشارف الشام والعراق .

ومن قبائل القحطانيين : حمير وغسان ولخم والأزد ومذحج وكندة وطيء .

والعدنانيون ، أو عرب الشمال ، منازلهم فى تهامة ونجد والحجاز، ويقال

لبطون العدنانيين المعدية والنزارية .

يرجع نسبهم إلى فرعين ينتهيان إلى عدنان ، وهما عك ومعد . ومن معد نزار . وتفرعت نزار إلى : أنمار ومضر وربيعة وإياد . وتحت كل فرع من هذه قبائل كثيرة ، إلا أن الفصاحة اشتهرت فى مضر حتى عرفت اللغة العربية بالمضرية . ومن أشهر قبائل مضر : كنانة (ومن بطونها قريش) ثم تميم وقيس وأسد وهذيل وضبة ومزينة . وتحت كل قبيلة بطون وأفخاذ .

وكانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح ، وقد أتيحت لهم الفرص لذلك حين كان وفود العرب يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، تتخير من كلام هؤلاء الوفود وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم وأفصح ألفاظهم وأسهلها على اللسان وأحسنها مسموعا .

والفصيح فى اللغة العربية عند الرواة هو ما كثر استعماله فى ألسنة العرب وفشا فى أكثر لغاتهم .

ومن قبائل العرب قوم لم يخرجوا من ديارهم ويسمون الأرحاء، لأنهم لم ينزحوا عن أوطانهم بل يدورون فى دورهم كالارحاء ، وهم ست قبائل : تميم وأسد وكلب بن وبرة وطيء بن أد فى اليمن وقبيلتان من ربيعة .

والذين أخذ عنهم اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وعلى الجملة لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم التى تجاور سائر الأمم الذين حولهم . ولم يؤخذ من لخم ولا من جذام ، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط .

ولا من قضاعة ، ولا من غسان ، ولا من إياد ، فإنهم كانوا مجاورين

لأهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون فى صلاتهم بغير العربية .

ولا من تغلب ولا النمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان .

ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .

ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس.

ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس .

ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند والحبشة .

ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة . ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .

ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا لغة العرب صادفوهم وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

نشأة النحو

نطق العرب بلغتهم سليقة وسجية ، ولم يكونوا فى حاجة إلى قواعد يضبطون بها الألسنة أو يتعرفون بها الأساليب . بل كان عمادهم فى ذلك المحاكاة المبنية على الفطرة السليمة ، يشب الناشىء فتملأ العبارات الصحيحة سمعه ويطبع بها لسانه ، فتجود قريحته بسليم التراكيب ومنسجم العبارات .

ولما اتسعت المملكة العربية وترامت أطرافها ، وازداد اختلاط العرب بغيرهم من العناصر غير العربية ، ودخل الأعاجم تحت لواء المملكة الاسلامية ، نشأ عن هذا ماهو معلوم من تفشى اللحن ، فخشى القوام على اللغة ومن يغارون عليها أن يستفحل الخطب ، ويصيب اللغة وأصولها ما يذهب بمقوماتها ويضعف شأنها ، ففكروا فى وضع قواعد تصون اللسان .

وكان ما وضعوه من ذلك فى أول الأمر قليلا ، ولم يكن كافياً لصون

القرآن الكريم من أن تزل فى ضبطه الألسنة ، فقام أبو الأسود الدؤلى ووضع علامات الشكل . وكانت هذه العلامات فى أول الأمر نقطا فوق الحرف للفتحة ، وتحته الكسرة ، وإلى جانبه للضمة . ولما أرادوا نقط الحروف لتمييز بعضها من بعض ؛ وقد كانت حينذاك مهملة كلها ، رأوا أن يفرقوا بين النقط التى للاعجام والنقط التى للشكل، فجعلوا كلا منها بلون خاص ثم عدلوا عن ذلك وجعلوا للشكل علامات أخرى هى حروف مد صغيرة ، فالضمة واو صغيرة ، والكسرة ياء صغيرة ، والفتحة ألف مائلة قليلا .

اتجه العلماء بعد ذلك إلى تنمية النحو واكمال أبوابه وتفصيل مسائله . فنشط فريق منهم ، وبذلوا جهدهم فى البحث ، وكان لهم الفضل فى التحقيق والتمحيص . وكان ميدان النشاط والبحث هو بلاد العراق فى مدينتى البصرة والكوفة . وسنشير إليهما بكلمة ثم نتبعها بموجز لطبقات النحاة .

البصرة والكوفة

كانت بلاد العراق موطنا للنشاط العلمى ، كما أشرنا إلى ذلك ، وفيها نشأت العلوم العربية ، وبفضل جهود السابقين من علمائها نمت واتسع أفقها ، واكتمل بناؤها . وكان مركز النشاط العلمى فى مدينتى البصرة والكوفة . وقد أنشئتا فى خلافة عمر بن الخطاب حوالى سنة ١٤ للهجرة .

وقد اتجهت كل من المدينتين وجهة خاصة فى أساليب البحث النحوى ، وطرق الاستنباط ، ومبلغ الاعتداد بالشواهد العربية وغير ذلك . ونشأ عن هذا أن أصبح لكل منهما مذهب خاص ، وتباعدت بينهما مسافة الخلاف فى كثير من المسائل .

ولهذا الخلاف أسبابه ، فإن المدينتين متباينتان من عدة وجوه : فى الموقع وفى ميول السكان وطباعهم ، وفى درجة الصفاء فى العروبة ، وفى نهج البحث الذى سارت عليه كل منهما :

(١) أما فى الموقع :ـ

(ا) فإن البصرة تقع على طرف البادية فى مكان قريب من العروبة الصافية، ومن مساكن العرب الخلص . والاصقاع التى اختطت فيها هذه المدينة قد نشأ أهلها فى ظلال الحرية التى درج عليها العرب وألفوها ، ولم يمتد إليهم من النفوذ الأجنبي مايطفىء جذوة العروبة ، أو ما يخضد شوكتهم ويلين قناتهم ، فظلوا على ماهو معلوم عن العرب من نزوع إلى الصلابة ونفور من الإذعان وميل إلى الاعتداد بالذات والتعلق بالعروبة وأساليبها الصافية .

وهناك عامل آخر له أثره فى البصرة وهو قرب المربد منها . والمربد أشهر أسواق العرب فى الاسلام ، وهو مثل عكاظ فى الجاهلية . وقد كان مجتمع العرب ، فيه يتبادلون المنافع والآراء ، ويلتقى الحاضر بالبادى ، ويتسع المجال للقاء أعراب البادية والأخذ عنهم .

(ب) أما الكوفة فقد أنشئت بعيدة عن جزيرة العرب فى أصقاع امتد إليها النفوذ الأجنبى وأثر فيها ، فهى قريبة من الحيرة مقر المناذرة . وكان لهذا أثره فى أهلها وفى طباعهم ، فقد كانوا أقرب إلى الإذعان والخضوع، وكان فيهم أيضا صبغة من الاتجاهات الفارسية فى علومها ونظامها .

(٢) وأما فى الطباع والميول :ـ

(ا) فإن سكان البصرة كانوا أصلب عوداً وأصعب مراسا ، وكانوا يناصرون الأمويين .

(ب) وكان الكوفيون أميل إلى الطاعة والهدوء ، وكانوا يناصرون على ابن أبى طالب رضى الله عنه ويظاهرون الهاشميين . وكان الإمام على قد هبط إلى الكوفة واتخذها حاضرة له .

وكذلك كان أهلها عونا للدولة العباسية فى بسط نفوذها ، ولذا كافأهم العباسيون بهباتهم ، وآثروا علماء الكوفة فقربوهم ، واختاروا منهم مؤدبين لأولادهم . فقد كان الكسائى يعلم الرشيد والأمين من بعده ، وكان الفراء يعلم ابنى المأمون ، وكان ابن السكيت يؤدب أولاد المتوكل إلى غير ذلك .

(٣) وأما صفاء العروبة:

(أ) فإن سكان البصرة أعرق فى الفصاحة ، لأنهم من قبائل أصفى لغة . وكانوا فوق هذا على صلة بالبادية يرحلون إليها لمشافهة أهلها والأخذ عنهم، ولذا كان المعين الذى استمد منه البصريون اللغة العربية معيناً صافياً غزيراً بعيداً عن الشوائب نقياً من آثار الشك وعوامل الضعف ، وكانت الشواهد التى اعتمدوا عليها صحيحة موفورة .

(ب) وأما سكان الكوفة فلم تكن بيئتهم فى الصفاء اللغوى الذى كان لبيئة البصريين ، ولم تتهيأ لهم العوامل التى تجعل منابع لغتهم نقيـــة ، فقد أخذوا عن قبائل أضعف فصاحة ، وجاء اشتغالهم بالنحو متأخراً عن اشتغال البصريين .

(٤) وأما نهج البحث :

(أ) فالبصريون يقفون عند الشواهد الموثوق بصحتها . الكثيرة النظائر . ولذا كانت أقيستهم وقواعدهم أقرب إلى الصحة ، وكانوا يؤولون ما ورد مخالفاً للقواعد ، ويحكمون بأنه شاذ أو مصنوع . ولذا كثر عندهم ماقل عند الكوفيين من التأويل والحكم بالشذوذ والضرورات .

(ب) والكوفيون أسلس خطة فى النهج العلمى وأكثر خضوعا ، كما كانوا فى طباعهم أدنى إلى الطاعة والاستسلام . فهم يعتمدون على الشعر المصنوع والمنسوب لغير قائله ، دون أن يهتموا بالتمحيص ، ويكتفون بالشاهد الواحد فيبنون عليه حكمهم ويستنبطون القاعدة ، بل إنهم يرخصون بالقياس النظرى على مقتضى الرأى إذا أعوزتهم الشواهد . فيصلون إلى القاعدة دون اعتماد على شاهد .

ومن النواحى التى يأخذها عليهم معارضوهم أنهم اعتدوا بشعر الأعراب

بعد أن فسدت فيهم السليقة بسبب الاختلاط بالحضر. وكان هذا من أسباب إنكار البصريين لشواهدهم وإعراضهم عنها .

لهذا كله نشأ الخلاف بين البصريين والكوفيين .

ويبدو مما تقدم أن البصريين كانوا فى القواعد النحوية أرسخ قدما وأوسع علما وأولى بالثقة ، ولكن السياسة فى ذلك العصر اقتضت ظهور الكوفيين بعد قيام الدولة العباسية. إذ كانوا من أنصارها كما أشرنا إلى ذلك ، ولذا عز جانبهم وانتشر مذهبهم ، ورجحت فى المناظرات حجتهم . وإذا ضربنا للفريقين مثلا ، فإنا نستطيع أن نشبه البصريين بالمحافظين المتمسكين بالقديم الثابت ، والكوفيين بالأحرار أو المجددين الذين يتلمسون التوسع ويجرون وراء الابتكار .

وسنورد فيما بعد أمثلة لوجوه الخلاف وحجج كل فريق فيما ارتضى من مذاهب .

طبقات النحاة

قد نما علم النحو نموا متدرجا . وكان فى أول نشأته محدود الدائرة، ممتزجا باللغة وبالأدب . فإن الباحثين الأولين فى اللغة كانوا يعمدون إلى القرآن الكريم ، وإلى المأثور من كلام العرب فيبحثون فيه من شتى النواحى. ويتتبعون خصائص اللغة فى مفرداتها وتراكيبها ومعانيها ، وكانت بعض مؤلفاتهم فى أدوارها الأولى صورة تجمع أطرافا من هذه البحوث المختلفة .

ثم أخذ ميدان النحو يتسع ، واتجه بعض العلماء إلى أن يخصوه بعنايتهم، فاهتموا بتمحيص مسائله ، حتى برزت بحوثه مستقلة ودونت كتب تعرضت لمسائل النحو وحدها ، وظلت هذه الكتب تتدرج وتنمو حتى وصلت إلى ما بأيدينا الآن من كتب ألمت بجميع أطراف البحوث النحوية ووصلت فى تمحيصها إلى أعمق حدود البحث والاستيعاب .

وكانت دراسة النحو تسير على حسب النهج المعروف فى تلك العصور وهو التلقى الشفهى ، أو المقترون بالإملاء أو بقراءة بعض المؤلفات حين وجد شىء منها . فكان المتعلم يأخذ عن أستاذه ما يلقيه أو ما يمليه أو مايقرأ من كتب يشرح عباراتها ، ويعلق على مسائلها ، ويجلى شواهدها ، ويضيف إلى كل ذلك مايعن له من رأى . ومايتجه إليه من غرض . ثم ينشط الطلاب إلى البحث والدرس ، بعد أن تكتمل معلوماتهم ، وبعد أن يأخذوا من العلم بنصيب . فيتصدون للتعليم ، ويقصد إليهم ، فى حلقات الدرس وأماكن البحث والمناقشة ، طائفة من الطلاب يأخذون عنهم ويروون ما سمعوا وما دونوا . وبذلك نشأت للنحاة طبقات أو مدارس متعاقبة ، أخذ اللاحقون منهم عن السابقين . ومن هؤلاء سبع طبقات من البصريين ، وخمس طبقات من الكوفيين ، احتملوا أعباء البحث فى النحو وذللوا صعابه ، ووصلوا به فى نهاية القرن الثالث الهجرى إلى وضع ألموا فيه بجميع مسائله ، ومحصوها تمحيصا شاملا دقيقاً .

وسنشير إلى هذه الطبقات وإلى رجالها ومجمل جهودهم :

(الطبقة الأولى من البصريين)

وإمام هذه الطبقة هو أبو الأسود الدؤلى (١) ، والمشهور أنه أول من وضع النحو . وقال بعضهم إنه نصر بن عاصم (٢) ، وقال آخرون غير ذلك وأبو الأسود على كل حال من أقطاب وضع النحو ، وقد تلقى عنه فريق

(١) هو ظالم بن عمرو ، كان من سادات التابعين . صحب على بن أبى طالب ، وشهد معه وقعة صفين ، وكان يعلم أولاد زياد بن أبى سفيان وهو والى العراقين ، توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ وقيل انه توفي فى خلافة عمر بن عبد العزيز وعمره ٨٥ سنه .

(٢) هو نصر بن عاصم الليثى ، كان فقيها عالما بالعربية . قرأ القرآن على أبى الاسود الدؤلى . توفي سنه ٨٩ هـ فى أيام الوليد بن عبد الملك

ممن وضعوا أساس هذا العلم ، فأخذ عنه عنبسة الفيل (١) ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر (٢) .

ومن الأعمال التى قام بها أبو الأسود ضبطه المصحف بعلامات وضعها ، كما أشرنا إلى ذلك ، فقد بعث إليه زياد ثلاثين كاتبا ، فاختار منهم واحدا من عبد القيس وقال له : خذ المصحف فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله ، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدى الحرف ، فان أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين . وأخذ يقرأ القرآن فى أناة والكاتب يضع النقط ، وكلما أتم صفحة أعاد أبو الأسود نظره عليها ، حتى ضبط المصحف كله على هذا النهج .

وقد أخذ الناس هذه الطريقة عنه وشكلوا بها الحروف . وكانوا لا يضعون على الحرف الساكن شيئا ، وإذا كان بعد التنوين حرف من أحرف الحلق وضعوا النقطتين إحداهما فوق الأخرى ، دلالة على أن النون مظهرة ، وإلا وضعوا إحداهما بجانب الأخرى ، علامة على أن النون مدغمة أو خفية .

وقد تفنن الناس بعد أبى الأسود فى شكل النقط ، فجعلوها مربعة أو مدورة مسدودة الوسط أو خاليته . واخترعوا كذلك علامات للحرف

---

(١) هو عنبسة بن معدان ، ويقال له معدان الفيل وسبب ذلك أنه كان لزياد بن أبى سفيان قبلة ينفق عليها كل يوم عشرة دراهم فقال معدان : ادفعوها إلى واكفيكم المؤونة وأعطيكم عشرة دراهم كل يوم ، فدفعوها إليه ، فأثرى وبنى قصرا ، ولذا قيل معدان الفيل . وبلغ الفرزدق أن عنبسة هذ يفضل جريرا عليه فقال .

لقد كان فى معدان والفيل زاجر : لعنبسة الراوى على القصائدا

وكان عنبسة أبرع أصحاب أبى الاسود .

(٢) هو يحيى بن يعمر العدوانى ، كان عالما بالقرآن والنحو ولغات العرب لقى عبدالله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة . وقد ولاه يزيد بن المهلب القضاء بخراسان وكان يستعمل الغريب فى كلامه . وهو أحد قراء البصرة ، أخذ عنه عبد الله بن أبى اسحق . توفى سنة ١٢٩ هـ .

المشدد وللسكون . وكل ذلك كان بمداد مخالف فى اللون لمداد الكتابة .

فأبو الأسود هو الذى وضع علامات لاعراب المصحف أو لضبط قراءته . فهل وضع ذلك على غير مثال فى عصره وفى اللغات السامية الأخرى؟

والمعروف فى تاريخ اللغات السامية أن السريان هم الذين ابتدعوا علامات الحركات فى لغتهم ، وأخذها عنهم سائر الساميين ، وكانت هذه العلامات نقطا فوق الحرف أو تحته أو فى وسطه ، وقد قصدوا بذلك الاحتفاظ بالأحرف الهجائية دون تغيير فيها .

فهل من صلة بين هذا وبين ما عمله أبو الأسود الدؤلى فى اللغة العربية؟ وعلى كل حال كان هذا العمل خطوة محمودة فى تاريخ الخط العربى وضبط الكتابة ، وقد تبعتها خطوات وصلت بالخط إلى الحالة التى هو عليها الآن .

وكان علماء هذه الطبقة ملمين باللغة وبالقراءات ، إلى جانب المامهم بالنحو ، وكان النحو فى هذا العهد فى دور التكوين ، ولم يظهر من مسائله إلا قدر يسير . ويقولون إن أبا الأسود قد وضع من أبواب النحو بابى العطف والنعت ، ثم أخذ بابى التعجب والاستفهام ثم باب إن واخواتها ثم أبوابا أخرى .

(الطبقة الثانية)

ومن أشهر علمائها عبد الله الحضرمى (١) وعيسى بن عمر الثقفى (٢)

---

(١) هو عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى ، كان إماما فى العربية والقراءة . وقد تلقى عن يحيى بن يعمر وعن نصر بن عاصم . توفي بالبصرة سنة ١١٧ هـ فى أيام هشام بن عبد الملك

(٢) كان مولى خالد بن الوليد ونزل فى ثقيف فنسب إليهم ، وكان ثقة عالما بالعربية والنحو والقراءة ، أخذ عنه الخليل بن احمد . وكان بينه وبين أبى عمرو بن العلاء صحبة ولهما مسائل ومجالس ، وأخذ عنه سيبويه النحو . توفى سنة ١٤٩ فى خلافة المنصور العباسى .

وأبو عمرو بن العلاء[1] . وقد اهتم رجال هذه الطبقة بالتعليل والقياس وزادت عنايتهم بتتبع النصوص والشواهد . فكان عبد الله على مايقال أول من علل النحو ، وكان أشد اهتماما بالقياس . ويقولون أن عيسى بن عمر وضع كتابا رتبه وهذبه وجعل أساسه الذائع الأكثر ، وسمى ما شذ عن ذلك لغات .

وقال بعضهم : سألت أبا عمرو بن العلاء : خبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقلت : فكيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهو حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما ما خالفنى لغات .

ومن هذا يظهر أن الاتجاه إلى وضع القواعد النحوية فى هذا العهد ، إنما كان بعد الاستقراء وتتبع الكثير مما نطق به العرب . وفى خلال تتبعهم للأمثلة والشواهد كانوا يجدون أمثلة من شعر الشعراء على خلاف الكثير ، فكان بعضهم يتخذ هذا وسيلة لتخطئة العرب والطعن عليهم ، كما كان يفعل الحضرمى وعيسى بن عمر . فقد روى أبو عمرو أن ابن أبى اسحق الحضرمى سمع الفرزدق ينشد :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع　　من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن أبى اسحق : على أى شىء ترفع (مجلف) فقال : على مايسوءك وينوءك . قال أبو عمرو : فقلت للفرزدق أصبت ، وهو جائز على المعنى ، أى أنه لم يبق سواه . وسنوضح الآراء فى هذا البيت بعد .

---

(١) هو العلم المشهور فى علم القراءة واللغة العربية . قال عنه الاصمعى : جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج فلم أسمعه يحتج ببيت اسلامى . وعامة أخباره عن اعراب أدركوا الجاهلية وعنه أخذ أكثر نحاة عصره وكذا رواته وأدباؤه ولكنه لم يترك أثرا مكتوبا . توفى سنة ١٥٤ ﻫ فى خلافة المنصور العباسى .

وكان عيسى بن عمر يطعن على العرب، ويخطىء المشهورين منهم مثل النابغة في بعض أشعاره. ولعل السبب في هذا أنه كان متشدداً متقعراً في اللغة، فهو الذى قال حين سقط عن حماره واجتمع عليه الناس: «مالكم تكأكأتم (١) على كتكأكؤكم على ذى جنة، افرنقعوا».

ويظهر أنه كان إلى جانب ذلك يميل إلى الادعاء. فقد روى الأصمعى قال: قال عيسى بن عمر لأبى عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معد بن عدنان، فقال له أبو عمرو: لقد تعديت، فكيف تنشد هذا البيت:

قد كن يخبأن الوجوه تسترا ‏ ‏ ‏ فاليوم حين بدأن للنظار

أو بدين للنظار، فقال عيسى: بدأن، فقال له أبو عمرو: أخطأت، يقال بدا يبدو إذا ظهر، وبدأ يبدأ إذا شرع فى الشىء، والصواب حين بدون للنظار. وإنما قصد أبو عمرو، تغليطه، لأنه لا يقال فى هذا الموضع بدأن ولا بدين بل بدون.

على أن بعض العلماء كأبى عمرو بن العلاء كان أشد تسليما للعرب وارتياحا حين يظفر بشاهد يهديه إلى شىء جديد. فقد روى عنه أنه قال: كنت هاربا من الحجاج بن يوسف، وكان يشتبه على كلمة «فرجة» هل هى بالفتح أو بالضم (٢) فسمعت قائلا يقول:

ربما تكره النفوس من الأمـــر ‏ ‏ ‏ له فرجة كحل العقال

بفتح الفاء، ثم قال: ألا إنه قد مات الحجاج. قال أبو عمرو: فما أدرى بأيهما كنت أشد فرحا. بقوله (فرجة) أو بقوله مات الحجاج.

وكان النحو فى عهد الطبقتين المتقدمتين فى دور التكوين، وفى مرحلته البدائية. على أن الجهود التى بذلت فى خدمته كانت الأساس الأول الذى أقامت الطبقات التالية عليه بناء هذا العلم.

---

(١) اجتمعتم

(٢) يقال فرجة بالفتح بين الامرين وفرجة بالضم بين الجبلين.

ومؤلفات هذا العصر كانت مزيجا من النحو واللغة والأدب فإن هذه الفروع من الثقافة العربية لم تكن قد تميز بعضها من بعض بعد .

(الطبقة الثالثة البصرية والأولى الكوفية)

وشيخ الأولى هو الخليل بن أحمد (١) . ومن علمائها يونس بن حبيب (٢) وقد أخذ عن أبي عمر بن العلاء . وشيخ الثانية أبو جعفر محمد الرؤاسى (٣) ومن علمائها معاذ الهراء (٤)

وقد نشط فى هذا الدور إلى جانب البحوث النحوية البحث فى أبنية الكلمات وفى الاشتقاق ، واهتم بذلك علماء الكوفة وسبقوا البصريين فى قواعد الصرف .

وفى عهد هاتين الطبقتين ازدادت فكرة القياس نمواً ، واهتم الخليل إمام هذا العصر بتصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، وتجد بحوثه فى هذه النواحى منبثة فى الكتاب الذى ألفه فى اللغة وهو (كتاب العين) . (٥)

---

(١) هو سيد أهل الأدب فى علمه وزهده ، والغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله . كان من تلاميذ ابى عمرو بن العلاء ، وأخذ عنه سيبويه ، وعامة الحكاية فى كتاب سيبويه عن الخليل . وكل ما قال فيه سيبويه : « سألته أو قال » من غير أن يذكر قائله فهو الخليل . وقد اجتمع الخليل وعبد الله ابن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه . توفى بالبصرة سنة ١٦٠ هـ

(٢) من أكابر النحويين أخذ عن ابى عمرو بن العلاء وسمع من العرب وأخذ عنه سيبويه وحكى فى كتابه ، وأخذ عنه الكسائى والفراء . وكان له مذاهب وأقيسة تفردبها . توفى سنة ١٨٢ فى خلافة الرشيد .

(٣) هو ابن اخى معاذ الهراء . وسمى الرؤاسى لعظم رأسه . وقيل إنه أول من وضع من الكوفيين كتابا فى النحو . توفى سنة ٢٩٠ هـ .

(٤) سمى الهراء لانه كان يبيع الثياب الهروية وهى المنسوبة إلى بلدة « هراه » بخراسان . أخذ عنه الكسائى . وكان صديقا للكميت بن زيد الشاعر المشهور . توفى سنة ١٨٧ فى في خلافة الرشيد .

(٥) منه صفحات طبعت فى بغداد عددها ١٤٤ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٨ لغة

وهو أول كتاب ألف فى اللغة . وسمى كتاب العين لأنه بدأ بالكلام على حرف العين . وترتيب الخليل لحروف المعجم يسير طبقا لمخارجها ، بالابتداء من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين . وقد سار فى حصر كلمات اللغة بطريقة حسابية . فوجد أن الكلمات الثنائية تتصرف على وجهين ، والثلاثية تتصرف على ستة أوجه ، والرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها الأربعة ضربت فى وجوه الثلاثى الصحيح ، والخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها ، فالحروف الخمسة ضربت فى وجوه الرباعى وهى أربعة وعشرون . ثم أوضح المهمل والمستعمل من الكلمات ، وشرح معانى المستعمل منها ، وجمع ما كان معروفا فى أيامه من أحكام اللغة وقواعدها وشروطها ، وساق فى ثنايا الشرح كثيراً من الشواهد من شعر العرب .

وقد اتجه الكوفيون فى هذا الدور إلى التأليف ، فقد قيل إن الرؤاسى أول من وضع من الكوفيين كتابا فى النحو وهو كتاب الفيصل .

(الطبقة الرابعة البصرية والثانية الكوفية)

وشيخ الأولى هو سيبويه (١) ، ومن علمائها الأصمعى (٢) ، وأبو زيد

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، ولم يوضع فيه مثل كتابه . وذكره الجاحظ فقال : لم يكتب الناس في النحو كتابا مثله ، وجميع كتب الناس عيال عليه . أخذ النحو عن الخليل وعن يونس وعن عيسى بن عمر وغيرهم .

وأخذ اللغة عن أبى الخطاب المعروف بالاخفش الاكبر وتجد الحديث عن كتابه ومناظراته وطرفا من أخباره فى مواضع من هذا الكتاب . توفى سنة ١٨٣ وعمره نيف وأربعون

(٢) هو أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب ، كان صاحب لغة ونحو وإماما فى الاخبار والنوادر والملح والغريب . وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر . وهو من أهل البصرة وقدم بغداد أيام الرشيد .

أخذ عن الخليل وغيره . توفى سنة ٢١٧ أو سنة ٢١٣ فى خلافة المأمون

الانصاری (١)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (٢).

وشيخ الطبقة الثانية الكوفية هو الكسائى (٣)، ويعتبر بحق المؤسس للمذهب الكوفى. وقد تعلم النحو على الكبر. وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى قوم فيهم فضل وكان يجالسهم كثيراً فقال: قد عييت، فقالوا: تجالسنا وأنت تلحن، فقال: كيف لحنت؟ فقالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر فقل عييت مخففة. فأنف من هذه الكلمة، وقام من فوره فسأل عمن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ما عنده، ثم خرج إلى البصرة ولقى الخليل وجلس فى حلقته، فقال رجل من الاعراب: تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة. وقال للخليل من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادى الحجاز ونجد وتهامة. فخرج الكسائى وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه، ولم يكن له هم غير البصرة والخليل، فوجد الخليل قد مات وجلس فى موضعه يونس بن حبيب فجرت بينهما مسائل أقرله يونس فيها وصدره فى موضعه.

وقد ألف الكسائى عدة كتب فى النحو والقراءات والأدب والنوادر وغيرها، لم يصلنا منها إلا رسالة فى لحن العامة وهى مطبوعة.

---

(١) هو أبو زيد سعيد الانصارى، كان من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب. أخذ عن أبى عمرو بن العلاء. وكان سيبويه إذا قال: سمعت الثقة يريد أبا زيد الانصارى، ومن مؤلفاته كتاب النوادر فى اللغة. توفى سنة ٢١٥ أو سنة ٢١٤ فى خلافة المأمون

(٢) قال الجاحظ عنه: لم يكن فى الارض خارجى ولا اجماعى اعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة. وقد أرسل إليه الفضل بن الربيع ليستفيد من علمه فحضر إليه من البصرة. وقد جمع الرشيد بينه وبين الاصمعى وسألهما عن صفة الخيل. وقد ألف كتابه فى «مجاز القرآن» ومنه بقايا مخطوطة فى دار الكتب المصرية، توفى سنة ٢٠٧ هـ وقيل بعد ذلك.

(٣) هو أبو الحسن بن حمزة على الكسائى. كان إماما فى النحو واللغة والقراءات أخذ عن الرؤاسى والهراء، وأخذ عنه الفراء. وله مع سيبويه وأبى محمد اليزيدى والاصمعى مجالس ومناظرات تجد طرفا منها فى هذا الكتاب. توفى سنة ١٨٩ هـ وقيل غير ذلك

وكانت علوم اللغة العربية حين جاءت هاتان الطبقتان قد تميز بعضها من بعض، وأخذ كل فرع منها يتجه اتجاها مستقلا ، وبدأ بعض العلماء ينقطعون إلى بعضها . فانقطع سيبويه إلى النحو ، ووضع فيه كتابه الذى لم يسبقه أحد إلى مثله . وهو أول كتاب جامع لأصول النحو ، وقد صار عمدة العلماء بعده ، فعكفوا على قراءته وشرحه واختصاره ، وكان يقال بالبصرة قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه .

وقد نشط فى هذا العصر التنافس بين المذهبين البصرى والكوفى ، وازدادت المناظرات والجدل والنقاش وتحقيق المسائل النحوية وغيرها ، فمن ذلك ماحدث بين سيبويه والكسائى حين قدم أولهما إلى بغداد وماحدث لأبى عبيدة عند الرشيد، وماجرى بين الكسائى واليزيدى وغير ذلك. وسنشير إلى شىء من ذلك بعد .

(الطبقة الخامسة البصرية والثالثة الكوفية)

وإمام الأولى الأخفش الأوسط(١) ، وإمام الثانية الفراء(٢) وكان الأخفش أعلم من أخذ عن سيبويه ، وإليه يرجع الفضل فى نشر كتاب سيبويه . فانه لم يعرف أن أحداً قرأه على سيبويه ، ولم يقرأه سيبويه على أحد ، ولكن لما مات سيبويه قرىء الكتاب على الأخفش ، وكان ممن قرأه عليه أبو عمرو الجرمى وأبو عثمان المازنى الآتى ذكرهما ، وكانا قد توهما أن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فاتفقا على قراءته عليه وأظهرا أنه لسيبويه ، وأشاعا ذلك ، فلم يمكن أباالحسن أن يدعى الكتاب،

---

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط . وهو من أكابر أئمة النحويين البصريين . أخذ النحو عن سيبويه . وكان أكبر منه ، وأخذ عمن أخذ عنه سيبويه أيضا . توفى سنة ٢١٥ ﻫ وقيل سنة ٢٢١ ﻫ

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد ، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب . أخذ عنه الكسائى وكان يعلم ابنى المأمون النحو فتنازعا إلى نعليه أيهما يقدمهما ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردة . توفى سنة ٢٠٧ ﻫ

فكانا السبب فى إظهار أنه لسيبويه ، ولم يسند كتاب سـيبويه إليه إلا بطريق الأخفش .

وكان الفراء تلميذاً للكسائى ، وقد أمره المأمون أن يؤلف مايجمع به أصول النحو وماسمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة خاصة ، فكان يملى والوراقون يكتبون ، ثم خرج إلى الناس وابتدأ يملى كتاب المعانى . ثم خزنه الوراقون ليكسبوا به ، فجلس يملى كتاب معان أتم شرحا . فلما علم الوراقون جاءوا إليه وقالوا : نحن نبلغ الناس مايحبون فننسخ كل عشرة أوراق بدرهم .

وكان الفراء يعلم ابنى المأمون النحو .

وله مؤلفات كثيرة كان يمليها على تلاميذه،ولم يصلنا منها إلا كتاب معانى القرآن وكتاب المذكر والمؤنث .

(الطبقة السادسة البصرية والرابعة الكوفية)

وشيخ الأولى أبو عثمان المازنى (١) وكان إمام عصره فى النحو والأدب ، أخذ عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى . ومن علمائها الجرمى (٢) والتوزى (٣) والسجستانى (٤) .

---

(١) هو أبو عثمان بن محمد وقد أمر الخليفة الواثق باشخاصه إليه ليسأله عن إعراب البيت .

أظلوم أن مصابكم رجلا أبدى السلام تحية ظلم

الذى غنته الجارية بحضرته ، فأبدى المازنى رأيه ، بنصب رجلا ، وقد سأله الواثق عن السبب فشرحه ، ثم عارضه اليزيدى فى رأيه . توفى سنة ٢٤٩ هـ

(٢) هو أبو عمرو صالح بن إسحق ، أخذ النحو عن أبى الحسن الاخفش وغيره . وكان عالما باللغة حافظا لها . توفى سنة ٢٢٥ هـ فى خلافة المعتصم .

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد كان من علماء اللغة ، أخذ عن أبى عبيدة والاصمعى وقرأ على الجرمى كتاب سيبويه . توفى سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل .

(٤) هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى ، كان إماما فى اللغة والشعر وعنه أخذ علماء عصره كابن دريد والمبرد وغيرهما . وأخذ عن أبى زيد الانصارى وأبى عبيدة الاصمعى . توفى سنة ٢٤٨ هـ .

وشيخ الثانية أبو يوسف يعقوب بن السكيت(١).

وهذه الطبقة هى طبقة الشرح والتكميل ووضع الاصطلاحات ، وقد سلك علماؤها بالنحو مسلكا طبعه بطابع فيه كثير من التغيير الشكلى والتأليفى، فقد تغيرت لغة التأليف ووضعت اصطلاحات وعبارات فى المؤلفات لم تكن من قبل، وهى التى لاتزال مستعملة للآن .

(الطبقة السابعة البصرية والخامسة الكوفية)

وشيخ الأولى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد(٢)،وشيخ الثانية أبو العباس أحمد بن يحيي المعروف بثعلب(٣)، وقد عاصرهما فى بغداد فريق من العلماء.

وفى هذا العصر وصل النحو إلى الغاية ورتبت مسائله ونظمت أبوابه ، وكان ذلك أواخر القرن الثالث الهجرى .

وجوه الخلاف بين البصريين والكوفيين

قد أجملنا الأسباب التى نشأ عنها هذا الخلاف وأشرنا إلى نهج كل من الفريقين فى البحث والاحتجاج .

ومسائل هذا الخلاف مبسوطة فى كتب القواعد النحوية فى مواضعها . وقد جمع ابن الانبارى طائفة منها فى كتابه (الإنصاف فى مسائل الخلاف

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت . كان مؤدب ولد الخليفة جعفر المتوكل أخذ عن الفراء وابن الاعرابى وغيرهما . قال المبرد : مارأيت للبغداديين كتابا خيراً من كتاب يعقوب بن السكيت فى إصلاح المنطق . والكتاب مطبوع متداول . توفى سنة ٢٤٣ وقيل غير ذلك .

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد ، كان شيخ أهل النحو والعربية وإليه انتهى علمهما بعد طبقة الجرمى والمازنى . وله التآليف النافعة ، منها كتاب الكامل وكتاب المقتضب . توفى سنة ٢٨٥ هـ أو سنة ٢٨٦ فى خلافة المعتضد .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن يحيى كان إمام الكوفيين فى النحو واللغة فى زمانه . أخذ عنه على بن سليمان الاخفش الاصغر . توفى فى بغداد سنة ٢٩١ هـ .

بين البصريين والكوفيين) فشرح مائة وإحدى وعشرين مسألة تدور حول أنواع من الخلاف ، منها ما يرجع إلى العامل ، ومنها ما يرجع إلى الإعراب والبناء ، ومنها ما يرجع إلى الحقيقة اللغوية أو النحوية لبعض الكلمات ، ومنها ما يرجع إلى التقديم والتأخير فى نسج الجملة وترتيب كلماتها ، ومنها غير ذلك .

(١) (فمن المسائل الخاصة بالعامل) : -

العامل فى المبتدأ — وفى المفعول — وفى المشغول عنه — وفى خبر ما الحجازية — وفى الظرف إذا وقع خبرا — وفى المفعول معه — وفى المستثنى — وفى المضارع المرفوع — وفى المضارع بعد واو المعية وفاء السببية وبعد لام الجحود وبعد حتى وفى جواب الشرط .

(٢) (ومن المسائل الخاصة بالتقديم) :

تقديم خبر ما زال وأخواتها عليها — وخبر ليس عليها ومعمول خبر « ما » عليها — والحال على الفعل العامل فيها — والتمييز على الفعل المتصرف — والمفعول بالجزاء على حرف الشرط .

(٣) (ومن المسائل الخاصة بالإعراب والبناء) :

المنادى المعرف المفرد — اسم « لا » المفرد النكرة - كلمة الآن - فعل الأمر — كلمة « أيهم » — تمييز « كم » إذا فصل منها بظرف أو جار ومجرور .

(٤) (ومن المسائل الخاصة بالحقيقة اللغوية للكلمة) :

لام لعل أصلية هى أم زائدة - « كم » مركبة من الكاف و « ما » أو موضوعة للعدد - « أيمن » جمع يمين أو مفرد مشتق من اليمن - كلا وكلتا ، هل فيهما تثنيه لفظية ومعنوية - هل السين أصلها سوف - الاسم فى ذا والذى هل هو الذال فقط - الاسم فى هو وهى هل هو الهاء فقط .

(٥) (ومن المسائل الخاصة بالحقيقة النحوية للكلمة) :

« نعم وبئس » اسمان أو فعلان - « افعل فى التعجب » اسم أو فعل - « حاشا » فعل أو حرف - « رب » اسم أو حرف .

وهناك مسائل أخرى فى شتى النواحى الإعرابية والصرفية، وسنورد هنا طائفة من وجوه الخلاف توضح أساليب البصريين والكوفيين فى البحث وطرائقهم فى الاستدلال :

(١) (وقوع الفعل الماضى حالا)

مذهب الكوفيين أنه جائز وإليه ذهب الأخفش ، ومذهب البصريين أنه لا يجوز .

وحجة الكوفيين النقل والقياس . أما النقل ففى القرآن الكريم (أو جاءوكم حصرت صدورهم) . فحصرت فعل ماض وهو فى موضع الحال ، والتقدير حصرة صدورهم . والدليل على هذا التقدير قراءة من قرأ : أو جاءوكم حصرة صدورهم ، وهى قراءة الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى والمفضل عن عاصم .

وقال أبو صخر الهذلى :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

فبلله القطر فى موضع الحال .

وأما القياس فلأن كل ما جاز أن يكون صفة للنكرة جاز أن يكون حالا للمعرفة نحو مررت برجل قاعد ، ومررت بالرجل قاعدا . والفعل الماضى يجوز أن يكون صفة للنكرة نحو مررت برجل قعد ، فينبغى أن يجوز أن يقع حالا للمعرفة نحو مررت بالرجل قعد . والذى يدل على ذلك أنا أجمعنا على أنه يجوز أن يقام الفعل الماضى مقام الفعل المستقبل ، كما قال تعالى «وإذ قال الله ياعيسى بن مريم » أى يقول ، وإذا جاز أن يقام الماضى مقام المستقبل جاز أن يقام مقام الحال .

وحجة البصريين أن الفعل الماضى لايدل على الحال فلا يقوم مقامه، وأن مايوضع موضع الحال إنما هو ما يصلح أن يقال فيه الآن أو الساعة، نحو مررت بزيد يضرب ونظرت إلى عمرو يكتب. وهذا لايصلح فى الماضى فينبغى ألا يكون حالا، ولهذا لم يجز أن يقال مازال زيد قام وليس زيد قام، لأن « مازال وليس » يطلبان الحال، فلما لم يجز دل على أن الفعل الماضى لايجوز أن يقع حالا. ولا يحتج عليهم بأن الماضى إذا دخلت عليه « قد » جاز أن يكون حالا، لأن « قد » تقرب الماضى من الحال.

ويردون على الكوفيين فى استشهادهم بالآية بأنه لا حجة لهم فيه من أربعة أوجه:

(١) أن تكون « حصرت صدورهم » صفة لقوم المجرورة فى أول الآية وهو قوله تعالى (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق)

(٢) أن تكون صفة لقوم مقدر

(٣) أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قال: أو جاءوكم، ثم أخبر فقال: حصرت صدورهم.

(٤) أن يكون محمولا على الدعاء لا على الحال، كأنه قال: ضيق الله صدورهم، كما يقال جاءنى فلان وسع الله رزقه.

وأما قول الشاعر: كما انتفض العصفور بلله القطر:

فانما جاز لأن التقدير فيه وقد بلله القطر.

وأما قولهم: إنه يصلح أن يكون صفة للنكرة، ولذا صلح أن يقع حالا، فهذا فاسد لأنه إنما جاز أن يقع نحو قائم وقاعد حالا، لأنه اسم فاعل. واسم الفاعل يراد به الحال بخلاف الفعل الماضى.

وأما قولهم: إنه يجوز أن يقوم الماضى مقام المستقبل ولهذا جاز أن يقوم مقام الحال، فهذا لا يستقيم، وذلك لأن الماضى إنما يقوم مقام المستقبل

فى بعض المواضع على خلاف الأصل بدليل يدل عليه، فكذلك يقوم مقام الحال لدليل يدل عليه، وذلك إذا دخلت عليه (قد) أو كان وصفا لمحذوف.

( ) الضمير فى اسم الفاعل إذا جرى على غير من هوله مثل : «هند زيد ضاربته هى »

مذهب الكوفيين أنه لا يجب إبرازه ، ومذهب البصريين أنه يجب إبرازه .

وحجة الكوفيين أنه جاء عن العرب . قال الشاعر :

وإن امرأ أسرى إليك ودونه
من الأرض موماة وبيداء سملق
لمحقوقة أن تستجيبى دعاءه
وأن تعلمى أن المعان موفق

فترك إبراز الضمير ، ولو أبرزه لقال لمحقوقة أنت ،

وحجة البصريين فى وجوب إبرازه . أن اسم الفاعل فرع على الفعل فى تحمل الضمير ، والفرع أقل من الأصل ، وقالوا أيضا إنا لو لم نبرزه لأدى ذلك إلى الالتباس . وقد أجابوا عن الاستشهاد بالبيت بأنه محمول على الاتساع والحذف . والتقدير لمحقوقه بك أن تستجيبى دعاءه .

(٣) العطف على الضمير المخفوض ، نحو مررت بك وزيد : أجازه الكوفيون ومنعه البصريون .

وحجة الكوفيين أنه قد جاء ذلك فى التنزيل وكلام العرب . قال الله تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) بالخفض وهى قراءة أحد القراء السبعة وهو حمزة ، وقراءة غيره . وقال تعالى (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم) فموضع (ما) خفض لأنه عطف على الضمير

فى فيهن . وقال تعالى (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام) فعطف المسجد على الهاء فى به ، وقال الشاعر :

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والأيام من عجب

فالأيام معطوف على الكاف فى بك . وقال الآخر :

أكر على الكتيبة لا أبالى   أفيها كان حتفى أم سواها

فعطف سواها بأم على الضمير فى فيها .

وحجة البصريين فى المنع أن الجار مع المجرور بمنزلة شىء واحد، والضمير إذا كان مجرورا اتصل بالجار ولم ينفصل منه ، بخلاف ضمير الرفع وضمير النصب ، فاذا عطفت على الضمير المجرور فكأنك قد عطفت الاسم على الحرف الجار وهذا لا يجوز . وقالوا أيضا إنه لا يجوز عطف المضمر المجرور على المظهر المجرور . فلا يجوز أن يقال مررت بزيد و (ك) فكذلك ينبغى ألا يجوز العكس ، لأن الأسماء مشتركة فى العطف ،فما لا يجوز أن يكون معطوفا لا يجوز أن يكون معطوفا عليه .

وأما جوابهم عما استشهد به الكوفيون فقد قالوا إنه لا حجة لهم فى قوله تعالى (تساءلون به والأرحام) من وجهين: أحدهما أن الأرحام ليس مجروراً بالعطف على الضمير المجرور , وإنما هو مجرور بالقسم ، وجواب القسم قوله تعالى (إن الله كان عليكم رقيبا) . والوجه الثانى أن الأرحام مجرور بباء مقدرة غير الملفوظ بها ،وحذفت لدلالة الأولى عليها،ولهذا شواهد كثيرة ، فالعرب تقول ما كل بيضاء شحمة ولا سوداء تمرة ، يريدون ولا كل سوداء ، وقال الشاعر :

أكل امرىء تحسبين امرأ   ونار توقد بالليل ناراً

أراد وكل نار .

وأما قوله تعالى (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام)فالمسجد

مجرور بالعطف على سبيل الله لا بالعطف على به ، لأن إضافة الصد عن المسجد أكثر فى الاستعمال من إضافة الكفر به .

وأما قول الشاعر : فاذهب فما بك والأيام من عجب :

فلا حجة لهم فيه أيضا لأنه مجرور على القسم لا بالعطف .

(٤) مجىء كما بمعنى كيما :

ذهب الكوفيون إلى أن كما تأتى بمعنى كيما وينصبون بها ما بعدها ، ولا يمنعون جواز الرفع ، واستحسنه المبرد من البصريين .

وذهب البصريون إلى أنها لا تأتى بمعنى كيما ولا يجوز نصب ما بعدها بها.

وحجة الكوفيين أنه قد جاء كثيرا فى كلامهم .

قال صخر الغى :

جاءت كبير كما أخفرها والقوم صيد كأنهم رمدوا

أراد كيما أخفرها ، ولهذا المعنى انتصب أخفرها

وقال الشاعر : (١)

وطرفك إن ماجئتنا فاصر فنه كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وقال الآخر :

لا تظلموا الناس كما لا تظلموا .

وقال عدى بن زيد العبادى :

اسمع حديثا كما يوما تحدثه عن ظهر غيب إذا ماسائل سألا

وحجة البصريين أن الكاف فى كما كاف التشبيه أدخلت عليها ما وجعلا

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ، وقيل هو جميل . راجع شرح شواهد المغنى للسيوطى فى شواهد الكاف

بمنزلة حرف واحد ، كما أدخلت ما على رب وجعلا بمنزلة حرف واحد يليها الفعل كربما . وأجابوا عما احتج به الكوفيون بأن البيت الأول روى بالرفع وقد رواه الفراء كذلك . والبيت الثانى روايته هى :

لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر .

والبيت الثالث روايته للواحد : لا تظلم الناس كما لا تظلم .

والبيت الرابع لا حجة فيه ، لأن الرواة اتفقوا على أن الرواية كما يوماً تحدثه بالرفع ولم يروه أحد بالنصب إلا المفضل الضبى .

(٥) نعم وبئس والخلاف فى أنهما اسمان أو فعلان :

ذهب الكوفيون إلى أنهما اسمان مبتدآن ، وذهب البصريون إلى أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان ، وإليه ذهب الكسائى من الكوفيين .

وحجة الكوفيين دخول حرف الجر عليهما ، فإنه جاء عن العرب أنها تقول : ما زيد بنعم الرجل ، قال حسان :

ألست بنعم الجار يؤلف بيته   أخاقلة أو معدم المال مصرماً

وحكى عن بعض فصحاء العرب أنه قال : نعم السير على بئس العير.

ومنهم من قال إن الدليل على أنهما اسمان أن العرب تقول : يا نعم المولى ويا نعم النصير ، والنداء يدل على الاسمية . قالوا : ولا يجوز أن يقال إن المنادى محذوف للعلم به ، والتقدير فيه يا الله نعم المولى ونعم النصير أنت ، لأن المنادى إنما يقدر محذوفا إذا ولى حرف النداء فعل أمر وما جرى مجراه ، نحو قوله تعالى « ألا يا اسجدوا لله » أراد ياهؤلاء اسجدوا ، وقول ذى الرمة :

ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى   ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وغير ذلك كثير .

ومنهم من قال إن الدليل على أنهما ليسا بفعلين أنه لا يحسن اقتران الزمان بهما كسائر الأفعال ، فلا تقول نعم الرجل أمس أو غداً .

وحجة البصريين اتصال الضمير المرفوع بهما ، فقد جاء عن العرب أنهم قالوا : نعما رجلين ، ونعموا رجالا ، وقد رفعا مع ذلك المظهر والمضمر . ومنهم من قال إن الدليل هو اتصالها بتاء التأنيث الساكنة التى يختص بها الفعل الماضى . وقد اعترض الكوفيون بأن التاء قد اتصلت بالحروف فى قولهم ربت وثمت ولات ، وهذا يبطل الاختصاص ، فيجوز أن تكون نعم وبئس اسمين لحقتهما التاء . والجواب عن ذلك أن التاء اللاحقة للفعل تكون ساكنة ، والتاء التى فى رب وثم تكون متحركة ، وأما لات فالتاء ليست مزيدة فيها ، بل هى كلمة على حيالها . على أن التاء إذا كانت مزيدة فإنها ليست مثل تاء التأنيث من عدة وجوه ، منها أن الكسائى كان يقف عليها بالهاء .

وقد أجاب البصريون بأن قوله « ألست بنعم الجار » وأمثاله إنما هو على الحكاية ، أى ألست بجار مقول فيه نعم الجار .

(٦) العامل فى المفعول النصب :

ذهب الكوفيون إلى أن العامل فى المفعول النصب الفعل والفاعل جميعا ، وذهب بعضهم إلى أن العامل هو الفاعل ، وذهب خلف الأحمر من الكوفيين إلى أن العامل فى المفعول معنى المفعولية ، وفى الفاعل معنى الفاعلية .

وذهب البصريون إلى أن الفاعل وحده عمل فى الفاعل والمفعول جميعا.

وحجة الكوفيين فى أن العامل الفعل والفاعل جميعا ، أنه لا يكون مفعول إلا بعد فعل وفاعل لفظا أو تقديرا ، وأن الفعل والفاعل بمنزلة الشىء الواحد ، والدليل على ذلك من وجوه : منها أن إعراب الفعل فى الأفعال الخمسة يقع بعد الفاعل ، وأن آخر الماضى يسكن إذا اتصل به ضمير الفاعل ، كراهة اجتماع أربع حركات متوالية فيما هو كالكلمة الواحدة ، ومنها أدلة أخرى يسردونها.

وحجة البصريين أن الفعل له تأثير فى العمل ، وأما الفاعل فلا تأثير له . لأنه اسم والأصل فى الأسماء أن لا تعمل ، ثم يردون على حجج الكوفيين.

(٧) العامل فى خبر (ما) فى لغه أهل الحجاز :

ذهب الكوفيون إلى أن (ما) لاتعمل فى الخبر وهو منصوب بحذف حرف الخفض . وذهب البصريون إلى أنها تعمل فى الخبر وهو منصوب بها.

وحجة الكوفيين أن القياس فى «ما» أنها لاتعمل ، لأن الحرف إنما يكون عاملا إذا كان مختصا كحروف الجر والجوازم . أما غير المختص فلا يعمل، كحروف الاستفهام والعطف . ولذا كانت «ما» مهملة فى لغة بنى تميم وهو القياس . وإنما أعملها أهل الحجاز لأنهم شبهوها بليس من جهة المعنى ،وهو شبه ضعيف فلم تقو على العمل فى الخبر كما عملت ليس ، لأن (ليس) فعل و (ما) حرف ، والحرف أضعف ، فبطل أن يكون منصوبا بما ، ووجب أن يكون منصوبا بحذف حرف الجر ، لأن الأصل مازيد بقائم .

وحجة البصريين أنها أشبهت ليس من جهتين : أنها تدخل على المبتدأ والخبر . وأنها تنفى مافى الحال ، ويقوى الشبهة بينهما دخول الباء فى خبرها كما تدخل فى خبر ليس .

ثم يردون على حجج الكوفيين بأن الشبه بينهما إنما يضعف إذا تقدم خبرها على اسمها ، أو إذا دخل حرف الاستثناء أو إذا فصل بينها وبين معمولها ، ولذا تهمل فى هذه الأحوال ، وبأن حذف حرف الجر لايوجب النصب فإن كثيرا من الاسماء تدخلها حروف الجر ولا تنصب بحذفها ، مثل كفى بالله شهيدا وبحسبك زيد وما جائى من أحد .

(٨) تقديم التمييز إذا كان العامل فيه فعلا متصرفا :

اختلف الكوفيون فى جواز التقديم فى نحو تصبب زيد عرقا ،فذهب بعضهم إلى جوازه ووافقهم المازنى والمبرد من البصريين .

وذهب أكثر البصريين إلى أنه لايجوز .

وحجة الكوفيين النقل والقياس ، أما النقل فقد جاء ذلك فى كلامهم ،

قال الشاعر :

أتهجر سلمى بالفراق حبيبها   وما كان نفسا بالفراق تطيب

لأن التقدير فيه وما كان الشأن والحديث تطيب سلمى نفسا ،وأما القياس فلأن هذا العامل فعل متصرف ، فجاز تقديم معموله عليه كما يجوز تقديم الحال على العامل فيها إذا كان فعلا متصرفا .

وحجة البصريين فى أنه لايجوز تقديمه على العامل فيه أنه هو الفاعل فى المعنى ، فلم يجز تقديمه كما لو كان فاعلا لفظا . قالو ولا ينطبق هذا على الحال حيث يجوز تقديمها على العامل فيها نحو راكبا جاء زيد ، فزيد هو الفاعل لفظا ومعنى . وإذا استوفى الفعل فاعله من جهة اللفظ والمعنى صار راكبا بمنزلة المفعول فجاز تقديمه .

وجوابهم على مااستشهد به الكوفيون هو أن الرواية الصحيحة هى :

« وما كان نفسى بالفراق تطيب » وذلك لاحجة فيه وإذا سلمنا بصحة مارويتموه ، فانا نقول : نصب نفسا بفعل مقدر ، كأنه قال . أعنى نفسا ، لا على التمييز . وإذا قدرنا ماذكرتموه ، فانما جاء فى الشعر قليلا على طريق الشذوذ . وأما احتجاجهم بتقديم الحال على العامل فيها فلا حجة لهم فيه لأنهم لايقولون به ، ولا يعتقدون صحته . فكيف يجوز أن يستدلوا على الخصم بمالا يعتقدون صحته .

(ا) خبر كان والمفعول الثانى لظننت :

ذهب الكوفيون إلى أن خبر كان والمفعول الثانى لظننت نصبا على الحال ، وذهب البصريون إلى أن نصبهما نصب المفعول لا على الحال .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن (كان) فعل غير واقع،أى غير متعد ، والدليل على ذلك أن فعل الاثنين إذا كان واقعافإنه يقع على الواحد والجمع ، نحو ضربا رجلا وضربا رجالا ، ولا يجوز ذلك فى كان.وإذا لم يكن متعديا

وجب أن يكون منصوبا نصب الحال لا نصب المفعول . فإنا ما وجدنا فعلا ينصب مفعولا هو الفاعل فى المعنى إلا الحال ، فكان حمله عليه أولى ، ولأنه يحسن أن يقال فيه كان زيد فى حالة كذا ، وكذلك يحسن أيضا فى ظننت زيدا قائما ، ظننت زيدا فى حالة كذا ، فدل على أنه نصب على الحال . وقد ردوا على وقوع الخبر معرفة والحال لا يكون معرفة ، بأن الخبر فى هذه الحال قام مقام الحال ، كقولك ضربت زيدا سوطا فان سوطا ينصب على المصدر وإن كان آلة ، لقيامه مقام المصدر . على أنه قد جاءت الحال معرفة.

وأما البصريون فاحتجوا بأنهما يقعان ضميرا نحو إن يكنه وظننته اياه، والضمائر لا تقع أحوالا ، ثم ردوا على حجج الكوفيين .

مناظرات النحاة ومجالسهم

وإلى جانب ما أوضحنا من خلاف بين طوائف النحاة ، كان لهم فى مجالسهم حوار فى مسائل نحوية مختلفة ، ومناظرات تدل على عنايتهم بدقيق المسائل، وعلى تمسك كل فريق منهم برأيه وإقامة الحجة على مذهبه ،

وانا نورد من ذلك أمثلة يتجلى فيها ما نشير إليه :

(بين سيبويه والكسائى) (١)

قدم سيبويه على البرامكة ، فعزم يحيى بن خالد على الجمع بينه وبين الكسائى فجعل لذلك يوما. فلما حضر سيبويه، تقدم إليه الفراء وخلف ، فسأله خلف عن مسألة فأجاب فيها ، فقال له أخطأت ثم سأله ثانيا وثالثا وهو يجيبه ويقول له أخطأت ، فقال له سيبويه . هذا سوء أدب ، فأقبل عليه الفراء فقال له : إن فى هذا الرجل حدة وعجلة ، ولكن ما تقول فيمن قال : هؤلاء أبون ومررت بأبين ، كيف تقول على مثال ذلك من وأيت وأويت ؟ فاجابه .

---

(١) المغنى حـ ١ ص ٧٤

فقال : أعـــد النظر ، فقال : لست أكلمكما حتى يحضر صاحبكما : فحضر الكسائى ، فقال لسيبويه : تسألنى أو أسألك ؟ فقال له سيبويه : سل أنت ، فسأله عن قول العرب : كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبار فإذا هو هى أو فإذا هو إياها . فقال سيبويه : فإذا هو هى ، ولا يجوز النصب، وسأله عن أمثال ذلك نحو خرجت فإذا عبد الله القائم بالرفع أو بالنصب ، فقال : كل ذلك بالرفع . فقال الكسائى : العرب ترفع كل ذلك وتنصبه ، فقال يحيى : قد اختلفتما وانتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال له الكسائى : هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر أنصفت ، فأحضروا وفيهم أبو فقعس وأبو زياد وأبو الجراح فوافقوا الكسائى ، فاستكان سيبويه . فأقبل عليه يحيى وقال له : قد تسمع أيها الرجل ، فقال له الكسائى : أصلح الله الوزير ، إنه قدم اليك راغبا ، فان أردت ألا ترده خائبا . فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم ، فخرج إلى فارس فأقام بها حتى مات ولم يعد إلى البصرة .

ويقال إن العرب قد أرشوا على ذلك ، أو أنهم علموا منزلة الكسائى عند الرشيد ، ويقال إنهم إنما قالوا : القول قول الكسائى ولم ينطقوا بالنصب، وأن سيبويه قال ليحيى : مرهم أن ينطقوا بذلك فإن ألسنتهم لا تطوع به .

وأما سؤال الفراء فجوابه أن أبون جمع أب ، وأب على وزن فعل بفتحتين وأصله أبو فاذا بنينا من « وأى » أو من (أوى) قلنا أوى كهوى أو قلنا (وأى) كهوى أيضا ، ثم نجمعه بالواو والنون فتحذف الألف كما تحذف ألف مصطفى وتبقى الفتحة دليلا عليها فتقول (أوون) أو(وأون) رفعا و (أوين) أو (وأين) جرا ونصبا ، كما تقول فى جمع عصا وقفا اسم رجل عصون وقفون وعصين وقفين .

وليس هذا مما يخفى على سيبويه ولا على أصاغر الطلبة ، ولكنه كما قال أبو عثمان المازنى : دخلت بغداد فألقيت على مسائل فكنت أجيب فيها على

مذهبى ويخطئونى على مذاهبهم .

وأما سؤال الكسائى فجوابه ما قاله سيبويه وهو : فاذا هو هى ، هذا هو وجه الكلام ، مثل قوله تعالى (فاذا هى بيضاء للناظرين) فاذا هى حية تسعى) وأما فاذا هو إياها إن ثبت ، فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك وإن تكلم بعض العرب به . وقد ذكر فى توجيهه أمور ، منها وهو لأبى بكر بن الخياط : أن «إذا» ظرف فيه معنى وجدت ورأيت ، فجاز أن ينصب المفعول ، وهو مع ذلك ظرف مخبر به عن الاسم بعده . ومنها أن ضمير النصب استعير فى مكان ضمير الرفع ، قاله ابن مالك . ومنها أنه مفعول به ، والأصل فإذا هو يساويها أو يشابهها ، ثم حذف الفعل فانفصل الضمير. وهذا الوجه لابن مالك أيضا، وهناك آراء أخرى وتأويلات جرى النحاة فيها على طريقتهم ، وقد ناقش ابن هشام كل ذلك فى كتابه المغنى .

(بين الجرمى والفراء) (١)

اجتمع أبو عمرو الجرمى وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، فقال الفراء للجرمى : أخبرنى عن قولهم زيد منطلق ، لم رفعوا زيدا . فقال له الجرمى بالابتداء. فقال له الفراء : ومامعنى الابتداء ؟ قال تعريته من العوامل. قال له الفراء : فأظهره ، فقال الجرمى : هذا معنى لا يظهر . قال له الفراء : فمثله، قال له الجرمى : لا يتمثل . قال مارأيت كاليوم عاملا لا يظهر ولا يتمثل . فقال له الجرمى : أخبرنى عن قولهم زيد ضربته، لم رفعتم زيدا ، قال: بالهاء العائدة على زيد ، قال الجرمى : الهاء اسم فكيف يرفع الاسم ؟ قال الفراء : نحن لانبالى من هذا ، فانا نجعل كل واحد من المبتدأ والخبر عاملا فى صاحبه فى نحو زيد منطلق. قال الجرمى : يجوز أن يكون كذلك فى نحو زيد منطلق

---

(١) نزهة الالباء ص ٢٠١

لأن كل واحد من الاسمين مرفوع فى نفسه ، فجاز أن يرفع الآخر ، وأما الهاء من ضربته ففى محل النصب ، فكيف يرفع الاسم ؟ فقال له الفراء : لم نرفعه به وإنما رفعناه بالعائد فقال له الجرمى : وما العائد؟ قال الفراء : معنى، قال الجرمى : أظهره ، قال لا يظهر ، قال : مثله ، قال : لا يتمثل ، قال له الجرمى : لقد وقعت فيما فررت منه .

فيقال إنهما لما افترقا قيل للفراء كيف رأيت الجرمى ؟ قال رأيته آية . وقيل للجرمى كيف رأيت الفراء ؟ قال : رأيته شيطانا .

(بين الكسائى واليزيدى) (١)

سأل اليزيدى الكسائى بحضرة الرشيد : انظر ، فى هذا الشعر عيب ؟ وأنشده :

مارأينا خربا (٢) نقــر عنه البيض صقر
لا يكون العير مهرا لا يكون المهر مهر

فقال الكسائى : قد أقوى (٣) الشاعر ، فقال له اليزيدى : انظر فيه ، فقال : أقوى، لابد أن ينصب المهر الثانى على أنه خبر كان، فضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض وقال : أنا أبو محمد ، الشعر صواب ، وإنما ابتدأ فقال : المهر مهر ، فقال له يحيى بن خالد : أتكتنى (٤) بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك ؟ والله لخطأ الكسائى مع أدبه . أحب الينا من صوابك مع سوء فعلك

---

(١) معجم الادباء حـ ١٣ ص ١٧٨
(٢) الخرب الحبارى ، طائر يضرب به المثل فى البلاهة . ونقر الطائر البيض : ثقبه وخرج الفرخ . يقول : ما رأينا أن الصقر ينقب عن بيض الحبارى ليخرج منه صقر اى أن هذا محال
(٣) الاقواء فى الشعر أن تختلف القوافى فى حركة اخر الكلمة
(٤) أي تذكر كنيتك مفتخرا بنفسك

(بين الكسائى والاصمعى) .

كان الكسائى والاصمعى بحضرة الرشيد وكانا ملازمين له يقيمان بإقامته ويظعنان بظعنه . فانشد الكسائى لأفنون التغلبي (١) :

أبلغ حبيبا وخلل فى سراتهم ... أن الفؤاد انطوى منهم على حزن
قد كنت أسبق من جاروا على مهل ... من ولد آدم ما لم يخلعوا رسنى
فالوا على ولم أملك فيالتهم ... حتى انتحيت على الأرساغ والثنن
لو أننى كنت من عاد ومن ارم ... ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
لما فدوا باخيهم من مهولة ... اخا السكون ولا جاروا على السنن
سألت قومى وقد سدت أباعرهم ... ما بين رحبة ذات العيص والعدن
إذ قربوا لابن سوار أباعرهم ... لله در عطاء كان ذا غبن
أنى جزوا عامرا سوأى بفعلهم ... أم كيف يجزوننى السوأى من الحسن
أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به ... رئمان أنف إذا ماضن باللبن

---

(١) راجع الابيات فى المفضليات ح ٢ ص ٦١ وفى خزانة الادب ح ٤ ص ٤٥٥ فى شرح الشاهد السادس بعد التسعمائة . وكان أفنون قد طلب من قومه أباعر ليتحملوا بها عنه ديات من قتلهم فخيبوا أمله ، ولم يضنوا بمثل ذلك على رجل يدعى ابن سوار ، فقال هذه الابيات يعتب على قومه وانهم خدعوه كما تخدع العلوق من الابل ولدها ترأمه ولا تدر عليه. خلل : اجعل بلاغك يتخللهم . ما لم يخلعوا رسني كناية عن تخليهم عنه . فالوا : ضعف رأيهم واخطئوا . انتحيت : اعتمدت . الارساغ : جمع رسغ وهو من الدواب الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف . الثنن : جمع ثنة بتشديد النون وهو الشعر فى مؤخر الرسغ . ضرب ذلك مثلا لاسافل الناس ، يقول : لما أخطئو فى أمرى قصدت أسافل الناس. من مهولة : من أجل مصيبة هائلة . أخا السكون : رجل من قبيلة السكون كان أسيرا عند قوم افنون . العيص : الشجر الملتف ، العدن : أراد مدينة عدن . الغبن : ضعف الرأى العلوق : الناقة التي تفقد ولدها بنحر أو موت فيسلخ جلده ويحشى تبنا أو نحوه و يقدم إليها لترأمه أى تعطف عليه ويدر لبنها فتشمه بأنفها وينكره قلبها فتعطف عليه ولا ترسل اللبن . الرئمان : مصدر رئمت الناقة ولدها إذا عطفت عليه .

فقال الأصمعي إنما هو رئمان أنف بالنصب ،فقال له الكسائي : اسكت ما أنت وذاك ، يجوز رئمان أنف بالرفع والنصب والخفض . أما الرفع فعلى الرد على ما (أى الابدال) لأنها فى موضع رفع بالفعل ينفع ، فيصير التقدير أم كيف ينفع رئمان أنف . والنصب بتعطى . والخفض على الرد على الهاء التى فى به .

فسكت الأصمعي ولم يكن له علم بالعربية وكان صاحب لغة ولم يكن صاحب إعراب .

قال البغدادى فى خزانة الأدب: ويجوز رفع رئمان على أنه خبر لمبتدأ محذوف. وقال ابن الشجرى فى أماليه : «ما» بمعنى الذى واقعة على البو، وانتصاب الرئمان هو الوجه الذى يصح به المعنى والإعراب ، وإنكار الأصمعي لرفعه إنكار فى موضعه ، وجر رئمان على البدل أقرب إلى الصحيح قليلا (١)

(بين عيسى بن عمر الثقفى وأبى عمرو بن العلاء) (٢)

قال الأصمعي : جاء عيسى بن عمر الثقفى ونحن عند أبى عمرو بن العلاء فقال : يا أبا عمرو . ما شيء بلغنى عنك تجيزه ، قال : وما هو ؟ قال بلغنى عنك أنك تجيز (ليس الطيب إلا المسك) بالرفع ، فقال أبو عمرو : هيهات، نمت وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، وليس فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع ، قال أبو عمرو : قم يا يحي - يعنى اليزيدى (٣) وانت يا خلف - يعنى خلفا الأحمر - فاذهبا إلى أبى المهدى ولقناه الرفع فانه

(١) راجع بقية الاوجه الاعرابية فى خزانة الادب للبغدادى حـ ٤ ص ٥٤٩

(٢) أمالى القالى حـ ٣ ص ٣٩ والاشباه والنظائر حـ ٣ ص ٢٣

(٣) هو أبو محمد يحيى بن المبارك صاحب أبى عمرو بن العلاء ، وهو الذى خلفه فى القيام بالقراءة بعده . وكان يؤدب أولاد يزيد بن المبارك خال المهدي وإليه كان ينسب ثم اتصل بهارون الرشيد فكان يؤدب ولده المأمون .

لا يرفع ، واذهبا إلى المنتجع بن نبهان التميمى ولقناه النصب فانه لا ينصب ، فذهبا فأتيا أبا المهدى وإذا هو يصلى ، فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟ قلنا : جئناك نسألك عن شيء من كلام العرب ، قال : هاتيا ، فقلنا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك ؟ فقال : أتأمرانى بالكذب على كبر سنى ؟ فأين الزعفران وأين الجاوى ؟ وأين بنة الإبل الصادرة ؟ فقال له خلف الأحمر : ليس الشراب إلا العسل . فقال : فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر . قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، فقال هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله ، فقال اليزيدى ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى ، فكتبنا ما سمعنا منه. ثم أتينا المنتجع ، فقال له خلف : ليس الطيب إلا المسك ، فلقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع ، فأتينا أبا عمرو فاخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح . فأخرج عيسى بن عمر خاتمه من يده فدفعه إلى أبى عمرو وقال: بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

علم النحو فى بغداد

اختط العباسيون مدينة بغداد واتخذوها عاصمة لهم . بناها المنصور العباسى سنة ١٤٥ هـ على نهر دجلة فى بقعة متاخمة لبلاد فارس ، وقد أصبحت مبعثاً للعرفان ومثابة للعلماء وقبلة للدارسين والمعلمين . وتجلت فيها عظمة الدولة العباسية وحضارتها ، ونشطت ألوان الثقافة ، وكانت محط أنظار العالم العربى.

وقد آنس علماء الكوفة من الخلفاء العباسيين تشجيعاً فقصدوا ساحتهم والتمسوا رضاهم . ولم يكن للبصريين فى أول الأمر نصيب من الحظوة فى بغداد . ولذلك كان الكوفيون هم دعامة الحركة العلمية وقائدى زمامها ، وقد ذاع مذهبهم ، ولقيت آراؤهم معاضدة وترجيحا ، وراجت الأصول التى

يبنون عليها مذهبهم ومن بينها شواهد يعوزها التحرى ، وأشعار موضوعة ، وأبيات ليس لها نظائر تقوى الحجة فيها .

على أن نحاة البصرة لم يحجموا عن الذهاب إلى بغداد . فقد غشيها فريق منهم . واتسع المجال لعرض آرائهم ، وذلك فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وقد أتيح للبغداديين بهذا أن ينظروا فى المذهبين البصرى والكوفى ، ويوازنوا بين آراء الفريقين ، فأنشئوا لهم مذهبا كان أساسه المستحسن من المذهبين ، وأضافوا إلى ذلك ما عن لهم من آراء خاصة . وكانوا فى أول الأمر أكثر ميلا إلى موافقة الكوفيين ، لمكانة نحاة الكوفة عند الخلفاء كما تقدم ، ولكنهم اتبعوا المذهب البصرى فى كثير من المسائل .

(أمثلة من المذهب البغدادى)

وهاك أمثلة من المذهب البغدادى وما وافقوا فيه أهل المذهبين .

(١) اسم المصدر إن كان علما لم يعمل اتفاقا ، وإن كان ميميا فكالمصدر اتفاقا ، وإن كان غيرهما ، وهو ما جاوز فعله الثلاثة وكان على وزن مصدر الثلاثى ، لم يعمل عند البصريين ويعمل عند الكوفيين والبغداديين ، وعليه قول القطامى (١) .

أكفرا بعد رد الموت عنى   وبعد عطائك المائة الرتاعا

(٢) « نداء ما فيه ال » :

لا يجوز نداء ما فيه «ال» إلا فى مواضع منها ضرورة الشعر . ولا يجوز فيما عدا ذلك فى النثر . خلافا للبغداديين والكوفيين فى اجازتهم ذلك محتجين بالقياس والسماع .

---

(١) يخاطب زفر بن الحارث الكلابى وقد اطلقه من الاسر ورد إليه ماله وأعطاه مائة من إبل من اسروه . والرتاع جمع راتعة وهى الابل التى ترتع كيف شاءت

أما القياس فقد جاز « يا الله » بالاجماع ، فيجوز يا الرجل قياسا عليه لأن كلا منهما فيه « ال » وليست من أصل الكلمة .

وأما السماع فقد أنشدوا :

فيا الغلامان اللذان فرا ‏ ‏ ‏ ‏ أياكما أن تكسبانا شرا

وهذا لاضرورة فيه لأن قائله يمكنه أن يقول فيا غلامان .

وأجاب المانعون عن القياس بالفرق بكثرة الاستعمال وعن السماع بالشذوذ (١) .

(٣) « اسم « لا » إذا كان شبيها بالمضاف »

يكون معربا ومنونا . وأجاز البغداديون « لا طالع جبلا » بدون تنوين . أجروه فى ذلك مجرى المضاف كما أجرى مجراه فى الاعراب . وعليه يتخرج الحديث « لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت »

وقد رأى الشيخ يس فى حاشيته على شرح التصريح رأيا آخر فى توجيه هذا الحديث (٢)

(٤) « التذكير والتأنيث فى العدد » :

العبرة فى التذكير والتأنيث فى العدد بحال المفرد لا الجمع ، فيقال : ثلاثة سجلات وأربعة اصطبلات . خلافا للبغداديين فإنهم يعتبرون لفظ الجمع فيقولون ثلاث سجلات وأربع اصطبلات بغير هاء وإن كان المفرد مذكرا (٣)

(٥) الهمزتان الملتقيتان فى كلمة واحدة :

القاعدة هى أن تبدل الهمزة الثانية الساكنة حرف مد من جنس حركة

---

(١) شرح التصريح ح ٢ ص ١٧٣

(٢) شرح التصريح ح ١ ص ٢٤٠ وحاشية الصبان على الاشمونى ح ٣ ص ٢٧١

(٣) همع الهوامع ح ٢ ص ١٤٩ وشرح التصريح ح ٢ ص ٢٧١

الهمزة الأولى فنقول فى المضارع الذى نصوغه من كلمة الأزار والأمانة والأهل : آتز وآتمن وآتهل .

والبغداديون يجيزون قلب الهمزة الثانية تاء مع أدغامها فى تاء الافتعال فيقولون : أتزر وأتمن وأتهل(١) .

* * *

ومن المسائل التى عول البغداديون فيها على مذهب الكوفيين :

(١) مجىء «بله» للاستثناء بمعنى لاسيما، نحو أكرمت العبيد بله الأحرار، على معنى أن إكرام الأحرار يزيد على إكرام العبيد .

وأنكر ذلك البصريون . لأن (الا) لاتقع مكانها ، ولأن مابعدها لايكون إلا من جنس ماقبلها ، ولأن حرف العطف يجوز دخوله عليها(٢)

(٢) إذا تقدم المستثنى على المستثنى منه وجب نصبه ، وفى لغة يجوز الاتباع، قال سيبويه : حدثنى يونس أن قوما يوثق بعربيتهم يقولون : مالى إلا أبوك ناصر، ولايقاس على هذه اللغة، وقد قاسه الكوفيون والبغداديون وابن مالك . ومن الوارد منه قول حسان بن ثابت :

ألا إنهم يرجون منه شفاعة إذا لم يكن إلا النبيون شافع

ومن القواعد التى عول فيها البغداديون على المذهب البصرى :
(العطف على المحل)(٣) .

فمن أقسام العطف : العطف على المحل نحو ليس زيد بقائم ولا قاعدا بالنصب ، عطفا على محل خبر ليس الذى جر بالباء الزائدة . وهذا العطف

---

(١) شرح التصريح جـ ٢ ص ٣٧٣

(٢) راجع همع الهوامع للسيوطى جـ ١ ص ٢٣٥ والمغني جـ ١ ص ٩٧

(٣) راجع المغنى جـ ٢ ص ٨٧

له عند المحققين ثلاثة شروط : (أحدها) إمكان ظهوره فى الفصيح ، فانه يصح فى قولنا (ليس زيد بقائم ولا قاعدا) أن نظهر محل المعطوف عليه بحذف الباء ، ولذا لايجوز مررت بزيد وعمرا لأنه لايجوز مررت زيدا إلا فى الضرورة (الثانى) أن يكون الموضع بحق الأصالة فلايجوز هذا ضارب زيدا وأخيه لأن الأصل إعمال الوصف المستوفى لشروط العمل لاإضافته و (الثالث) وجود الطالب لذلك المحل . أما إذا زال فلايصح العطف ، مثل إن زيدا وعمرو قائمان لأن الطالب لرفع زيد وهو الابتداء قد زال بدخول (ان) .

والبغداديون لايشترطون الشرط الثانى تمسكا بقول امرىء القيس :

فظل طهاة اللحم مابين منضج صفيف شواء أو قدير(١) معجل

وخرج البيت على أن الأصل أو طابخ قدير ثم حذف المضاف وأبقى جر المضاف إليه . أو أنه عطف على صفيف ولكن خفض على الجوار ، أو على توهم أن الصفيف مجرور بالإضافة .

وقد ظل المذهب البغدادى ناشطا فترة من الزمن،وظلت بغداد مركزا للثقافة العربية حتى مستها أحداث الزمن ، فتلمس علماؤها لهم مواطن علمية مختلفة ، وانبثوا فى العراق العجمى وفارس وخراسان وجهات أخرى .

وأول هذه الأحداث استفحال نفوذ العنصر التركى الذى كان المعتصم الخليفة العباسى قد استكثر منه ، ثم ماكان من اضطهاد للشيعة أيام الخليفة المتوكل ، ثم ماحدث من انقلاب فى حياة البلاد العربية بتغلب بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ وامتداد نفوذهم على العراق وفارس وخراسان .

على أن هذا الانقلاب السياسى ، وإن كان مقرونا بإضعاف النفوذ العربى والوحدة السياسية للمملكة العربية،لم ينجم عنه إضعاف الحركة العلمية، بل صحبه نشاط ثقافى واهتمام بالبحث والدرس والتأليف فى مختلف العلوم

---

(١) القدير ماطبخ فى قدر .

العربية. ذلك أن الضعف الذى بدأ فى قلب المملكة العربية نجم عنه استقلال بعض الحكام بشئونهم، وظهور دول جديدة فى أطراف المملكة الاسلامية، وقد سارت الحركة العلمية تبعا لذلك وامتد نشاطها . فبعد أن كانت محصورة فى البصرة والكوفة ثم فى بغداد ، اتسع ميدانها واتخذت لها أوطانا جديدة فى فارس والعراق العجمى وغيرهما ، وأخذ حكام هذه الأوطان الجديدة يضعون لنفوذهم أساسا من العلم وتنشيط العلماء ، فظهر كثير من العلماء الأعـــلام .

ثم جاء الانقلاب الجارف حين أغار التتار على بغداد وطمسوا معالم الذخائر العلمية ووطئوها بأقدامهم وبحوافر خيولهم . وحينئذ هجر العلماء مواطنهم العلمية وولوا وجوههم شطر العواصم الأخرى ،فوجدوا فى مصر والشام موئلا ، ومن السلاطين المماليك عضدا، كما سترى .

(نحاة بغداد)

وإنا نورد فيما يلى تعريفا بأشهر النحاة فى هذه الأصقاع :

(ابن خالويه)

هو الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذانى إمام اللغة والعربية وغيرهما من العلوم الأدبية . دخل بغداد طالبا للعلم سنة ٣١٤ هـ ثم سكن حلب واختص بسيف الدولة وأولاده . وله مع المتنبى مباحث ومجالس عند سيف الدولة.

وله من التصانيف : الجمل فى النحو ـ الاشتقاق ـ القراءات ـ إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ـ المقصور والممدود ـ الألفات ـ المذكر والمؤنث ـ كتاب ليس فى كلام العرب .

توفى بحلب سنة ٣٧٠ هـ

(أبو على الفارسى)

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار . واحد زمانه فى علم العربية ، علت

منزلته فى النحو حتى فضله بعضهم على المبرد . أخذ عن الزجاج وابن السراج، وبرع من طلبته عدد كبير كابن جنى والربعى، وقد أقام مدة بحلب عند سيف الدولة . وجرت بينه وبين المتنبى مجالس ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة(١). وصنف له كتاب الايضاح فى النحو والتكملة فى التصريف. وله كتب أخرى منها : كتاب الحجة فى علل القراءات السبع، وكتاب المقصور والممدود وغير ذلك . وكان عضد الدولة يقول : أنا غلام أبى على الفارسى فى النحو وغلام أبى الحسن الصوفى فى النجوم .

توفى ببغداد سنة ٣٧٧ ﻫ

(ابن جنى)

هو أبو الفتح عثمان . وكان أبوه « جنى » مملوكا روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى الموصلى . كان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف لم يصنف أحد فى التصريف أحسن ولا أدق منه .

قرأ الأدب على أبى على الفارسى ، وفارقه، وقعد للاقراء بالموصل ؛ فاجتاز بها شيخه أبو على فرآه فى حلقته والناس حوله يشتغلون عليه فقال : تزببت وأنت حصرم . فترك حلقته وتبعه ولازمه حتى برع . وقد خلفه ودرس النحو بعده فى بغداد .

وله المصنفات المفيدة ، منها : كتاب الخصائص. وسر الصناعة. والمصنف فى شرح تصريف أبى عثمان المازنى . والتلقين فى النحو . والمذكر والمؤنث والمقصور والممدود . والتمام فى شرح شعر الهذليين . والمقتضب فى معتل العين . وشرح ديوان المتنبى ، وكان قد قرأ الديوان على صاحبه . وسأل شخص أبا الطيب المتنبى عن قوله :

بادهواك صبرت أم لم تصبرا

---

(١) هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة بن بويه . كان من أعظم ملوك بنى بويه وكان فاضلا محبا للفضلاء مشاركا فى عدة فنون .

فقال : كيف أثبت الألف فى (تصبرا) مع وجود لم الجازمة ؟

فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح هنا لأجابك

وهذه الألف هى بدل من نون التوكيد الخفيفة ، فانها فى الوقف تبدل ألفا .

ولد ابن جنى بالموصل وتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ ﻫ

(الربعى) (١)

هو أبو الحسن على بن عيسى البغدادى المنزل الشيرازى الأصل . كان عالما إماما فى النحو متقنا له . شرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى فأجاد فيه ، واشتغل فى بغداد على السيرافى ، ثم خرج إلى شيراز فقرأ على أبى على عشرين سنة ثم رجع إلى بغداد .

وقال أبو على . قولوا لعلى البغدادى لو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك . وقال أبو على أيضا لما أتم الربعى الدراسة عليه: ما بقى له شيء يحتاج أن يسأل عنه . وله عدة تآليف فى النحو منها : شرح مختصر الجرمى . ولد سنة ٣٢٨ وتوفى سنة ٤٢٠ ببغداد .

(الثمانينى) (٢)

هو أبو القاسم عمر بن ثابت . كان عارفا بقوانين النحو . شرح كتاب اللمع فى التصريف لابن جنى شرحا حسنا أجاد فيه . وكان هو وأبو القاسم ابن برهان متعارضين يقرئان الناس بالكرخ ببغداد، فكان خواص الناس يقرءون على ابن برهان والعوام يقرءون على الثمانينى .

توفى سنة ٤٤٢ .

---

(١) نسبة إلى ربيعة

(٢) الثمانينى نسبة إلى ثمانين وهى بلدة عند جبل الجودى قرب جزيرة ابن التغلبى بالموصل فى الجانب الشرقى فى نهر دجلة وقال ياقوت فى معجم البلدان : كان أول من نزل بها نوح عليه السلام لما خرج من السفينة ومعه ثمانون إنسانا فبنوا لهم مساكن بهذا الموضع وأقاموا به فسمى الموضع بهم

(التبريزى)

هو أبو زكريا يحيى بن على أحد أئمة اللغة، كانت له معرفة تامة بالأدب والنحو واللغة. صنف كتبا كثيرة ، منها شرح ديوان الحماسة ، وشرح ديوان المتنبي ، وشرح سقط الزند لأبى العلاء ، وشرح المعلقات السبع . وشرح المفضليات. وله تهذيب إصلاح المنطق. درس بالمدرسة النظامية ببغداد. وكان قد دخل مصر فى عنفوان شبابه ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى أن مات سنة ٥٠٢ هـ .

(الزمخشرى)

هو محمود بن عمر . كان إمام عصره، وكان نحويا فاضلا وله كتب كثيرة منها : تفسير الكشاف ، وكتاب المفصل فى النحو ، وكان يزعم أنه ليس فى كتاب سيبويه مسألة إلا وقد تضمنها هذا الكتاب . وكان معتزلى الاعتقاد .

توفى سنة ٥٣٨

(المطرزى)

هو أبو الفتح ناصر بن أبى المكارم ولد بخوارزم ، كان معتزلى الاعتقاد وكانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب . وله عدة تصانيف نافعة منها : شرح المقامات للحريرى . دخل بغداد سنة ٦٠١ وتوفى بخوارزم سنة ٦١٠ .

(ابن الشجرى)

هو أبو السعادات هبة الله بن على . كان أوحد زمانه فى علم العربية ومعرفة اللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها . قرأ على الخطيب التبريزى وغيره . وله مؤلفات عدة منها : كتاب الامالى وهو أكبر تآليفه وأكثرها إفادة ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وشرح اللمع لابن جنى ، وشرح التصريف الملوكى .

توفى سنة ٥٤٢ ه ودفن فى داره بالكرخ ببغداد .

(ابن الخشاب)

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادى . كان عالما فى الأدب والنحو والتفسير والحديث وفى علوم أخرى . شرح كتاب الجمل لعبد القاهر الجرجانى وسماه المرتجل فى شرح الجمل . وشرح اللمع لابن جنى ولم يكملها.

توفى ببغداد سنة ٥٦٧

(ابن الانبارى)

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله أبو البركات . كان إماما ثقة غزير العلم . قدم بغداد فى صباه، وحصل طرفا صالحا من الخلاف بين النحاة، وصار معيدا للنظامية . وقرأ الأدب على أبى منصور الجواليقى ، ولازم ابن الشجرى حتى برع فى النحو، ودخل الاندلس .

وله مؤلفات مشهورة منها : الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين . والاغراب فى جدل الاعراب . وميزان العربية . والاضداد . والنوادر . واللباب . وكتاب كلا وكلتا . وكتاب كيف . وكتاب أسرار العربية . وكتب أخرى كثيرة .

توفى سنة ٥٧٧

(ابن الدهان)

هو أبو محمد سعيد بن المبارك البغدادى . كان سيبويه عصره . وله فى النحو التصانيف المفيدة ، منها : شرح الايضاح والتكملة والفصول الكبرى والفصول الصغرى ، وشرح كتاب اللمع لابن جنى وسماه الغرة . والعقود فى المقصور والممدود . وغير ذلك .

وكان فى زمنه فى بغداد من النحاة مثل ابن الجواليقى وابن الخشاب وابن الشجرى ، وكان الناس يرجعونه عليهم مع أن كل واحد منهم إمام .

ثم إنه ترك بغداد وانتقل إلى الموصل قاصدا الوزير جمال الدين الاصبهانى فتلقاه بالاقبال وأحسن إليه .

توفى سنة ٥٦٩ ه

(ابن الخباز)

هو أحمد بن الحسين الاربلى الموصلى . كان أستاذا بارعا . وكان علامة زمانه فى النحو واللغة والفقه والعروض والفرائض . وله مصنفات مفيدة منها : النهاية فى النحو . وشرح ألفية ابن معط . توفى سنة ٦٣٧

عِلم النَحو فى الأندلس وَالمغرب

فتح العرب بلاد الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٣ ه. وقد تولى الأمراء الحكم فيها باسم الخلفاء الأمويين. ولما جاء العباسيون اضطهدوا الأمويين وتعقبوهم . ففر منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى بلاد المغرب ، ثم عبر إلى الأندلس وأنشأ هذه الدولة العربية التى ازدهرت وسطع نجمها حينا من الدهر . ولما تولى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر سنة ٣١٧ ه سمى نفسه خليفة .

وكانت الحركة العلمية العربية فى نشاط واكتمال فى عهد العباسيين ، وكانت بغداد ، كما أشرنا ، مبعثا للثقافه ومهبطا للعلماء والباحثين ، وكان لعلوم النحو واللغة من ذلك نصيب عظيم .

ومن مظاهر الحضارة العربية فى تلك العصور أن كان العلم من أقوى دعائمها . فسار العرب فى الأندلس على هذا النهج وولوا وجوههم شطر الدولة العربية فى المشرق ينهلون من علمها وثقافتها، ويتلقون على علمائها ويقتبسون من الأئمة . وكانت الرحلة العلمية بين المشرق والمغرب ناشطة ، وبذلك

ازدهرت الحركة العلمية فى الأندلس فى كنف الأمويين وملوك الطوائف، وكانت دور العلم حافلة عامرة .

ثم هبت نفحات هذا النشاط العلمى على بلاد المغرب ، فظهر فيها علماء أجلاء ضارعوا علماء المشرق، وعنوا أكثر ما عنوا بالعلوم الشرعية وبالعلوم اللغوية وبالقراءات وبالنحو ، وقد نزح كثير منهم إلى المشرق وقاموا بالتدريس فى مساجده ومدارسه .

ولنحاة الأندلس والمغرب جهود محمودة وآثار لها قيمتها فى اللغة ، وإنا نشير إلى البارزين منهم ، وإلى من رحل منهم إلى المشرق .

(الزبيدى أبو بكر محمد بن الحسن الاشبيلى نزيل قرطبة) :

كان أوحد عصره فى علم النحو وحفظ اللغة ، أخذ العربية عن أبى على القالى . وله كتب تدل على وفور علمه ، منها مختصر العين، وطبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس ، وكتاب لحن العامة ، وكتاب الواضح فى العربية ، وكتاب الابنية فى النحو. وقد اختاره الحكم المستنصر بالله صاحب الأندلس لتأديب ولده وولى عهده هشام المؤيد بالله .

والزبيدى نسبه إلى زبيد بن صعب بن سعد العشيرة رهط عمرو بن معد يكرب .

توفى سنة ٣٧٩ هـ .

(أبو بكر خطاب بن يوسف القرطبى)

كان من خيرة النحاة ومحققيهم والمتقدمين فى المعرفة بعلوم اللسان ، تصدر لاقراء العربية طويلا .وصنف فيها واختصر الزاهر لابن الانبارى.

توفى سنة ٤٥ هـ .

(الأعلم)

هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان من أهل شنتمرية الغرب . رحل

إلى قرطبة سنة ٤٦٣ وأقام بها مدة . وكان عالما بالعربية ومعانى الأشعار . أخذ الناس عنه الكثير ، وكانت الرحلة فى وقته إليه . شرح الجمل فى النحو لأبى القاسم الزجاجى ، وشرح أبيات الجمل فى كتاب مفرد . وإنما قيل له الأعلم لأنه مشقوق الشفة العليا .

توفى بمدينة اشبيلية سنة ٤٧٦ .

(ابن القطاع) :

هو أبو القاسم على بن جعفر الصقلى المولد المصرى الدار والوفاة .كان أحد أئمة الأدب واللغة . أقام بالقاهرة يعلم ولد الأفضل بن أمير الجيوش وله تصانيف نافعة ، منها : كتاب الأفعال ، وكتاب أبنية الأسماء ، وكتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة ، وكتاب لمح الملح جمع فيه كثيرا من شعراء الأندلس .

توفى سنة ٥١٥ ودفن بقرب ضريح الامام الشافعى بالقاهرة .

(الشاطبى) :

هو أبو محمد القاسم بن فيرة (١) الضرير المقرى صاحب القصيدة التى سماها «حرز الأمانى ووجه التهانى» فى القراءات . وكان أوحد زمانه فى علم النحو والفقه . دخل مصر سنة ٥٧٢ ، وكان نزيل القاضى الفاضل ، ورتبه بمدرسته بالقاهرة متصدراً لإقراء القرآن الكريم وقراءته والنحو واللغة. توفى سنة ٥٩٠ ودفن فى تربة القاضى الفاضل بالقرافة الصغرى بالقاهرة .

(ابن خروف) :

هو أبو الحسن على بن محمد الأندلسى الأشبيلى . كان فاضلا فى علم العربية وله فيها مصنفات شهدت بفضله . شرح كتاب سيبويه شرحا جيدا ، وشرح أيضا كتاب الجمل للزجاجى . أقرأ النحو بعدة بلاد وأقام بحلب .

توفى سنة ٦١٠ .

---

(١) فيرة اسم أعجمى معناه الحديد

(الشلوبين) :

هو أبو على عمر بن محمد الأندلسى الأشبيلى . كان إماما فى علم النحو ، وقلما تأدب بالأندلس أحد من أهل وقته إلا وقد قرأ عليه واستند ولو بواسطة إليه. صنف تعليقا على كتاب سيبويه، وشرحين على المقدمة الجزولية، وله كتاب فى النحو سماه التوطئة ، وكانت إقامته فى أشبيليه .

والشلوبين بلغة الأندلس الأبيض الأشقر .

توفى سنة ٦٤٥ .

(ابن عصفور):

هو على بن مؤمن الحضرمى الاشبيلى، حامل لواء العربية فى زمانه بالاندلس. أخذ عن الشلوبين ولازمه مدة . جال بالأندلس وأقبل عليه الطلبة، ولم يكن عنده مايؤخذ عنه غير النحو .

صنف « الممتع » فى التصريف ، وشرح الجزولية ، وثلاثة شروح على الجمل وغير ذلك . توفى سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٩ .

(أبو حيان) :

هو محمد بن يوسف بن على الاندلسى الغرناطى ، نحوى عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه . كان ثبتا عارفا باللغة ، أما النحو والتصريف فهو الامام فيهما ، وكان لايقرىء أحداً إلا فى كتاب سيبويه أو التسهيل أو مصنفاته .

ومن مؤلفاته البحر المحيط فى التفسير والتذييل والتكميل فى شرح التسهيل مطول ، والارتشاف مختصره . قال السيوطى : ولم يؤلف فى العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال. وعليهما اعتمدت فى كتابى جمع الجوامع . وله مؤلفات أخرى كثيرة .

توفى سنة ٧٤٥ .

* * *

ومن رحلوا إلى المشرق من الأندلس :

(جودى بن عثمان الطليطلى) :

كان نحويا عارفا ، درس العربية وأدب بها أولاد الخلفاء . رحل إلى المشرق فلقى الكسائى والفراء وغيرهما : وسكن قرطبة بعد قدومه من المشرق .

توفى سنة ١٩٨ .

(الغازى بن قيس) :

كان ملتزما للتأديب بقرطبة أيام دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وهو أول من أدخله الأندلس ، وأدرك نافع بن نعيم أحد القراء السبعة وقرأ عليه، وأدرك من رجال اللغة الأصمعى . توفى سنة ١٩٩

(عبد الله بن سوار بن طارق القرطبى) :

كان من أهل العلم باللغة متفننا فى علم الأدب ، وله رحلة إلى المشرق سمع فيها من الحسن بن عرفة ، ولقى أبا حاتم السجستانى والرياشى وغيرهما.

توفى سنة ٢٧٥ .

(محمد بن عبد السلام بن ثعلبة الخشبى) :

من أهل قرطبة. رحل فحج ودخل البصرة ، ولقى بها أبا حاتم والرياشى وأبا إسحق الزيادى فأخذ عنهم كثيرا من كتب اللغة ، ودخل بغداد فسمع بها عن غير واحد ، وأدخل فى الأندلس كثيراً من حديث الأئمة ، وكثيراً من كتب اللغة . توفى سنة ١٨٦ .

(محمد بن عبد الله بن الغازى بن قيس القرطبى) :

سمع من أبيه ورحل إلى المشرق فدخل البصرة ولقي بها أباهاشم والرياشى

وجماعة من أهل الحديث ورواة الأخبار والاشعار وأصحاب اللغة ، وأدخل فى الأندلس علما كثيرا من الشعر والعربية ، وعنه أخذ أهل الأندلس الاشعار المشروحة . توفى بطنجة سنة ٢٩٦ .

(محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد المعروف بالأفشين) :

رحل إلى المشرق فلقى بمصر أبا جعفر الدينورى وأخذ عنه كتاب سيبويه وله كتب مؤلفة منها طبقات الكتاب وشواهد الحكم . توفى سنة ٣٠٩ .

(منذر بن سعيد القاضى) .

كان مفتنا فى ضروب العلم ، وكانت له رحلة لقى فيها جماعة من العلماء باللغة والفقه ، وجلب كتاب الأشراف فى اختلاف العلماء رواية عن مؤلفه محمد بن المنذر ، وكتاب العين رواية عن أبى العباس ولاد توفى سنة ٣٤٩ .

(محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى المعروف بالرباحى)

أصله من جيان ، وكان إماما فى العربية جيد النظر دقيق الاستنباط حاذقا بالقياس ، أخذ عن ابن الأعرابى وابن ولاد ، ولقى أبا جعفر النحاس فحمل عنه كتاب سيبويه رواية . واستأدبه الناصر لدين الله ، ثم صار بعد ذلك فى خدمة المستنصر بالله ، توفى سنة ٣٥٣ .

(ابن معطى)

هو يحيى بن معطى بن عبد النور أبو الحسين زين الدين الزواوى (١) المغربى كان إماما مبرزا فى العربية، شاعرا محسنا ، قرأ على الجزولى ، وأقرأ النحو بدمشق مدة ثم إن الملك الكامل أرغبه فى الانتقال إلى مصر فسافر إليها وتصدر بالجامع العتيق (٢) ومن مصنفاته الألفية فى النحو (٣) وكتاب

---

(١) الزواوى نسبة إلى زواوة ، وهى قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال افريقية

(٢) هو جامع عمرو بن العاص

(٣) وهى التى أشار إليها ابن مالك فى ألفيته الخلاصة بقوله : (فائقة ألفية ابن معطى)

شرح الجمل ، وكتاب شرح أبيات سيبويه ، وله قصيدة فى القراءات السبع، ونظم كتاب الصحاح للجوهرى فى اللغة ولم يكمل . ونظم كتاب الجمهرة لابن دريد فى اللغة .

توفى سنة ٦٢٨ ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعى .

(ابن مالك)

هو محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين الطائى الجيانى(١) نزيل دمشق إمام النحاة وحافظ اللغة . صرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية . كان إماما فى القراءات وعللها . وكان فى النحو والتصريف عالما لايجارى . أقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل وتصدر للتدريس .

ومن مؤلفاته : الألفية المسماة الخلاصة، وهى مشهورة . لامية الأفعال، الكافية الشافية، وهى أرجوزة فى النحو لخص منها الفيته . ثم شرحها وسمى الشرح الوافية ، وتسهيل الفوائد . توفى سنة ٦٧٢ هـ

* * *

ثم دالت دولة العرب فى الأندلس واستولى الأفرنج على غرناطة آخر حواضر الأندلس سنة ٧٩٨ هـ فرحل العلماء إلى مصر والشام كما رحل من قبلهم علماء العراق بعد إغارة التتار .

وقد استحدث الأندلسيون والمغاربة فى النحو مذهبا رابعا إلى جانب مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين، ودعامة هذا المذهب هذه الآراء النحوية التى أبداها علماؤهم فى بعض المسائل . وقد أشير اليها فى كتب النحو فى المباحث التى ترتبط بها . وإنا نورد أمثلة من ذلك :

(أمثلة من مذهب الأندلسيين والمغاربة):

(١) إعمال (ان) المخففة المفتوحة (٢) :

تخفف « ان » المفتوحة ، وفى إعمالها حينئذ : مذاهب (أحدها) أنها لاتعمل شيئا لافى ظاهر ولافى مضمر، وتكون حرفا مصدريا مهملا كسائر

---

(١) نسبة إلى (جيان) بالفتح والتشديد وهى مدينة لها كورة واسعة بالاندلس شرقى قرطبة

(٢) همع الهوامع حـ ١ ص ١٤٢

الحروف المصدرية ، وعليه سيبويه والكوفيون . (والثانى) أنها تعمل فى المضمر وفى الظاهر ، نحو علمت أن زيدا قائم، وقرىء قوله تعالى (والخامسة أن غضب الله عليها) بتخفيف «ان» ونصب ما بعدها . وعليه طائفة من المغاربة . (الثالث) أنها تعمل جوازا فى مضمر لا فى ظاهر وعليه الجمهور .

(٢) (تمييز المقدار) (١)

إذا كان المقدار مخلطا من جنسين ، فقال الفراء لايجوز عطف أحدهما على الآخر ، بل تقول عندى رطل سمنا عسلا ، إذا أردت أن عندك من السمن والعسل مقدار رطل. لأن تفسير الرطل ليس للسمن وحده ولا للعسل وحده ، وإنما هو بمجموعهما فجعل سمنا عسلا اسما للمجموع ، على حد قولهم هذا حلو حامض . وذهب غيره إلى العطف بالواو، لأن الواو تصير ماقبلها وما بعدها بمنزلة شىء واحد . وقال بعض المغاربة : الأمران سائغان العطف وتركه .

(٣) (تعدد الخبر لمبتدأ واحد (٢)) .

اختلف فى جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد على أقوال : «أحدها» وهو الأصح وعليه الجمهور ، الجواز ، كما فى النعوت، سواء اقترن بعاطف كقولك زيد فقيه وشاعر وكاتب ، أم لم يقترن كقوله تعالى «وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد» . (والثانى) المنع ، واختاره ابن عصفور وكثير من المغاربة ، وعلى هذا فما ورد من ذلك جعل فيه الأول خبرا والباقى صفة للخبر . ومنهم من يجعله خبر مبتدأ مقدر . (الثالث) الجواز إن اتحدا فى الإفراد والجملة . فالأول كما تقدم والثانى نحو زيد أبوه قائم أخوه خارج ، والمنع إن كان أحدهما مفردا والآخر جملة . (الرابع) قصر الجواز على ما كان المعنى فيه واحدا نحو الرمان حلو حامض أى مز ، وزيد أعسر أيسر أى أضبط وهو الذى يعمل بكلتا يديه . وهذا النوع يتعين فيه ترك العطف، وجوز أبو على استعماله بالعطف كغيره من الأخبار المفردة .

---

(١) الهمع ج ١ ص ٢٥٠ (٢) الهمع ج ١ ص ١٠٨

٤ – (جزم المضارع فى جواب الأمر [١]) .

يجوز فى المضارع الجزم بعد الأمر الصريح أو المدلول عليه بخبر ، نحو اتق الله امرؤ فعل الخير يثب عليه ، أى ليتق ، أو اسم فعل نحو حسبك الحديث ينم الناس . لأن معناه اكتف ينم الناس ، ونزال أكرمك ، وعليك زيدا يحسن إليك .

قال أبو حيان : وقال بعض أصحابنا (المغاربة) الفعل الخبرى لفظا الأمرى معنى لا ينقاس ، إنما هو موقوف على السماع ، والمسموع اتق الله امرؤ فعل خيرا يثب عليه .

٥ – (جازم الفعل المضارع فى جواب الطلب) .

اختلف فى جازم الفعل حينئذ :

فقيل أن لفظ الطاب ضمن معنى الشرط فجزم .

وقيل أن الأمر والنهى وباقيها نابت عن الشرط أى حذفت جملة الشرط وأنيبت هذه فى العمل منابها فجزمت . وهو مذهب الفارسى والسيرافى وابن عصفور .

وقيل الجزم بشرط مقدر دل عليه الطلب ، وإليه ذهب أكثر المتأخرين .

وقيل الجزم بلا مقدرة .

وهـذا الخلاف الذى لا فائدة منه راجع إلى تشبث النحاة بالعامل وتقديره (٢) .

٦ (الوصف بإلا (٣)) .

الأصل فى (إلا) أن تكون للاستثناء وفى (غير) أن تكون وصفا .

---

(١) الهمع حـ ٢ ص ١٤

(٢ الاشمونى حـ ٣ ص ٢٣٢

(٣) الهمع حـ ١ ص ٢٢٩

ثم قد تحمل إحداهما على الأخرى فيوصف بالا ويستثنى بغير ، والمفهوم من كلام الأكثرين أن المراد الوصف الصناعى . وقال بعضهم : قول النحويين إنه يوصف بالا ، يعنون بذلك أنه عطف بيان .

وشرط الموصوف بها أن يكون جمعا منكرا ، نحو جاءنى رجال قرشيون إلا زيد . ومنه قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، أو مشبه الجمع نحو ما جاءنى أحد إلا زيد .

وجوز سيبويه أن يوصف بها كل نكرة ولو مفرداً ، ومثل بلو كان معنا رجل إلا زيد . وجوز بعض المغاربة أن يوصف بها كل ظاهر ومضمر ونكرة ومعرفة ، وقال إن الوصف بها يخالف سائر الأوصاف .

٧ — (تمييز « كم » الاستفهامية (١)) .

مميز « كم » الاستفهامية مفرد منصوب كمميز عشرين واخواته . وأجاز الكوفيون كونه جمعا مطلقا ، كما يجوز ذلك فى كم الخبرية ، نحو كم غلمانا لك ، ورد بأنه لم يسمع ، وأجازه الأخفش إذا أردت بالجمع أصنافا من الغلمان ، تريد كم عندك من هذه الأصناف .

واختاره بعض المغاربة فقال : كم الاستفهامية لا تفسر بالجمع ، إنما هو بشرط أن يكون السؤال بها عن عدد الأشخاص ، وأما إن كان السؤال عن الجماعات فيسوغ تمييزها بالجمع ، لأنه إذ ذاك بمنزلة المفرد ، وذلك نحو : كم رجالا عندك ، تريد كم جمعا من الرجال ، إذا أردت أن تسأل عن عدد أصناف القوم الذين عنده ، لا عن مبلغ أشخاصهم ، ويسوغ باسم الجنس نحو كم بطا عندك . تريد كم صنفا من البط عندك .

٨ - (إن النافية) .

أجاز أعمالها عمل « ليس » الكسائى وأكثر الكوفيين وابن السراج والفارسى وابن جنى وابن مالك .

---

(١) الهمع ج ١ ص ٢٥٤

ومنع أعمالها أكثر البصريين والمغاربة (١).

٩ - (عطف البيان):

عطف البيان يوضح متبوعه إن كان معرفة ويخصصه إن كان نكرة. والأول وهو إيضاح المعرفة متفق عليه. والثانى وهو تخصيص النكرة نفاه جمهور البصريين، وأثبته الكوفيون وجماعة من البصريين منهم الفارسى وابن جنى وجماعة من المتأخرين منهم الزمخشرى وابن عصفور وابن مالك، وجوزوا أن يكون منه قوله تعالى: (أو كفارة طعام مساكين) فيمن نون كفارة. فطعام مساكين عطف بيان على كفارة (٢).

١٠ - (أصل مهما).

أصل مهما «ماما» الأولى شرطية والثانية زائدة. فثقل اجتماعهما فابدلت الألف الأولى هاء. هذا مذهب البصريين.

ومذهب الكوفيين أن أصلها «مه» بمعنى اكفف زيدت عليها «ما» فحدث بالتركيب معنى لم يكن وهو الشرط.

وقيل أنها بسيطة وهو المختار، قاله أبو حيان، لأنه لم يقم على التركيب دليل (٣)

* * *

علم النحو فى مصر والشام

فتح العرب هذين القطرين فى أيام الخلفاء الراشدين، وكانا قبل الفتح الإسلامى تابعين لدولة الروم. وقد فتح الشام فى أواخر خلافة أبى بكر، وفتحت مصر فى خلافة عمر بن الخطاب.

---

(١) همع الهوامع جـ ١ ص ١٢٤

(٢) شرح التصريح جـ ٢ ص ١٣٠ وشرح الاشمونى جـ ٣ ص ٦٤

(٣) الاشمونى جـ ٤ ص ٨

وليست العروبة قديمة فى هذين القطرين . أما بلاد الشام فقد كان أهلها من الفرع الآرامى من الساميين . وأما مصر فكان أهلها من الأقباط يخالطهم بعض من اليونان والرومان وغيرهم . وقد امتزجت بالقطرين أجناس مختلفة ، ثم كان للعرب فيهما شأن ، فانتشرت اللغة العربية وتبعتها الثقافة الإسلامية .

وقد تجلى نشاط الثقافة العربية فى عهد دولتين عربيتين ، وهما الدولة الحمدانية فى الشام ، والدولة الفاطمية فى مصر . وكانت النخوة العربية وشهامة العروبة واعتزازها لا تزال تنبض بها عروق هاتين الدولتين ، وكان للغة والأدب فى أيامهما مكانة ، وللعلماء احترام وإعزاز :

١) ففى الدولة الحمدانية كان سيف الدولة مركزا لحلبة ثقافية ، وحافزا ومنشطا للعلماء والأدباء ، وحسبنا ما سجله التاريخ من صلات هذا الأمير العربى بكبار الشعراء كالمتنبى ، وكذلك تقريبه لعلماء اللغة كابن خالويه وأبى على الفارسى .

٢) وكان للفاطميين نشاط فى شتى النواحى ، فكانت مواسمهم مبعث الازدهار ، وحفلاتهم مظهرا للأبهة . وقد أطلق ذلك ألسنة الشعراء والأدباء بأفانين من الأدب ، وكان لهم بالعلم عناية عظيمة .

وقد حذت حذو هاتين الدولتين الدولة الأيوبية . فهى على أنها دولة كردية ، قد شجعت العلم والعلماء ، على الرغم مما بدا منها من العمل على محو الآثار العلمية والأدبية للفاطميين ، وهم من الشيعة والأيوبيون سنيون .

* * *

وبعد سقوط بغداد وضعف شأن العرب فى الأندلس ، كان القطران مصر والشام ملجأ للعلماء من سائر الأقطار الإسلامية ، فكانوا حملة الثروة العلمية العربية ، والحافظين للبقية الباقية من تراث الإسلام .

وكان السلاطين المماليك من خير الأعوان على إحياء الثقافة العربية

والإسلامية ، بما أسسوا من مدارس، وبما أحسنوا من صنيع فى تشجيع العلماء وتعظيم رجال الدين . وقد أصبحت القاهرة موئل الحضارة الإسلامية وكعبة القاصدين وموطن الدرس والبحث ، وصارت المدارس تزخر بالطلاب وبالعلماء والمعلمين ، ونشط التأليف فى اللغة والأدب والتاريخ والدين وعلوم القرآن .

وفى عهد الأتراك العثمانيين كاد مصباح الثقافة ينطفىء وشمل الأقطار التى كانت تحت حكمهم فتور عقلى وهبوط علمى ، اللهم إلا بصيص من أمل وشعاع من علم كان لا يزال ينير قلوب طائفة من العلماء ، وأثارة من هذا التراث العربى ، وبقية من ذلك المجد العلمى العتيد .

هذه البقية الباقية كانت كالبذور التى منها نبتت النهضة العربية الحديثة فى مصر والشام وفى سائر الأقطار العربية .

* * *

والذى نريد أن نشير إليه هنا هو ما كان للقواعد النحوية من نصيب فى هذين القطرين :

ففى مستهل الحياة العربية فيهما كان عدد النحاة قليلا . وذلك لأن نشاط علوم اللغة كان فى مراكز العروبة وفى منابع الثقافة العربية ، فى العراق وفى بلاد الأندلس ، ثم فى فارس وما جاورها ، وقد نضجت هذه العلوم وتم وضع أصولها ومعظم فروعها قبل أن ينتهى القرن الثالث الهجرى ، فلم يكن للأمصار العربية الأخرى فى أطراف المملكة الإسلامية إلا أن يتجهوا إلى العراق ينهلون من علمه ، ويأخذون عن علمائه ، ويتلقون ما دونه الباحثون الأولون ومن تبعهم ، وأن يفسحوا المجال لمن رحل إليهم من العلماء من مهد العروبة فى بغداد وقرطبة ، رغبة فى الرحيل ، أو فرارا من وجه المغيرين والمطاردين .

ولكنا نلاحظ أن المشتغلين بالنحو فى هذين القطرين قد كثروا بعد أن ضعفت شوكة العرب فى بغداد وقرطبة . فقد ازداد نشاط العلماء والباحثين والمؤلفين فى فروع اللغة العربية وسائر أنواع الثقافة الإسلامية ، ولاسيما فى الحقبة التى تلت سقوط بغداد فى أيدى التتار . ففى هذه الفترة نجد عددا عظيما من العلماء قد نشطوا ودونوا فى علوم اللغة كتبا كثيرة . وإن من يطلع على الكتب التى تضمنت تراجم النحاة مثل كتاب بغية الوعاة للسيوطى ، والكتب التى احتوت على أسماء الكتب والفنون مثل كتاب كشف الظنون ، يجد من المؤلفين ومن الكتب فى مصر والشام وفى غيرهما عدداً كبيراً ولا سيما الكتب النحوية .

ولعل الباعث على هذا النشاط هو شعور العلماء بما أصاب المكتبة العربية من ضياع وتلف ، بسبب إغارة التتار وتشريد المشتغلين بالبحث والدرس فأرادوا أن يعوضوا هذا النقص ، وأن يقيموا من جديد بناء الثقافة العربية على البقية الباقية من ذخائر المتقدمين مما لم تلتهمه نيران المغيرين ، فعكفوا على التأليف والجمع والشرح فأثمرت جهودهم وكان فضلهم على العلوم العربية عظيما .

وسنورد تعريفا موجزا بأشهر النحاة فى مصر والشام :

(نحاة مصر والشام)

(أحمد بن جعفر الدينورى) :

وهو أحد النحاة المبرزين . قرأ كتاب سيبويه على المبرد وأخذ عن المازنى ، ودخل مصر ، وصنف كتاب المهذب فى النحو وكتب فى صدره اختلاف البصريين والكوفيين ، وعزا كل مسألة إلى صاحبها .

توفى سنة ٢٨٩ .

(الوليد بن محمد التميمى المشهور بولاد) :

كان نحويا مجودا وأصله من البصرة ونشأ بمصر ورحل إلى الخليل بن احمد

فلقيه بالبصرة وسمع منه ولازمه . ولم يكن بمصر شيء كثير من كتب النحو قبله . توفى سنة ٢٦٣ .

(محمد بن ولاد) :

أخذ بمصر عن أبي على الدينورى ثم رحل إلى العراق وأخذ عن المبرد وثعلب ثم عاد إلى مصر يعلم الناس . توفى سنة ٢٩٨ .

(أحمد بن محمد بن ولاد) :

وهو ابن محمد السابق كان بصيرا بالنحو ، ورحل إلى بغداد من وطنه مصر ، ولقى ابرهيم الزجاج وغيره، ثم عاد إلى مصر وألف كتابه « المقصور والممدود » . وكان شيخه الزجاج يفضله على أبي جعفر النحاس ، ولايزال يثنى عليه عند كل من قدم من مصر إلى بغداد . توفى سنة ٣٣٢ .

(أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس) :

من أهل مصر ، رحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد والأخفش على بن سليمان ونفطويه والزجاج وغيرهم ، ثم عاد إلى مصر فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٣٧ وكان من الفضلاء وله تصانيف مفيدة، منها : تفسير القرآن الكريم، وكتاب إعراب القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب فى النحو اسمه التفاحة ، وكتاب فى الاشتقاق ، وتفسير أبيات سيبويه ، وكتاب أدب الكتاب ، وكتاب الكافى فى النحو، وكتاب المعانى، وشرح المعلقات السبع، وكتاب طبقات الشعراء ، وغير ذلك .

(محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى) :

ويلقب سيبويه ، كان عارفا بالنحو والمعانى والقراءة والغريب وعلوم الحديث والرواية ، واعتنى بالنحو والغريب . توفى بمصر سنة ٣٥٨ .

(طاهر بن أحمد بن بابشاذ(١)) :

كان بمصر إمام عصره فى علم النحو، وله تصانيف مفيدة. وكانت وظيفته بمصر أن ديوان الإنشاء لايخرج منه كتاب حتى يعرض عليه ويتأمله .

---

(١) بابشاذ كلمة أعجمية تتضمن الفرح والسرور .

مات بمصر سنة ٤٦٩ ودفن فى القرافة الكبرى

(أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المصرى المقدسى الأصل) :

كان إماما فى علم النحو واللغة والرواية، واسع العلم عظيم الاطلاع، وكان عارفا بكتاب سيبويه وعلله ، وكانت وظيفته فى ديوان الإنشاء كوظيفة ابن بابشاذ ، لايصدر عن الدولة كتاب إلا بعد أن يتصفحه ويصلح مافيه .

توفى بمصر سنة ٥٨٢ .

(ابن يعيش) :

هو يعيش بن على بن يعيش بن محمد موفق الدين الحلبى . وكان يعرف بابن الصانع . ولد بحلب سنة ٥٥٣ . ثم رحل إلى بغداد ليدرك أبا البركات الأنبارى فبلغه خبر وفاته فى الموصل . كان من كبار أئمة العربية ، ماهرا فى النحو والتصريف. قدم دمشق وجالس زيد ابن الحسن الكندى النحوى، وتصدر بحلب للاقراء زمانا .

وصنف شرح المفصل للزمخشرى وشرح تصريف ابن جنى. مات بحلب سنة ٦٤٣ .

(ابن الحاجب) :

هو أبو عمرو عثمان بن عمر الملقب جمال الدين .ولد باسنا بالصعيد بمصر كان أبوه حاجبا للأمير عز الدين الصلاحى . وكان كرديا ، واشتغل ولده أبو عمرو بالقاهرة فى صغره بالقرآن الكريم ثم بالفقه ثم بالعربية ، وأخذ بعض القراءات عن الشاطبى وسمع منه كتاب التيسير ، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكب الخلق على الاشتغال عليه.ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها والناس ملازمون للاشتغال عليه . ثم انتقل إلى الاسكندرية للاقامة بها فلم تطل مدته هناك . وتوفى سنة ٦٤٦ .

وصنف فى النحو الكافية وشرحها ، ونظمها الوافية وشرحها ، وفى

التصريف الشافية وشرحها ، وشرح المفصل بشرح سماه الايضاح . ومصنفاته غاية فى الحسن . وقد خالف النحاة فى مواضع واورد عليهم إشكالات .

(ابن هشام) :

هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن عبد الله المصرى . كان من كبار علماء اللغة العربية ، وتخرج عليه خلق كثير من أهل مصر وغيرهم ، واشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع والاقتدار على التصرف فى الكلام ، وذاع صيته فى العالم الاسلامى . وذكره ابن خلدون فى مقدمته قال :

« ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل . وحذف ما فى الصناعة من التكرار فى أكثر أبوابها ، وسماه بالمغنى فى الاعراب ، وأشار إلى نكت اعراب القرآن كلها ، وضبطها بابواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ، ووفور بضاعته منها ، وكأنه ينحو فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه ، فأتى من ذلك بشىء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه » .

ولابن هشام أيضا كتاب التوضيح على الألفية، وشذور الذهب، وقطر الندى ، وشرح اللمحة لابى حيان وغير ذلك . توفى سنة ٧٦١ ه .

(ابن عقيل) .

هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله نحوى الديار المصرية ، درس القراءات والفقه والعربية وغير ذلك، كان اماما فى العربية والبيان، ودرس بالجامع الناصرى بالقلعة وبالجامع الطولونى ، وله مؤلفات كثيرة ، ومنها شرحه على الالفية وهو مشهور .

مات بالقاهرة سنة ٧٦٩ ودفن بالقرب من الامام الشافعى .

(ابن الصائغ) .

هو محمد بن عبد الرحمن بن على . برع فى اللغة والنحو والفقه ، ودرس بالجامع الطولونى وغيره، وله من التصانيف شرح الفية ابن مالك ، والوضع الباهر فى رفع أفعل الظاهر . وروض الافهام فى أقسام الاستفهام، وحاشية على المغنى لابن هشام . توفى سنة ٧٧٦ .

(محمد بن يوسف بن احمد بن عبد الدائم الحلبى محب الدين ناظر الجيش).

اشتغل ببلاده ثم قدم القاهرة ولازم بعض العلماء ، ومهر فى العربية وغيرها ثم ولى نظر الجيش . توفى سنة ٧٧٨ .

(شمس الدين الشطنوفى محمد بن ابراهيم) .

قدم القاهرة شابا ومهر فى العربية ،وتصدر بالجامع الطولونى فى القراءات، وفى الحديث فى الشيخونية . توفى سنة ٨٣٢

(الدمامينى) .

هو محمد بن أبى بكر بن عمر الاسكندرى ، تصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو ثم رجع إلى الاسكندرية واستمر يقرىء بها ثم قدم القاهرة، وأخيرا ركب البحر إلى الهند ومات هناك .

وله من التصانيف : تحفة الغريب فى حاشية مغنى اللبيب،وشرح التسهيل وغير ذلك . توفى سنة ٨٣٧ .

(الشمنى) :

هو أحمد بن محمد . كان أمام النحو فى زمانه ، ولد بالاسكندرية وقدم القاهرة وأخذ عن العلماء مختلف العلوم .وقد انتفع به الجم الغفير وتزاحموا عليه وافتخروا بالاخذ عنه . ومن مؤلفاته شرح المغنى لابن هشام وحاشية على الشفاء . توفى سنة ٨٧٢ .

(السيوطى) :

هو عبد الرحمن بن الكمال ابى بكر محمد بن سابق الدين .

ولد سنة ٨٤٩ ودرس العلوم الشرعية والعربية وغيرها ، وقد رحل فى طلب العلم وغيره إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب . وكتب ترجمته بنفسه فى كتابه (حسن المحاضرة) (١) وله مصنفات بلغت من الكثرة حدا عظيما فى شتى العلوم ، ومنها : جمع الجوامع فى النحو مع شرحه المسمى همع الهوامع ، الاقتراح فى أصول النحو، شرح الفية ابن مالك المسمى البهجة المضية فى شرح الالفية ، الفتح القريب على مغنى اللبيب ، شرح شواهد المغنى .

توفى سنة ٩١١ هـ .

(الشيخ حسن العطار (٢)) :

ولد بالقاهرة سنة نيف وثمانين ومائة والف ، ونشأ بها فى حياطة أبيه ، وسمع من أهله أنه مغربى الأصل. جد فى تحصيل العلم على كبار المشايخ كالشيخ الأمير . فلما كان الاضطراب حين دخل الفرنسيون مصر ، فر إلى الصعيد، ثم عاد بعد أن حصل الأمن . واتصل بأناس من الفرنسيين فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية .

وقد رحل إلى الشام وأقام بها زمنا، ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام هناك مدة طويلة وسكن بلداسكوداره (فى البانيا) ثم عاد إلى مصر بعلوم كثيرة.

وقد تولى مشيخة الأزهر ، وله تآليف كثيرة ، منها : حاشية على جمع الجوامع ، وحاشية على الأزهرية فى النحو ، و حاشية على مقولات الشيخ السجاعى ، وحاشية على السمرقندية . توفى سنة ١١٥٠ .

(الشيخ محمد الصبان (٣)) :

---

(١) حـ ١ ص ١٤٠

(٢) الخطط التوفيقية حـ ٤ ص ٣٨

(٣) الخطط التوفيقية حـ ٣ ص ٨٤

ولد بمصر واجتهد فى طلب العلم وتلقى على أشياخ عصره ، وقد برع فى العلوم العقلية والنقلية ، واشتهر بالتحقيق والمناظرة والجدل ، وشاع ذكره وفضله بين العلماء بمصر والشام . والف الكتب النافعة ، منها : حاشية على شرح الأشمونى على الفية ابن مالك. وحاشية على شرح العصام على السمرقندية، وحاشية على شرح الملوى على السلم ، وحاشية على مختصر السعد فى المعانى والبيان والبديع . توفى سنة ١٢٠٦ ه .

* * *

وهناك من أعلام الأزهر وعلمائه كثير ممن بذلوا جهودا محمودة فى خدمة العلم ، وعنوا بالقواعد النحوية ، وزاولوا تدريسها والتأليف فيها ، ولهم مؤلفات قيمة يهتدى بها الدارسون والباحثون . ومن أشهر هؤلاء :

الشيخ الأشمونى (١) — الشيخ خالد بن عبد الله بن ابى بكر (٢) — الشيخ أحمد الأمير (٣) — الشيخ أحمد السجاعى (٤) — الشيخ حسن الكفراوى (٥)

* * *

ولم يكن للعلماء فى مصر والشام مذاهب فى النحو جديدة أو آراء مستحدثة، وجل ما هنالك انما هو دراسة لآراء المتقدمين ، واحياء لتراثهم ، وترجيح لبعض الآراء ، وتعليق عليها بالشرح والتدوين .

أما المؤلفات النحوية ونظامها وطريقتها فى هذه العصور فأنا سنشير اليها بعد .

---

(١) الخطط التوفيقية ﺣ ٨ ص ٧٤
(٢) ﺣ ١٠ ص ٥٣
(٣) ﺣ ١٢ ص ٥٤
(٤) ﺣ ١٢ ص ٩
(٥) ﺣ ١٥ ص ٧

اختلاف اللهجات العربية ومظاهره في النحو واللغة

تتأثر اللغة فى نشوئها ونموها بعوامل متعددة . منها البيئة وأحوال المجتمع ، ومنها استعداد المتكلمين بها ، ومنها أسلوبهم فى النطق وطريقتهم فى المحاكاة والتصرف فيما يسمعون وما ينطقون به .

والعرب أمة واحدة من حيث الميول والصفات العامة فى جملتها ، ولكنهم قبائل كثيرة تعتز كل منها بنسبها ، وتعنى بالاحتفاظ بمقوماتها وتقاليدها ، ولكل منها طريقتها فى النطق والأداء ، بسبب مادرجت عليه وما أحاط بها من مؤثرات . ولهذا نجد اختلافا فى لغات القبائل تبعا لهذه العوامل ، وكان من نتيجة كل ذلك ، تلك اللهجات الكثيرة التى دون الباحثون ضروبها .

ولكن ما أتيح للعرب فى فرص كثيرة من اجتماعهم فى أسواقهم ومواسمهم ، قرب مسافة الخلف اللغوى ، ومزج متفرق اللهجات ، وصقل النابى منها عن مألوف جمهرة العرب ، والبعيد عما ترتضيه صفوة قبائلهم ، ومايقره ذوو المكانة فيهم . وكان للغة قريش قوى الأثر ، فتغلبت على اللهجات العربية الأخرى ، وأصبحت هى اللغة العامة للأدب والشعر والخطابة . وذلك بسبب ما كان لقريش من سلطان دينى ونفوذ اجتماعى ، ومكانة اقتصادية وتجارية .

على أن هذا لم يمنع بقاء كثير من آثار اللهجات الأخرى فى لغة قريش فقد ظلت القبائل المختلفة تحتفظ بشىء من طرقها فى النطق على حسب ما ألفوا ، وانتهى كل ذلك بهذا التراث اللغوى الذى نقله إلينا الرواة ، وسجلوا فيه ما هنالك من لهجات .

وإلى جانب المؤثرات العامة التى نشأ عنها تشعب اللهجات العربية ، هناك عوامل أخرى ترجع إلى حياة العرب ، وإلى الوسائل التى درجوا عليها واقتضتها أحوالهم . ذلك أنهم كانوا أمة أمية ، ولم تكن لغتهم مدونة ، وكانوا

يعتمدون فى نقلها على المحاكاة الشفهية ، وينطقون بها كما تطاوعهم ألسنتهم ، وتتجه كل قبيلة وجهتها الخاصة فى النطق ، وفى أساليب التعبير . وقد تبعد مسافة الخلف بين لهجتها ولهجة غيرها من القبائل إذا طال الزمن ولم تتح الفرص للاختلاط الذى ينشأ عنه اقتباس لهجة من أخرى ، أو تغلب لهجة قوية على لهجة أو لهجات أقل منها قوة ، كما حدث فى لغة قريش .

على أن خضوع اللغة العربية فى أول أمرها لهذه المؤثرات السمعية واللسانية ، وإن كان من الأسباب التى أوجدت اللهجات ، كان من جهة أخرى من العوامل التى ساعدت على نهوضها وارتقائها وسيرها فى مدارج الاكتمال ، تبعا لما تقضى به سنة النشوء ، وإنا نرى أثر التدوين فى اللغات الشرقية التى سبقت اللغة العربية فى الزمن أو عاصرتها ، فان ذلك جعل هذه اللغات تظل على حالتها محتفظة بكثير من أساليبها الأولى ، دون أن تمسها عوامل التهذيب ، لأن التدوين له أثر فى تقييد الألسنة وتحديد طرائق التصرف فى التعبير واستعمال الكلمات .

وقد تجلى اختلاف اللهجات فى مظاهر شتى ، ترجع إلى طبيعة اللغة العربية وحروفها ، مما نشأ عنه اختلاف فى طرق الأداء ، من إمالة وتفخيم وتسهيل وقلب وابدال وتسكين وترخيم وادغام ومزج الحروف المتقاربة وغير ذلك . ومرجع كثير من هذا إلى طريقة النطق ، وإلى مخارج الحروف وصفاتها ، وقد أفاض علماء التجويد والقراءات فى بسط هذا ، وتعرض له بعض علماء اللغة والنحو فى كتبهم كالخليل وسيبويه فى كتابه عند الكلام على الادغام ، وابن جنى فى كتابه سر الصناعة .

ويجمل بنا أن نشير إلى هذا فى إيجاز لكى تتضح الأسباب اللسانية التى اقتضت بعض الظواهر اللغوية التى نجدها فى اللغة العربية وفى لهجات العرب .

طريقة النطق وأساليب الأداء، وأثرها فى اللغة العربية

تخضع اللغة فى وسائل أدائها وطرائق النطق بها وضبط ألفاظها وتحديد كنهها إلى عوامل ثلاثة : اثنان فى اللغة المنطوق بها ، وهما اللسان والسمع ، والثالث فى اللغة المكتوبة، وهو طريقة الكتابة ووسائلها ودرجتها فى الدقة والضبط واجتناب مايوقع فى الشبهات والخطأ ، وهنالك عامل رابع يرجع إلى المعنى وماعسى أن يعتريه من تغيير على مرور الزمن ، وهو الاستعمال والعرف الذى ينقل الكلمات والعبارات من معنى إلى آخر أوسع أو أضيق أو مخالف للأصل .

والبحث فى هذه العوامل يوضح كثيراً من خصائص اللغة العربية ، ويكشف عن أسباب مافيها من بعض الظواهر كالإبدال والإدغام والقلب وغير ذلك ، ولكل هذا صلة باللهجات العربية .

والعامل الأول ، وهو اللسان أو الجهاز الصوتى بجميع أجزائه ، من أكبر العوامل فى تحديد اللغة وتصوير مقوماتها ، فهو المذيع للألفاظ والتراكيب والضابط لخصائصها . وقد بحث العلماء فى هذه الناحية بحثا مستفيضا، وحددوا أجزاء الجهاز الصوتى، وأوضحوا الحروف المتصلة بكل جزء منه ، ثم شرحوا كذلك صفات كل حرف مما يحدد مقوماته ، وسنوضح فى إيجاز مخارج الحروف وصفاتها، ثم نشير إلى صلة ذلك ببعض الخصائص والظواهر اللغوية .

مخارج الحروف

يعرف مخرج الحرف بالتلفظ به ساكنا أو مشددا ، فحيث انقطع الصوت كان مخرج الحرف . ومخارج الحروف على الترتيب من الصدر إلى الشفتين هى : —

(١) حروف المدوهي « ا . و . ى » تخرج من جوف الصدر وتنتهى إلى هواء الفم .

(٢) « الهمزة والهاء » تخرجان من أقصى الحلق ، والهمزة أدخل .

(٣) « العين والحاء » من وسط الحلق والعين أدخل .

(٤) « الغين والخاء » من أدنى الحلق إلى الفم والغين أدخل .

(٥) « القاف » من أقصى اللسان ممايلى الحلق ومافوق من الحنك .

(٦) « الكاف » من أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف من اللسان ومايليه من الحنك .

(٧) « الجيم والشين والياء غير المدية » من بين وسط اللسان ومافوقه من الحنك ، والجيم ادخل والياء أخرج .

(٨) « الضاد » من بين جانب اللسان من أقصاه إلى قرب رأسه وبين مايقابل ذلك من الأضراس العليا ، فتستغرق أكثر حافة اللسان .

(٩) « اللام » بين حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه وما بينها وبين مايليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية .

(١٠) « النون » من طرف اللسان بينه وبين مافوق الثنايا أسفل اللام قليلا ، والمراد بالنون المظهرة فى نحو انعمت ، أما المدغمة نحو « من واق » والخفية فى نحو منشورا فمخرجها الخيشوم .

(١١) « الراء » من مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين مافوق الثنايا العليا ، غير أنها ادخل فى اللسان قليلا .

وهذه الأحرف الثلاثة ، وهى اللام والنون والراء ، تسمى المذلقة نسبة إلى ذلق اللسان وهو طرفه .

(١٢) « الطاء والدال والتاء » من بين طرف اللسان والثنايا العليا مصعدا إلى جهة الحنك . غير أن الطاء ادخل والتاء اخرج .

(١٣) « الصاد والسين والزاى » من بين طرف اللسان والثنايا العليا ، غير أن الصاد أدخل والزاى أخرج ، ويقال لها أحرف الصفير .

(١٤) « الظاء والذال والثاء » من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، غير أن الظاء أدخل والثاء أخرج ، ويقال لها اللثوية .

(١٥) « الفاء » من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا .

(١٦) « الباء والميم والواو غير المدية » من الشفتين منطبقتين للأولين ، ومنفتحتين للأخير ، غير أن الباء أدخل والواو أخرج ، ويقال لها الشفوية .

(١٧) الخيشوم وهو للغنة ، وتكون فى النون والميم الساكنتين فى حالة الإخفاء أو مافى حكمه من الإدغام بغنة .

وتجد تحديدا دقيقا لمخرج كل حرف مع إيضاح الجهاز الصوتى فى رسالة لابن سينا تسمى « أسباب حدوث الحروف » وفى غيرها من الكتب .

(الأحرف الهجائية الملحقة)

يلحق بالحروف الهجائية السابقة أحرف أخرى بعضها مستحسن يؤخذ به فى القرآن وفصيح الكلام ، وبعضها مستهجن لايؤخذ به فى القرآن ولا يستعمل فى الفصيح ، ولايكاد يوجد إلا فى لغة ضعيفة مرذولة . وبعضها مستحسن فى موضع مستهجن فى آخر .

(الأحرف المستحسنة) هى :

(١) حرف بين الصاد والزاى ينطق به بدل الصاد قياسا إذا كانت ساكنة وتلاها دال مثل أصدق وتصديق ، ويجوز النطق به زايا خالصة ، كما يجوز جعل السين الساكنة زايا فى مثل أزدل فى أسدل .

(٢) الهمزة المخففة أو المسهلة ، وتسمى همزة بين بين ، وهى المتحركة بعد ألف كتفاءل وتفاؤل وقائم ، والمفتوحة بعد فتحة كسأل ، والمكسورة بعد أى حركة كسئم ومستهزئين وسئل ، والمضمومة بعد أى حركة كرءوف

ومستهزئون ورءوس، فيجوز النطق بها حرفا بين الهمزة وبين حرف حركتها، أى بين الهمزة والألف أو بين الهمزة والواو أو بين الهمزة والياء .

وهذا التسهيل نوع من أنواع التخفيف. وهو لغة قريش وأكثر الحجازيين.

(٣) ألف الإمالة ، وهو حرف بين الألف والياء ينطق به بدل الألف الخالصة .

(٤) ألف التفخيم ، وهو حرف بين الألف والواو ، كما فى الصلاة والزكاة والحياة فى لغة الحجاز ، ولذا رسموها فى الكتابة بالواو ، كما كتبوا « سويهن » بالياء للإمالة ، وكما فى سلام عليكم وقام ودعا وغزا وصاغ .

(الأحرف المستهجنة)

(١) حرف بين الجيم والكاف، وينطق به بدلا من الكاف فى لغة اليمن وبغداد ، وبدلا من الجيم فى لغة البحرين وعكل ، وبدلا من القاف فى لغة أهل البوادى .

(٢) حرف بين الصاد والسين ، ينطق به بدلا من الصاد .

(٣) حرف بين الطاء والتاء ، ينطق به بدلا من الطاء .

(٤) حرف بين الضاد والظاء . ويسمى الضاد الضعيفة .

(٥) حرف بين الظاء والتاء ، ينطق به بدلا من الظاء .

(٦) حرف بين الباء والفاء ، ينطق به بدلا من الباء الصريحة .

(الأحرف المستحسنة فى موضع المستهجنة فى آخر)

(١) حرف بين الشين والجيم ، ينطق به بدلا من الشين استحسانا إذا كانت ساكنة وتلاها دال كاشدق ومشدود ، وينطق به بدلا من الجيم استهجانا إذا كانت ساكنة وتلاها دال أو تاء نحو أجدر واجتمعوا .

(٣) حرف بين الواو والياء ، ينطق به استحسانا بدلا من الواو الخالصة أو الياء الخالصة فى نحو قيل وبيع واختير بالاشمام، وينطق به استهجانا بدلا من واو المدالتى بعدها راء مكسورة نحو مذعور ، فتميل الضمة إلى جهة

الكسرة ويتبع ذلك ميل الواو إلى جهة الياء .

(الحركات)

الحركات الأصلية هى : الفتحة والكسرة والضمة . وكما يوجد التقارب بين الحروف يوجد كذلك بين الحركات :

فنجد الضمة مشوبة بشىء من الكسرة أو الفتحة

وتجد الكسرة مشوبة بشىء من الضمة

وتجد الضمة مشوبة بشىء من الكسرة

ولاتجد الكسرة ولا الضمة مشوبة بشىء من الفتحة ، وذلك أن الفتحة أول الحركات وأدخلها فى الحلق ، والكسرة بعدها ، والضمة بعد الكسرة. فاذا بدأت بالفتحة وتصعدت تطلب صدر الفم،اجتازت فى مرورها بمخرج الياء والواو فجاز أن تشمها شيئا من الكسرة أو الضمة . ولو تكلفت أن تشم الكسرة أو الضمة رائحة من الفتحة لاحتجت إلى الرجوع إلى أول الحلق ، فكان فى ذلك انتقاض عادة الصوت بتراجعه إلى الوراء وتركه التقدم إلى صدر الفم . والنفوذ إلى الشفتين . ولذا ترك ولم يتكلف (١) :

(١) فالفتحة المشوبة بالكسرة ، هى التى قبل الف الإمالة .

(٢) والفتحة المشوبة بالضمة : هى الممالة نحو الضمة وتكون قبل التفخيم نحو الصلاة ودعا وغزا .

(٣) والكسرة المشوبة بالضمة:نحو قيل وبيع،فالياء مشوبة بروائح الواو

(٤) والضمة المشوبة بالكسرة : نحو مذعور فتنحو بضمة العين نحو كسرة الياء .

فالحروف تتبع الحركات قبلها ، فاذا كانت الحركة مشوبة فالحرف اللاحق بها أيضا فى حكمها .

---

(١) راجع كتاب سر الصناعة لابن جنى

صِفاتُ الحُرُوف

مخارج الحروف تبين ماهيتها وكميتها ، وصفاتها تبين هيئتها . وصفات الحروف هى :

(١) الجهر وضده الهمس :

فالمجهورة ما يقتضى النطق بها أشباع الاعتماد على موضع خروجها ، فينقطع النفس الخارج من الصدر إلى أن ينقضى الاعتماد عليها ، ولا يتأتى النطق بها إلا مع جهرها . قال سيبويه : إلا أن النون والميم قد يعتمد لها فى الفم والخياشيم فيصير لها غنة .

والمهموسة مالا يقتضى النطق بها اشباع الاعتماد فيها على موضعها ويبقى النفس عند النطق بها جاريا .

والحروف المهموسة تجمعها العبارة (سكت فحثه شخص) والمجهورة ماعداها . والهمس من صفات الضعف ، كما أن الجهر من صفات القوة .

(٢) الشدة والرخاوة والتوسط :

فالشديدة مايقتضى الاعتماد فيها على موضعها عند اسكانها انقطاع الصوت ، وإن لم ينقطع النفس . ويجمعها (أجدك قطبت) .

والرخوة مالا ينقطع فيها الصوت ، وهى ماعدا ذلك .

والمتوسطة ما بين الشدة والرخاوة ويجمعها (لن عمر)

وهناك فرق بين الجهر والشدة ، وبين الهمس والرخاوة ، فمدار الجهر على انقطاع النفس ، ومدار الشدة على إمتناع الصوت ، فاذا امتنعا معا كان الحرف مجهوراً شديدا ، وإذا جريا معا كان مهموسا رخوا ، وإذا امتنع النفس وجرى الصوت كان مجهورا رخوا ، وإذا امتنع الصوت وجرى النفس كان مهموسا شديدا .

(٣) الاستعلاء وضده الاستفال :

والأحرف المستعلية يجمعها (خص ضغط قظ) ويستعلى اللسان عند النطق بها إلى الحنك ، وإن لم يصل فى (الخاء والغين والقاف) إلى درجة الإطباق ، فالإطباق زيادة فى الاستعلاء وأخص منه .

والأحرف المستفلة ماعداها، وينخفض اللسان عند النطق بها عن الحنك. والاستعلاء من صفات القوة .

(٤) الأطباق وضده الانفتاح :

والأحرف المطبقة هى (الصاد والضاد والطاء والظاء) ، لأن الناطق بها يرفع لسانه إلى الحنك فيصير الحنك كالطبق على اللسان ، والطاء أقواها أطباقا والظاء أضعفها .

والمنفتحة ماعداها . قال سيبويه : لولا الأطباق فى الصاد لكان سينا ، وفى الظاء لكان ذالا ، وفى الطاء لكان تاء .

(٥) الذلاقة والاصمات :

والمذلقة يجمعها (فر من لب) ، والمصمتة ماعداها ، والذلاقة الفصاحة والخفة فى الكلام . وهذه الحروف أخف الحروف ، والذلق لغة الطرف وسميت حروفه مذلقة لخروج بعضها من طرف اللسان وهى : الراء والنون واللام ، وبعضها من طرف الشفتين وهى : الفاء والميم والباء ، والاصمات من الصمت وهو المنع ، وسميت حروفه مصمتة لأنها ممنوعة من انفرادها أصولا فى كلمات رباعية أو خماسية ، فلا يوجد فى العربية بناء أصلى رباعى أو خماسى خال من حروف الذلاقة ، ولذا حكموا بأن كلمة (عسجد)ليست عربية بل معربة .

(٦) حروف الصفير .

وهى الصاد والسين والزاى .

(٧) حروف القلقلة :

ويجمعها (قطب جد) ، وسميت بذلك لأنها إذا سكنت ضعفت فاشتبهت بغيرها ، فيحتاج إلى ظهور صوت يشبه النبرة حال سكونهن . وفيها يجتمع الجهر والشدة معا ، وهما مانعان جريان النفس والصوت ، فنتوصل إلى إسماع الصوت بالقلقلة .

وبعضهم أجاز قلقلة الكاف وقلقلة التاء .

(٨) الحروف الخفية :

وهى (الهاء وحروف المد) . وسميت خفية لأنها تخفى فى اللفظ إذا اندرجت بعد حرف قبلها .

(٩) حرفا الانحراف . وهما « الراء واللام » ، وسميا بذلك لأن اللسان ينحرف عند النطق باللام إلى داخل الحنك فلا يخرج الصوت بين موضع اللام بل من ناحية مستدق اللسان فويق ذلك ، وعند النطق بالراء إلى جهة اللام ، ولذا نجد الصبيان يلثغون لها .

(١٠) التفشى .

ويختص بالشين لانتشار هواء صوتها فى الفم عند النطق ، حتى يتصل بحروف طرف اللسان كالطاء .

* * *

من هذا يتضح أن الحروف تختلف قوة وضعفا ، وتتباين فى جرسها ورناتها ، ويتبع ذلك اختلاف الكلمات التى تتكون منها فى وقعها على السمع ، وفى منزلتها فى أداء المعنى ، وفى إثارتها الانفعالات خاصة وألوان من الاحساس تؤثر فى الابانة ، وفيما تترك الكلمات والعبارات من أثر فى نفس السامع ، فالحروف اللينة الهادئة الجرس تبعث الارتياح ، والقوية تناسب مواقف الزجر والتعنيف ، والممدودة تناسب مواطن النصح والارشاد ، إلى غير ذلك .

ولكل هذا شأن فى بلاغة القول وروعته ومطابقته لمقتضى الحال . وتجد ذلك واضحا فى الأسلوب المحكم المعجز للقرآن الكريم وبلاغته . ولسنا بصدد البحث فى هذه النواحى ، فلنتركها لمواضعها من البحوث العربية فى علوم البلاغة وغيرها . والذى يهمنا فيما نحن بصدده ، هو ارتباط طرائق النطق ومخارج الحروف بظواهر اللغة العربية وخصائصها . والمتتبع لكلام العرب يجد مرونة وميلا إلى التيسير ، وتجافيا عن الوعورة .

ويتضح ذلك مما نجده فى تركيب الكلمات وانسجام حروفها نتيجة لمراعاة ما يحقق سهولة النطق . وذلك مثل :

(١) مراعاة ما بين مخارج الحروف من تقارب أو تباعد ، فإذا تقاربت الحروف كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت . ولهذا لا يكاد يجىء فى الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة .

(٢) اجتناب الثقل عند اجتماع الحروف المتقاربة . ولذا يحول أحد الحرفين حتى يصير الأقوى منهما مبتدأ ، وذلك مثل تحويل اللام الشمسية إلى الحرف الذى يليها فى نحو الرحمن . وكذلك ما يحدث من الابدال فى تاء الافتعال فى نحو اضطرب واصطبغ . وكذلك ما يحدث فى ادغام الحرفين المتقاربين .

(٣) إذا اجتمع فى الكلمة حرفان متقاربان فانهم يبدءون بالأقوى منهما ويؤخرون الألين كما قالوا فى وتد وورل .

(٤) أصعب الحروف حروف الحلق ، وقل أن يجتمع منها حرفان متقاربان فى كلمة واحدة . وقال الخليل : لولا بحة فى الحاء لأشبهت العين ، فلذلك لم يأتلفا فى كلمة واحدة . ولو بحثت فى تنافر الحروف الذى ينجم عنه خروج الكلمة عن الفصاحة لوجدت الأسباب اللسانية واقتراب المخارج من عوامل ذلك ، مثل مستشزرات والهعخع وغير ذلك .

(٥) قال ابن دريد[١] فى الجمهرة : [٢] « إن أحسن الأبنية فى الكلمات أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة ، ألا ترى أنك لا تجد بناء رباعيا مصمت الحروف لا مزاج له من حروف الذلاقة [٣] إلا بناء يجىء بالسين وهو قليل جداً مثل عسجد ، وذلك أن السين لينة وجرسها من جوهر الغنة فلذلك جاءت فى هذا البناء . فأما الخماسى مثل فرزدق وسفرجل وشمردل ، فانك لست واجده إلا بحرف أو حرفين من حروف الذلاقة من مخرج الشفتين أو أسلة اللسان . فاذا جاءك بناء يخالف ما رسمته لك مثل : دعشق وضعثج وحضافح وضقعهج أو مثل : عقجش وشعفج ، فانه ليس من كلام العرب ، فاردده ، فان قوما يفتعلون هذه الأسمـــاء بالحروف المصمتة ولا يمزجونها بحروف الذلاقة ، فلايقبل ذلك ، كما لايقبل من الشعر المستقيم الأجزاء إلا ما وافق ما بنته العرب . فأما الثلاثى من الأسماء والثنائى فقد يجوز بالحروف المصمتة بلا مزاج من حروف الذلاقة مثل خدع ، وهو حسن، لفصل ما بين الخاء والعين بالدال ، فان قلبت الحروف قبح ، فعلى هذا القياس فألف ما جاءك منه وتدبره فانه أكثر من أن يحصى . »

ومن هذا وأمثاله مما أوضحه العلماء فى موضوع فصاحة الكلمة، وماشرحوا أصوله فى كتب اللغة ، يتضح أن العرب قد سلكوا فى النطق وفى تأليف الحروف مسلكا ينطوى على السهولة واليسر ومسايرة الطبع السليم .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن دريد الازدى ، كان إمام عصره فى اللغة والادب والشعر . وله كتب كثيرة . وله القصيدة المشهورة بالمقصورة يمدح بها ابنى ميكال اللذين كانا على عمالة فارس وقد عمل لهما كتاب الجمهرة فى اللغة .

توفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ .

(٢) الجمهرة ج ١ ص ١١ والمزهر ج ١ ص ١١٧

(٣) سبقت الاشارة إليها .

أمثلة من اختلاف لهجات العرب

(فى الاعراب والبناء)

(١) إعمال ما واهمالها :

التميميون يهملونها فيرفعون خبرها ، والحجازيون يعملونها فينصبونه ، وبلغتهم نزل القرآن الكريم ، قال تعالى « ما هذا بشرا » ، « ما هن أمهاتهم »

(٢) إعراب الذين إعراب جمع المذكر السالم فى لغة هذيل ، قال رؤبة[(١)]

نحن اللذون صبحوا الصباحا　　　يوم النخيل غارة ملحاحا

واللذون مبنى على الواو على الصحيح ، وقيل مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم .

(٣) تمييز « كم » الخبرية :

تميم تجيز نصبه . ومنه بيت الفرزدق [(٢)] :

كم عمة لك يا جرير وخالة　　　فدعاء قد حلبت على عشارى

(٤) نصب الخبر بعد « إن » النافية :

فى لغة أهل العالية ، وهى ما فوق نجد إلى تهامة وإلى مكة وما والاها ، وعليها الكسائى وأكثر الكوفيين وطائفة من البصريين ، كقول الشاعر [(٣)]

إن هو مستوليا على أحد　　　إلا على أضعف المجانين

وقوله :

إن المرء ميتا بانقضاء حياته　　　ولكن بأن يبغى عليه فيخذلا

---

(١) وقيل إن البيت لرجل من بنى عقيل جاهلى اسمه أبو حرب ، وقيل هو لليلى الاخيلية . وصبحوا الصباح أى صبحوهم ، والملحاح الشديد الدائم

(٢) من قصيدة يهجو بها جريرا ، ويروى فى « عمة » و « خالة » الرفع والنصب والجر وفدعاء من الفدع وهو ميل فى أصل القدم عند الكعب

(٣) أنشده الكسائى ولا يعلم قائله

وكقراءة سعيد بن جبير « إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم »

(٥) إعراب المثنى :

لغة بنى الحارث وخثعم وكنانة إعراب المثنى بالألف مطلقا ، وعليه قول الشاعر :

فأطرق اطراق الشجاع ولو رأى مساغا لنا باه الشجاع لصمما [1]

ومنه قوله تعالى « إن هذان لساحران » ، لا وتران فى ليلة .

(٦) خبر ليس :

الحجازيون ينصبونه مطلقا . وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بإلا ، حملا لها على « ما » ، ويرتبط بهذا تلك المناظرة التى جرت بين أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى ، وقد أوردناها فى موضوع المناظرات .

(٧) جر اسم لعل :

لغة عقيل ، كقول كعب بن سعد الغنوى [2] :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبى المغوار منك قريب

(٨) صرف مالا ينصرف فيما علته الوصفية وزيادة الألف والنون ، وذلك لغة بنى أسد .

(٩) بناء « مع » الظرفية على السكون :

---

(١) البيت من قصيدة المتلمس وقد ورد فيها « لنابيه » بالياء فى مجموع أشعار العرب . ومعنى الشجاع الافعى . وقبل هذا البيت الابيات الآتية :

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت الامثل قاطع كفه بكف له أخرى فاصبح أجذما
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد له دركا فى أن تبينا فأحجما

فاطرق البيت . . (راجع مجموع أشعار العرب ج ١ ص ٦٤)

(٢) أمالى القالى ج ٢ ص ١٤٧

لغة ربيعة وغنم « وغنم حى من تغلب بن وائل »

(١٠) لدن الظرفية :

المشهور فيها البناء . وبنو قيس بن ثعلبة يعربونها . وفيها غير اللغة القيسية عدة لغات فى حركات الدال والنون وحذف النون .

(١١) الأعلام التى على وزن فعال :

المشهور فيما ليس آخره راء منها البناء على الكسر ، مثل حذام ، وتميم تعربها وتمنعها من الصرف للعلمية والعدل .

(١٢) كلمة أمس :

المشهور فيها البناء على الكسر وهى لغة الحجازيين . والتميميون يعربونها اعراب ما لا ينصرف . ومحل الخلاف إذا لم تنكر أو تعرف « بال » أو الاضافة أو تجمع وإلا اعربت اتفاقا .

(فى الحركات)

(١) حركة حرف المضارعة :

لغه بهراء كسر احرف المضارعة ، ويسمى هذا تلتلة بهراء . وقد ذكر سيبويه فى كتابه [١] مواضع تكسر فيها أوائل الأفعال المضارعة ، قال : « وذلك فى لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز ، وذلك قولهم انت تعلم ذلك وانا إعلم وهى تعلم ونحن نعلم ذاك ، وكذلك كل شىء قلت فيه فعل من بنات الياء أو الواو التى الياء والواو فيهن لام أو عين والمضاعف ، وذلك قولك شقيت فانت تشقى . وخشيت فانا إخشى، وخلنا فنحن نخال ، وعضضتن فانتن تعضضن وانت تعضين » بكسر أول المضارع .

(٢) فتح الياء والواو فى مثل بيضات وعورات مما كان معتل العين :

وهو لغة هذيل ، وعليه قراءة « بعضهم ثلاث عورات لكم » بفتح الواو ، وقول الهذلى يمدح جمله :

---

(١) جـ ٢ ص ٢٥٦

اخو بيضات رائح متأوب رفيق بمسح المنكبين سبوح [١]

(٣) شين عشرة وحركتها :

المشهور فى شين عشرة التسكين، ومن تميم من يفتحها ، ومنهم من يكسرها ومنهم من يسكن الشين من عشرة اذا ركبت مع غيرها .

(٤) كسر لام الجر :

فى لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقا مع الظاهر والضمير . وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع ضمير غير المتكلم .

(٥) هاء الغائب وضمها :

هاء الغائب مضمومة فى لغة أهل الحجاز مطلقا إذا وقعت بعد ياء ساكنة، مثل قوله تعالى «وما أنسانيه إلا الشيطان» و «عاهد عليه الله» وغيرهم يكسرها، وبنو كلب يكسرون هاء الغيبة المتلوة بالميم مطلقا . ولو لم يكن قبلها كسرة أو ياء .

(٦) ها التنبيه :

لغة بنى مالك من بنى أسد ضمها فى مثل يا أيها الرجل . الا إذا تلاها اسم إشارة .

(٧) ياء المتكلم :

لغة بنى يربوع كسر ياء المتكلم اذا أضيف اليها جمع المذكر السالم .

(٨) تسكين المتحرك تخفيفا :

فى لغة بكر بن وائل وكثير من بنى تميم يسكنون المتحرك تخفيفا فيقولون فى فخذ . فخذ بسكون الخاء . وهذه اللغة كثيرة أيضا فى تغلب ، وهو أخو بكر بن وائل ، ثم اذا تناسبت الضمتان والكسرتان فى كلمة خففوا أيضا مثل العنق والأبل .

---

(١) متأوب : يجىء أول الليل . رفيق بمسح المنكبين : عليم بتحريكهما في السير . سبوح : حسن الجرى . يريد أن جمله كالظليم الذي له بيضات .

(٩) حركة التخلص من الساكنين :

التخلص من الساكنين اما بحذف الأول أو بتحريكه والأصل فى تحريكه أن يكون بالكسرة ، وإذا كان بعد الساكن مضموم ضما لازما ، فمن العرب من يضم إتباعا « نحو هذا محمد انصره » ومنهم من يكسر .وقال الجرمى: حذف التنوين لالتقاء الساكنين مطلقا لغة . وعليها قرىء « قل هو الله أحد الله الصمد » .

(القلب والابدال)

(١) الف المقصور :

فى لغة هذيل لا يبقون الف المقصور على حالها عند الإضافة إلى ياء المتكلم . بل يقلبونها ياء ثم يدغمونها توصلا إلى كسر ما قبل الياء فيقولون فى عصاى : عصى . ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى (١)

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

(٢) الهمزة :

من العرب من يبدل الهمزة المفتوحة إذا كانت منفصلة أى بين كلمتين إلى لفظ ما قبلها ويدغمها فيه فيقولون فى « أو أنت » اونت وفى «أبو أيوب» أبو يوب

(٣) اولئك :

مدها لغة الحجاز « وفى لغه قيس وربيعة » وأهل نجد من بنى تميم يقصرون أولاء ويلحقون بها لاما فيقولون أولالك .

(٤) إبدال الحرف الصحيح حرفا معتلا :

فيقال فى إما : إيما وفى أما : أيما .

(٥) الياء بعد الفتحة :

القاعدة العامة عند بنى الحارث وخثعم وكنانة أن كل ياء بعد فتحة تقلب الفا ، فيقولون : جئت إلاك أى إليك .

(٦) قلب الياء الفاء

---

(١) من قصيدة يرثى بها أولاده .

فى لغة طيء يقلبون الياء الفا بعد إبدال الكسرة فتحة ، فيقولون فى رضى ، رضا .

(٧) المعاقبة بين الواو والياء :

من لغة الحجازيين أنهم يعاقبون بين الواو والياء ، فيجعلون إحداهما مكان الأخرى . وهذه المعاقبة إما أن تكون لغة عند القبيلة الواحدة ، أو تكون لاقتران القبيلتين فى اللغتين ، وليست بمطردة فى لغة الحجاز بين كل واو وياء ولكنها محفوظة عنهم ؛ فيقولون فى دوخوا : ديخوا

وقد وردت أفعال ثلاثية واوية ويائية، منها : عزوته وعزيته ، اذا نسبته وقلوته بالنار وقليته .

وقد جمعها ابن مالك فى منظومة له فراجعها فى كتاب المزهر للسيوطى[1]

(٨) ومن أنواع الابدال ما يكون بين الحروف المتقاربة المخارج مثل،

(ا) العين والحاء ، ضبعت الخيل وضبحت، اذا أسمعت من أفواهها صوتا ليس صهيلا ولا حمحمة . وبعثر وبحثر ، ويسمى فحفحة هذيل .

(ب) العين والهمزة ، استعدينه على فـــلان واستأديته ، موت زعاف وزؤاف ، وبعض العرب يقول أردت عن تفعل يريد أن

(ج) الحاء والهاء ، كده وكدح . تفيهق وتفيحق

(د) الدال والتاء ، مد فى السير ومت ـ هرت الثوب وهرده اذا خرقه

(ه) الدال والطاء ، مط ومد ـ لههذا فقط وفقد ـ الأقطار والاقتار وقع على أحد قطريه وقتريه .

(« الدال والذال » الدحداح . الذحذاح « القصير »

(و) السين والثاء ، ساخت رجله وثاخت

(ز) الباء والميم فى لغة مازن ، بكة ومكة ـ بكر ومكر ـ باسمك فى، ماسمك

---

(١) جـ ٢ ص ١٧٨

(ح) القاف والكاف عند حمير ، يقولون فى رقيق ركيك وفى الاقهب الاكهب [١] ـ وقمه فى وكمه « إذا دفع صدره » ـ عربى قح وكح .

(ط) الكاف والشين « فى لغة بنى عمرو بن تميم » يبدلون كاف المؤنث شينا فى الوقف « وذلك لقرب الشين من الكاف فى المخرج ؛ ولأنها مهموسة مثلها » فأرادوا البيان فى الوقف « ومنهم من يبقى الكاف ويضيف إليها الشين » وعامة مصر تفعل شيئا من هذا فى النفى أو الاستفهام . وأهل اليمن يبدلون الكاف شينا مطلقا ، ويسمى ذلك الشنشنة .

(ى) الياء المشددة « تبدل الياء المشددة جيما فى الوقف » ويسمى عجعجة قضاعة .

(ك) اللام والنون : مثل هتلت السماء وهتنت ـ أصيلانا وأصيلالا ـ ومن ذلك عنوان الكتاب وعلوانه ـ واسماعيل واسماعين ـ وقلة الجبل وقنته.

(ل) الهمزة والواو « أرخ » ورخ ـ إكاف الدابة « وكاف ـ وشاح » إشاح ـ آخيته « واخيته ـ آسيته » واسيته ـ أوصدت الباب ، آصدته .

(م) الهمزة والياء « يلمعى » ألمعى ـ يرقان ، أرقان ـ ألندد « يلندد » للشديد الخصومة : ـ رفع يديه « رفع أديه » وهى لغة عامة مصر .

(ن) الهمزة والهاء « اياك » هياك ـ هبرية « ابرية ـ أرقت » هرقت ـ أرحت دابتى « هرحتها ـ ايا » هيا .

(س) النون والميم « امتقع لونه » انتقع .

(ع) قلب آخر المضعف ياء « تمطط » تمطى ـ تظننت . تظنيت .

(اللغات فى بعض الكلمات) .

(١) فى « لعل » وفى « الذى » وفى « لدن »

(٢) اللغات فى هو ،هى « السكون والتشديد »

---

(١) لون إلى الغبرة

(٣) « أنا » : فيها اثبات الألف وقفا وحذفها وصلا ـ واثباتها وصلا ووقفا وهى لغة تميم ـ وابدال الهمزة هاء ـ آن بمدة بعد الهمزة ، وقيل إن ذلك بالقلب المكانى بين النون والألف .

(٤) « هلم » : الأشهر فيها أنها تلزم حالة واحدة ، وقيل إنها فى الأصل مركبة من « ها » التنبيه ولم أى ضم نفسك إلينا . ولغة نجد من بنى تميم أنها تتغير بحسب من هى مسندة إليه .

(٥) الاختلاف فى صور جمع التكسير مثل ، أسرى وأسارى .

« الادغام »

لغة أهل الحجاز فك المثلين فى المضارع المضعف المجزوم بالسكون وفى أمره ، ولغة تميم الادغام .

« الحذف والزيادة »

(١) عرب الشحر وعمان يقولون فى « ماشاء الله » مشا الله

(٢) نون « من الجارة » : خثعم وزبيد من قبائل اليمن يحذفونها إذا وليها ساكن مثل خرجت مالدار أى من الدار .

(٣) الف على الجارة فى لغة بنى الحارث فيقولون ركبت علفرس أى على الفرس .

(٤) حذف النون فى اللذين واللتين ، المشهور بقاء النون دائما ؛ وبنو الحارث بن كعب وبعض ربيعة يحذفونها فى حالة الرفع . وتميم وقيس يثبتون النون ولكنهم يشددونها فى أحوال الاعراب الثلاثة .

(الأمالة)

قال ابن الجزرى فى كتابه النشر فى القراءات العشر (١) . —

« الامالة أن ننحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء (كثيرا)

---

(١) ج ٢ ص ٢٩

وهو المحض ويقال له الاضجاع ، ويقال له البطح ، وربما قيل له الكسر أيضا ، (وقليلا) وهو بين اللفظين ويقال له أيضا التقليل والتلطيف وبين بين ، فهى بهذا الاعتبار تنقسم أيضا قسمين : امالة شديدة وامالة متوسطة ، وكلاهما جائز فى القراءة جار فى لغة العرب ، والامالة الشديدة يجتنب معها القلب الخالص والاشباع المبالغ فيه ، والامالة المتوسطه بين الفتح المتوسط وبين الامالة الشديدة . قال الدانى : والامالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فالفتح لغة أهل الحجاز والامالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس »

ويقابل الامالة الفتح ، وهو عبارة عن فتح القارىء لفيه بلفظ الحرف. وللامالة مواضع وشروط ، وقد أوضح ابن الجزرى اسبابها ووجوهها وفائدتها ومن يميل وما يمال .

(الهمز)

للعرب فى الهمزة المفردة والهمزتين المجتمعتين أنواع من الأداء، ويرجع ذلك إلى طبيعة هذا الحرف وثقل النطق به أو سهولة خفائه .

قال ابن الجزرى (١) :

« ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا تنوع العرب فى تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بين والادغام وغير ذلك، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفا ، ولذلك كان أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح ، وكنافع من رواية ورش وغيره ، وكأبى جعفر من أكثر رواياته . . . وكأبى عمرو ، فان مادة قراءته عن أهل الحجاز » ثم قال : « واعلم أن من كانت لغته تخفيف الهمز فانه لا ينطق بالهمز إلا فى الابتداء . والقصد أن تخفيف الهمز ليس بمنكر ولا غريب ،

(١) جـ ١ ص ٤٢١ من كتاب النشر فى القراءات العشر

فما أحد من القراء إلا وقد ورد عنه تخفيف الهمز، إما عموما وإما خصوصا... وقد أفرد له علماء العربية أبوابا تخصه، وقسموا تخفيفه إلى واجب وجائز، وكل ذلك أو غالبه وردت به القراءة وصحت به الرواية، إذ من المحال أن يصح فى القراءة مالا يسوغ فى العربية بل قد يسوغ فى العربية مالا يصح فى القراءة، لأن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول».

وقد أشار ابن دريد فى كتابه الجمهرة إلى الهمزة حين تكلم عن الحروف التى استعملها العرب فقال: «... وما سوى ذلك فللخلق كلهم من العرب والعجم إلا الهمزة فإنها لم تأت فى كلام العجم إلا فى الابتداء»(١)

وقال ابن فارس فى كتابه الصاحبى (٢): «والعرب تنفرد بها (الهمزة) فى عرض الكلام، ولا يكون فى شىء من اللغات إلا ابتداء»

ولعل هذا صحيح فى بعض اللغات الأوربية الآن. وقد يكون الباعث على اجتناب الهمزة فيها وسط الكلمة هو هذا الثقل فى النطق، الذى دعا إلى تخفيفها فى اللغة العربية.

ووسائل تخفيف الهمزة كثيرة منها:

(١) نقل حركتها إلى الساكن

(٢) الابدال، بأن تبدل حرف مد من جنس حركة ما قبلها

(٣) التسهيل

(٤) الحذف بلا نقل.

ولتطبيق هذه الحالات طرق تختلف فى الهمز المفرد وفى الهمزتين المجتمعتين من كلمة أو من كلمتين، وكل هذا مفصل تفصيلا دقيقا فى مواضعه من كتب القراءات. وفيها أيضا تفصيل للوقف على الهمزة وللسكت على الساكن قبلها.

---

(١) حـ ١ ص ٤ — (٢) ص ٧١

هذه بعض مظاهر من اختلاف لهجات العرب . وإن المتتبع لما يتصل منها بنواحى القلب والابدال ، يجدأنها تعود إلى أسباب صوتية تستدعى هذا التغيير طبقا للتقارب أو التجانس أو غير ذلك . فانا نجد مثل هذا فى اللغات التى تتداولها الألسنة ، وتتحكم فيها المرونة التى يميل اللسان اليها إذا ترك على سجيته ، متبعا أيسر السبل وأسهلها وأبعدها عن الاجهاد والارهاق .

ويبدو ذلك فى اللغات العامية التى تعتمد فى تعلمها على السمع والمشافهة. فإنا نجد فيها ألوانا من الاختلاف والتغيير ، مرجعها إلى بعض ما أشرنا اليه من أسباب . وذلك كالذى نجده فى طرائق النطق ببعض الكلمات والحروف فى الأقاليم المصرية المختلفة ، فلكل أقليم أسلوبه الذى يبدو واضحا لمن جالوا فى أنحاء مصر واختلطوا بأهلها وسمعوا لغتهم. ونجد مثل ذلك أيضا فى الأقطار العربية الأخرى .

ومن أمثلة الخلاف فى اللغة العامية المصرية ابدال الحروف بعضها من بعض . مثل (١) : —

متوى : وأصلها مثوى

اتاوب : أصلها تثاءب

حدوته : أصلها أحدوثه

جربوع : تقال فى معرض الاحتقار . وأصلها يربوع ، اسم لدويبة مثل الفأر .

وز : أى حرض أو أغرى ، وأصلها أزه يؤزه أى أغراه وهيجه

حنس : أى أثار فيه الغيرة ، وأصلها حمس

الخن : أصلها الكن .

---

(١) راجع كتاب المحكم فى أصول الكلمات العامية للدكتور أحمد عيسى بك

اتعتع : أى ترك المكان . أصلها : تتحتح أى تحرك من مكانه .
يتمختر : أصلها : يتبختر .
تمطع : أى مد أطرافه من الكسل ، أصلها تمطى .
ادلعدى : أصلها الدعوة للعدو .
اسحلب : أصلها : تذعلب أى انطلق فى استخفاء .
ألدغ : أصلها : ألثغ وهو الذى لايجيد النطق بالراء .
امبارح : أصلها : البارحة .
بدى : أى أريد . أصلها : بودى ، (والود) مثلثة الواو .
دأج : أى دحرج وأصلها : دعلج ومعناها دحرج أيضا .
دهسه : أى داسه ، أصلها : دعس أى داس ووطىء بقدمه .
قربع : شرب الماء باندفاع . أصلها : جرعب .
لطش : أى ضربه . أصلها : لطث أى ضربه بعرض الكف .

وهناك أمثلة كثيرة يجدها من يتتبعون اللغات العامية فى مصر وغيرها . فالتغيير والاختلاف اللفظى والاستعمالى والمعنوى كلها ظواهر طبيعية فى اللغة ، تحتمها العوامل التى تؤثر فى نشأة اللغات وتفرعها ، مادامت اللغة خاضعة للسان وللسمع .

* * *

القراءات . وصلتها بلهجات العرب وبالقواعد النحوية

أنزل الله القرآن الكريم على رسوله الأمين بلسان عربى مبين ، وقد تجلت فيه أساليب البيان العربى ، وطرائق العرب فى لغتهم ونهجهم فى أدائها والنطق بها .

وقد علمنا مما أوضحنا من قبل أن العرب كانت لهم لهجات مختلفة وطرق فى الأداء متباينة فى بعض النواحى ، وقد ساروا فى كل ذلك تبعا لألسنتهم وما اعتادوا فى نطقهم كالامالة والتسهيل والنقل والابدال والادغام والتفخيم

والترقيق وغير ذلك من الخصائص التى أوضحها علماء التجويد والقراءة فى كتبهم المتداولة . وكان لبعض القبائل كذلك طرقهم فى صوغ الكلمات صوغا لغويا ، وفى ضبطها وفى أثرها الاعرابى ، وقد أوضح أئمة اللغة وعلماء النحو والمفسرون كل ذلك إيضاحا دقيقا شاملا . ومن الطبيعى أن يجىء القرآن العربى مسايرا لكل ذلك متضمنا أوجه الأداء العربى وخصائص اللغة العربية، مشتملا على لهجات العرب وطرائقهم ليكون هذا أدعى إلى اليسر والسهولة عليهم .

وكان النبى ﷺ بعد نزول الوحى إليه وحفظه الآية أو السورة يبلغها الناس، ويقرىء أصحابه إياها فيحفظونها ويكتبونها فى العسب واللخاف وقطع الأديم وغير ذلك ، وكان يطلق عليها الصحف . وبعد الحفظ والاتقان كان كل حافظ ينشر ما حفظه ، ويعلمه غيره ممن لم يشهدوا النزول ساعة الوحى، من أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الناس ، فلا يمضى يوم أو يومان إلا وما نزل محفوظ فى صدور كثير من الصحابة . وكان الحفظة والقراء يعرضون على النبى ﷺ ما يحفظون من القرآن ، وكانت قراءاتهم على اختلافها تطابق ما أوحى إليه ﷺ . وكان بعضهم فى أول الأمر ينكر ما يسمعه من غيره مخالفا لما تلقى عن النبى ﷺ ، ثم يحتكمون إليه ﷺ فيرشدهم . فقد أورد ابن الجزرى فى كتاب النشر فى رواية لأبى بن كعب قال :

« دخلت المسجد أصلى فدخل رجل فافتتح سورة النحل ، فقرأ فخالفنى فى القراءة ، فلما انفتل قلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ . ثم جاء رجل فقام يصلى فقرأ وافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى ، فلما انفتل قلت : من أقرأك قال : رسول الله ﷺ ، قال : فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبى ﷺ ، فقلت : استقرىء هذين ، فاستقرأ أحدهما ، قال : أحسنت ، فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان الجاهلية ، ثم استقرأ الآخر فقال : أحسنت ، فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فضرب رسول الله ﷺ صدرى

بيده وقال : أعيذك بالله يا أبي من الشك ، ثم قال : إن جبريل عليه السلام أتاني فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن أمتي ، ثم عاد فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين . فقلت : اللهم خفف عن أمتي ، ثم عاد فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف وأعطاك بكل ردة مسألة » (١) .

والأحرف السبعة المشار إليها في الحديث ليست هي القراءات السبع المتداولة الآن، لأن أصحاب هذه القراءات إنما وجدوا بعد ذلك . وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة ، وأفاض السيوطي في كتاب الاتقان في سرد الآراء المختلفة في ذلك ، وأوضح ابن الجزري ذلك أيضا في كتاب النشر، وفي رسالة للعلامة الشيخ محمد بخيت تسمى (الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن) إلمام بجميع أطراف الموضوع ، وفي كتب أخرى كثيرة غير هذه .

وأوضح الأقوال أن الأحرف السبعة هي أوجه من القراءة تتجلى فيها خصائص اللغة العربية ولهجات العرب وأساليبهم في النطق وفي الأداء كما أشرنا إلى ذلك .

قال ابن الجزري : « إنه تتبع القراءات فوجد أن اختلافها يرجع إلى سبعة أوجه :

(١) في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة ، نحو « البخل » بأربعة أوجه « ويحسب » بوجهين .

(٢) في المعنى فقط نحو « فتلقى آدم من ربه كلمات » برفع آدم ونصبه

(٣) في الحروف بتغيير المعنى لا الصورة نحو «تبلو» و «تتلو» ، « ننجيك ببدنك » بالجيم « وننحيك » بالحاء

---

(١) كتاب النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٢٠

(٤) عكس ذلك نحو بصطة وبسطة والصراط والسراط
(٥) بتغيرهما نحو يأتل ويتأل
(٦) فى التقديم والتأخير نحو فيقتلون ويقتلون، بضم أول المضارع أو فتحه
(٧) فى الزيادة والنقصان نحو وأوصى ووصى .

. . . وقال ابن قتيبة : إن وجوه الاختلاف فى القراءات سبعة وهى :

(١) الاختلاف فى الإعراب بما لا يزيل صورتها فى الخط ولا يغير معناها . نحو « هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » برفع أطهر ونصبها ، وهل يجازى إلا الكفور » برفع الكفور « وهل نجازى إلا الكفور » بنصبها .

(٢) الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها نحو « ربنا باعد » و « ربنا باعد » برفع « ربنا » ونصبه

(٣) الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو « كيف ننشرها » و « ننشزها »

(٤) الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها ومعناها نحو « طلع نضيد » فى موضع « طلح منضود »

(٥) الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتابة ولا يغير معناها نحو « كالعهن المنفوش » وكالصوف

(٦) الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو « وجاءت سكرة الحق بالموت »

(٧) الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « وما عملت أيديهم » وما عملته.

ثم قال ابن قتيبة : وكل هذه الحروف كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علق ابن الجزرى على ذلك بقوله: وهو حسن الا أن تمثيله بطلع نضيد وطلح منضود لا تعلق له باختلاف القراءات ، ولو مثل عوض ذلك بقوله « بضنين » بالضاد و « بظنين » بالظاء وأشد منكم ، « وأشد منهم » لاستقام . على أنه قد فاته كما فات غيره أكثر أصول القراءات: كالادغام والاظهار والاخفاء والإمالة والتفخيم وبين وبين

المد والقصر وبعض أحكام الهمز وكذلك الروم والاشمام على اختلاف القراءات وتغاير الألفاظ ، مما اختلف فيه أئمة القراء ، ولكن يمكن أن يكون هذا من القسم الأول . (١)

واختلاف الأحرف السبعة هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض .

وليس معنى نزول القرآن على سبعة أحرف أن كل آية أو كلمة تقرأ على سبعة أوجه ، بل المقصود أن هذه الأوجه السبعة متفرقة فى نواحيه وفى القراءات المختلفة ، فالقراءات وإن لم تكن هى الأحرف السبعة مشتملة عليها .

وقد كان جبريل يستعرض كل عام ما نزل من الوحى ، واستعرضه كله مرتين فى العرضة الأخيرة التى بين فيها ما نسخ وما بقى . ثم جمع القرآن فى حياة أبى بكر ، وحفظت الرقاع المشتملة عليه عند السيدة حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وظلت عندها فى خلافة عمر ، وفى خلافة عثمان تنازع الناس فى القراءات وأنكر بعضهم قراءة بعض . فقدحضر حذيفة بن اليمان فتح أرمينية وأذربيجان ، فرأى الناس يختلفون فى القرآن ويقول أحدهم للآخر : قراءتى أصح من قراءتك . فأفزعه ذلك وقدم على عثمان وقال : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى السيدة حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك فأرسلتها إليه . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام أن ينسخوها فى المصاحف وقال : إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم . فكتب منها عدة مصاحف ووجهها إلى الأمصار ، وهى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وأبقى واحدا بالمدينة .

وجردت هذه المصاحف من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبتت

(١) كتاب النشر ج ١ ص ٢٦

تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم، اذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط . والنقط الذى كان مستعملا فى زمن عثمان ليس هو النقط للإعجام أو الشكل ، وإنما كان عبارة عن علامات خاصة باللغات التى كان الصحابة يقرءون بها وكانت الصحف القرآنية المودعة عند السيدة حفصة مبينة فيها اللغات الأخرى، غير لغة قريش، بنقط على الحروف اصطلحوا عليها للدلالة على الامالة وضم ميم الجمع والاشمام والهمزة والتسهيل وغير ذلك من القراءات التى رواها أهل القبائل عن النبى صلى الله عليه وسلم . فأمر عثمان الكتبة أن يجردوا القرآن من هذه النقط ويكتبوه على لغة قريش فقط .(١)

ورسم مصاحف عثمان لا يجرى على طرق الرسم الاملائى التى نعرفها الآن ، فقد سلك الصحابة فى كتابة بعض الكلمات طريقة خاصة سار عليها الخلف وظلت إلى الآن .

قال ابن خلدون : « وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم . وكانت غير مستحكمة الاجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا، ويتبع رسمه خطأ أو صوابا . فاتبع ذلك وأثبت رسما، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه . ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ، ويقولون فى مثل زيادة الألف فى « لا أذبحنه » إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفى زيادة الياء فى « بأييد » إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى

---

(١) راجع كتاب تاريخ الادب لحفنى بك ناصف ج ٢ ص ٨٨ ، وكتاب تاريخ القرآن للزنجانى .

قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح الخ (١)

ويرجع ما فى رسم المصحف مما يجرى على غير القواعد المعروفة إلى ستة قواعد : الحذف والزيادة والهمز والبدل والوصل والفصل وما فيه قراءتان فكتب على احداهما ، وقد أوضح السيوطى كل ذلك وساق له الأمثلة فى كتاب الاتقان .

* * *

وقد استمر المسلمون يقرءون القرآن على النهج الذى تواتر فى الاحرف السبعة ما دامت القراءة تحقق الشروط الأساسية الثلاثة وهى : «١» كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه «٢» ووافقت أحد المصاحف العثمانية صراحة أو احتمالا «٣» وصح سندها .

وفى سنة ٣٣٢ رجح العلامة أبو بكر بن مجاهد (٢) أعلم أهل عصره فى علم القراءات ، اختيار القراء السبعة ، وكان لكل من هؤلاء القراء رواة كثيرون فاختار الناس منهم اثنين لكل قارىء .

والقراء ورواتهم هم :

(١) نافع

هو نافع بن نعيم ولد فى حدود سنه ٧٠ وتوفى سنة ١٦٩ وأصله من أصبهان ، وكان امام الناس فى القراءة بالمدينة ، انتهت اليه رياسة الاقراء بها ومن رواته : قالون وورش .

«١» فقالون هو أبو موسى عيسى بن مينا ويلقب بقالون .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٠ المطبعة الاميرية

(٢) هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمى الحافظ البغدادى شيخ الصنعة وأول من سبع السبعة. ولد سنة ٢٤٥ هـ ببغداد . وقد بعد صيته واشتهر أمره ، وفاق نظراءه. توفى فى شعبان سنة ٣٢٤ هـ .

ولد سنة ١٢٠ وتوفى سنة ٢٢٠ على الصواب . وكلمة قالون معناها بالرومية « جيد » وقد لقبه نافع بهذا اللقب لجودة قراءته .

«ب» وورش ولد سنة ١١٠ وتوفى سنة ١٩٧، وهو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصرى الملقب بورش ولد بمصر ثم رحل إلى المدينة ليقرأ على نافع، ثم رجع إلى مصر فانتهت اليه رياسة الاقراء بها ، وكان حسن الصوت بارعا فى العربية وفى التجويد .

(٢) ابن كثير (سنة ٤٥ -- ١٢٠)

وهو أبو معبد عبد الله بن كثير المكى . وأصله من أبناء فارس. وكان إمام الناس فى القراءة بمكة . ومن رواته البزى وقنبل

(ا) فالبزى (سنة ١٧٠ — سنة ٢٥٠) هو أبو الحسن احمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبى بزة . انتهت اليه مشيخة الاقراء بمكة

(ب) وقنبل (سنة ١٩٥ — ٢٩١) هو أبو عمر محمد انتهت اليه مشيخة الاقراء بالحجاز ورحل اليه الناس من الأقطار .

(٣) أبو عمرو بن العلاء البصرى ولد سنة ٦٨ وقيل سنة ٧٠ وتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة خمس وقيل سنة سبع . واختلف فى اسمه فقيل اسمه كنيته وقيل زيان . وقد نشأ بالبصرة ومات بالكوفة . وكان أعلم الناس بالقرآن وبالعربية مع الصدق والثقة والأمانة والدين . ومن رواته :

(ا) الدورى (توفى سنة ٢٤٦) وهو أبو عمر حفص بن عمر

(ب) السوسى (توفى سنة ٢٦١) وهو أبو شعيب صالح بن زياد السوسى. توفى وقد قارب السبعين .

(٤) ابن عامر (سنة ٢١ أو سنة ٨ — سنة ١١٨) وهو عبد الله بن عامر الدمشقى وكان إماما كبيرا وعالما شهيرا، أم المسلمين فى الجامع الأموى سنين كثيرة، وكان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يأتم به. وجمع له بين الامامة والقضاء ومشيخة الاقراء بدمشق . ومن رواته :

(ا) هشام (ولد سنة ١٥٣ وتوفى سنة ٢٤٥ وقيل سنة ٢٤٤) وهو أبو الوليد هشام بن عمار الدمشقى . كان عالم أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم مع الثقة والضبط والعدالة .

(ب) ابن ذكوان (ولد سنة ١٧٣ وتوفى سنة ٣٠٢ على الصواب) وهو أبو عمرو عبدالله بن احمد بن بشير بن ذكوان ، وكان شيخ الاقراء بالشام وامام الجامع الأموى .

(٥) عاصم (توفى سنة ١٢٧ وقيل سنة ٢٨) وهو أبو بكر عاصم بن أبى النجود .

كان هو الامام الذى انتهت اليه رياسة الاقراء بالكوفة جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير والتجويد . ومن رواته .

(ا) أبو بكر شعبة بن عياش بن سالم الكوفى (سنة ٩٥ — ١٩٣) وكان إماما عالما حجة من كبار أئمة السنة .

(ب) حفص (ولد سنة ٩٠ توفى سنة ١٥٦) وهو أبو عمرو حفص بن سليمان الكوفى . وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته .

(٦) حمزة (ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٥٦ على الصواب) وهو أبو عمارة حمزة بن حبيب الكوفى كان إمام الناس فى القراءة بالكوفة بعد عاصم ، وكان ثقة حجة عارفا بالعربية حافظا للحديث ورعا عابدا خاشعا ومن رواته:

(ا) خلف (سنة ١٥٠ — سنة ١٢٩) وهو أبو محمد خلف بن هشام .

(ب) خلاد (توفى سنة ٢٢٠) وهو أبو عيسى خلاد بن خالد الكوفى .

(٧) الكسائى (توفى سنة ١٨٩ عن سبعين عاما) وهو أبو الحسن على ابن حمزة النحوى كان إمام الناس فى القراءة فى زمانه وأعلمهم بالنحو وأوحدهم فى الغريب وفى القرآن . ومن رواته :

(ا) أبو الحارس البغدادى الليث بن خالد توفى سنة ٢٢٠

(ب) الدورى راوى أبى عمرو بن العلاء

(٨) أبو جعفر (توفى سنة ٢٣٠ على الأصح) . انتهت إليه رياسة القراءة بالمدينة . ومن رواته :

(ا) ابن وردان (توفى سنة ٢٦٠) .

(ب) ابن جماز (توفى سنة ٢٧٠) .

(٩) يعقوب البصرى (توفى سنة ٢٠٥ وله ثمان وثمانون سنة) .

انتهت إليه رياسة القراء بعد ابى عمرو . وكان إمام جامع البصرة. قال أبو حاتم السجستانى : هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف فى القراءات ومذاهب النحو . وقدائتم به عامة البصريين بعد ابى عمرو، فهم أو أكثرهم على مذهبه . ومن رواته :

(ا) رويس (توفى سنة ٢٣٨ بالبصرة) وهو محمد ابن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤى البصرى ، مقرىء حاذق من احذق أصحاب يعقوب .

(ب) روح (توفى سنة ٢٢٤ أو سنة ٢٢٥) .

هو روح بن عبد المؤمن مقرىء جليل فقه من خيرة أصحاب يعقوب

(١٠) خلف . تقدمت الاشارة إليه فى رواة حمزة .

ومن رواته :

(ا) إسحق الوراق «توفى سنة ٢٨٦» وهو إسحق بن ابراهيم بن عثمان ابن عبد الله أبو يعقوب المروزى ثم البغدادى .

(ب) إدريس « توفى سنة ٢٩٢ عن ثلاث وتسعين سنة » وهو إدريس ابن عبد الكريم الحداد أبو الحسن البغدادى إمام ضابط متقن فقه .

* * *

هؤلاء هم القراء ورواتهم ، ولهم أتباع أخذوا عنهم القراءات والروايات والطرق .

(١) فالقراءة : هى كل ما ينسب لإمام من الأئمة

(٢) والرواية : هى ماينسب لآخذ عن إمام ولو بواسطة .

(٣) والطريق . ماينسب لمن أخذ عن الرواة وإن سفل ، وكل هذا يكون سلسلة محكمة الحلقات ، وصفحات ناصعة سطرها علماء ثقات كان لهم عظيم الفضل فى تدوين القراءات على أحكم نهج من الدقة والتحرى .

ولو رجعت فى كتب القراءات إلى تسلسل النقل فى طرقه، لرأيت مثلا أعلى من إحكام الضبط والتدقيق البالغ غايته فى شتى النواحى المتصلة بالقرآن الكريم وكلماته وآياته وطرق أدائه. وفى كتاب « غاية النهاية » لابن الجزرى وكتاب النشر له أيضا ، وغيرهما من كتب القراءات تسجيل دقيق لسلسلة القراء وأخذ بعضهم عن بعض .

والقراء الذين اشتركوا فى هذا هم إلى جانب إجادة القراءات ، علماء فى اللغة وفى القواعد النحوية ، ومنهم أعلام فى هذه الناحية مثل أبى عمرو ابن العلاء والكسائى .

وذلك لأن القراءات تتجلى فيها خصائص اللغة العربية ، وما من وجه من وجوه القراءات أو أسلوب من أساليب الضبط الصرفى أو الاعرابى ، إلا له سبب يرتكز عليه من لغة العرب ومن القواعد العربية . فالقرآن الكريم أنزل بلسان عربى مبين . ولقد كانت القراءات ومافيها من خصائص عربية حافزا لهؤلاء العلماء على البحث عن الأسباب والتوجيهات الإعرابية والصرفية واللغوية ، فبحثوا فى كلام العرب عما يؤيد هذه القراءات . بل إن القرآن الكريم كان منبعا ثقافيا عظيم الشأن . وباعثا على الاشتغال بشتى ألوان الثقافة العربية والشرعية ، كاللغة والأدب والتاريخ والتفسير والفقه وغير ذلك

* * *

والمظاهر العربية التى تتجلى فى القراءات كثيرة نشير إلى شىء منها فيمايلى:

(أوجه الإعراب) مثل :

(١) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب .

برفع البر على أنها اسم ليس ونصبها على أنها خبر مقدم .

(٢) فدية طعام مسكين .

باضافة فدية إلى ما بعدها ، أو بتنوينها ورفع طعام على البدلية أو على أنها خبر لمبتدأ محذوف .

(٣) وزلزلوا حتى يقول الرسول .

برفع يقول أو نصبه ، فالرفع على أن التقدير : فقال الرسول ، فالزلزلة سبب القول ، وكلا الفعلين ماض فلم تتوافر الشروط لعمل حتى . والنصب على أنها غاية والفعل مستقبل حكيت به حالهم ، والمعنى على المضى .

(٤) ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو .

برفع العفو ونصبه ، فالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى المنفق العفو وهو الزائد . والنصب على أنه مفعول .

(٥) وإن تك حسنة يضاعفها

برفع حسنة أو نصبها ، على أن كان تامة أو ناقصة .

(٦) والله ربنا ما كنا مشركين .

بنصب ربنا وجره ، فالنصب على أنه منادى أو على اضمار أعنى ، والجر على أنه صفة .

(٨) وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم .

ببناء الفعل زين للمعلوم ونصب قتل على أنه مفعول ، وجر كلمة أولادهم على أنها مضاف إليه ، ورفع كلمة شركاؤهم على أنها فاعل زين . أو ببناء الفعل زين للمجهول ورفع قتل على أنه نائب فاعل ونصب أولادهم على أنه مفعول ، وجر شركائهم بالاضافة ، وفصل بين المتضايفين بالمفعول . أو بجر أولادهم على الاضافة ، وجر شركائهم على البدلية من أولادهم .

(٨) وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

برفع الفعل تزول وفتح اللام ، وتكون إن مخففة . أو بنصب الفعل

وكسر اللام للتعليل ، وتكون إن نافية . أو إن مخففة أى مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال فى الثبات .

(٩) رب هب لى من لدنك وليا يرثنى .

برفع الفعل المضارع أو بجزمه فى جواب الطلب .

(١٠) فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا .

برفع المضارع على أن الجملة مستأنفة أوحالية أو صفة لطريقا ، والتقدير لا تخاف فيه ، أو بجزم المضارع على النهى أو فى جواب الأمر .

* * *

والأمثلة على ذلك كثيرة تجدها فى كتب القراءات (١) . وتجد التوجيهات الاعرابية فى كتب التفسير وفى كتب إعراب القرآن مثل، كتاب املاء مامن به الرحمن فى إعراب القرآن ، للعكبرى ، وغير ذلك .

(النواحى الصرفية) مثل :

«١» وإن يأتوكم أسرى تفادوهم . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم .

«٢» فمن خاف من موص جنفا . اسم الفاعل من أوصى أو من وصى .

«٣» ولتكملوا العدة . مضارع أكمل أو كمل بتشديد الميم .

«٤» وإلى الله ترجع الأمور . ببناء الفعل للمعلوم أو المجهول .

«٥» فنظرة إلى ميسرة . بضم السين أو فتحها .

«٦» وان تصدقوا خير لكم بتشديد الصاد أو تخفيفها .

«٧» إن الله يبشرك بيحي . مضارع بشر الثلاثى أوبشر المضعف أوأبشر .

«٨» واتقوا الله الذى تساءلون به . بتشديد السين أو تخفيفها .

«٩» وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . مضارع ضل الثلاثى أوأضل .

«١٠» وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه . بفتح نون الفعل وضمها .

(النواحى اللغوية)

---

(١) راجع كتاب التيسير للدانى وكتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى

«١» ادخلوا فى السلم كافة . بفتح السين أو كسرها

«٢» فهل عسيتم ، بفتح السين أو كسرها «٣» بالغداة أو بالغدوة

«٤» يوم حصاده ، بفتح الحاء أو كسرها

«٥» ولا تك فى ضيق . بفتح الضاد أو كسرها

«٦» وكنت نسيا ، بفتح النون وكسرها

«٧» كأنهم إلى نصب يوفضون ، بضمتين فى « نصب » أو بفتح فسكون

«٨» لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، بتشديد الذال أو تخفيفها .

(تغيير الحركات للتخفيف) مثل :

«١» فمن اضطر – أن احكم – لكن انظر . بتحريك النون بالضم أو الكسر

«٢» رسلنا – رسلكم – رسلهم . بسكون السين أو بضمها

«٣» فى الدرك الأسفل ، بسكون الراء أو فتحها

«٤» والأذن بالأذن ، بضم الذال أو سكونها

«٥» بورقكم هذه ، بسكون الراء أو كسرها

(الحذف) مثل .

أجيب دعوة الداع إذا دعان – واتقون يا أولى الألباب – هدان – ثم كيدون – يوم يأت لا تكلم نفس إلا بأذنه – ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد .

(الامالة)

وأمثلتها كثيرة فى قراءة الأئمة . وقد قال ابن الجزرى إن كل القراء العشرة يميلون إلا ابن كثير .

ومواطن الإمالة موضحة فى كتب القراءات .

(الهمز)

تجرى على الهمزة أحكام ، منها : ١ ـ تحقيقها ، ٢ ـ وتسهيلها، ٣ ـ وادخال الف بين الهمزتين المجتمعتين فى كلمة ، ٤ ـ وقلبها حرفا من جنس حركة

ما قبلها ، ٥ ـ ونقل حركتها إلى الساكن قبلها ، ٦ ـ والسكت على الساكن قبلها ، ٧ ـ والوقف عليها بقلبها وإدغامها فيما قبلها .

وكل هذا إما للتخفيف بسبب صعوبة الهمزة فى النطق بها ، وإما لتحقيقها خوفا من خفائها . وأمثلة ذلك كثيرة فى القراءات .

كل هذه الأمثلة وغيرها من القراءات تنطبق عليها خصائص لغة العرب ومظاهر لهجاتهم وأساليبهم فى النطق وفى الاداء .

ومن ذلك يتضح أن الصلة وثيقه بين القراءات والقواعد النحوية ولهجات العرب .

وترتكز كل هذه الأوجه من الأداء والضبط على أن اللغة العربية تمتاز بالمرونة ، وبأنها معنوية تجعل المعنى أساسا وتدع المجال فسيحا لأساليب التعبير فى حدود مرنة تسمح بالافتنان فى أداء المعنى ، وفى طرق الإفصاح عنه وفى ضبط الكلمات .

وإلى جانب هذه المرونة ظاهرة أخرى ، وهى الميل إلى التجانس . وإنا نشير إلى بعض نواحى هاتين الظاهرتين فيما يلى :

المرونة فى اللغة العربية

يميل العربى إلى الحرية فى حياته وفى أعماله . فقد درج فى كنف الطبيعة ، يعتز بشخصه ، ويعتمد على نفسه فى الدفاع وفى الكسب .

وكان لهذه الحرية أثرها فى لغته وفى مرونتها من ناحيتيها المعنوية واللفظية .

المرونة المعنوية

أما من الناحية المعنوية فكان الأساس لديه هو صوغ المعنى والعناية بوصوله إلى المستمع ، ولذا تصرف فى وجوه التعبير بكثير من الوسائل .

واللغة العربية من أكثر اللغات ميلا إلى الافتنان فى التعبير وطرق أداء المعنى مع الحرص على التفصيل فى تحديده .

فمن ذلك :

(١) الحذف والاختصار إذا دل على المحذوف دليل :

يقولون والله أفعل ذاك يريدون لا أفعل . وفى القرآن الكريم (واسأل القرية) أى أهلها .

(وإذن لأذقناك ضعف الحياة) أى ضعف عذابها . (اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) معناه فإذا عزم الأمر كذبوا .

(٢) الواحد يراد به الجمع ، مثل : هؤلاء ضيفى - ثم يخرجكم طفلا .

(٣) مخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، مثل : يأيها النبى إذا طلقتم النساء - قال رب ارجعون .

(٤) مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين : مثل قول الشاعر :

فان تزجرانى يا ابن عفان انزجر   وإن تدعانى احم عرضا ممنعا

وقال تعالى (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) وهو خطاب لخزنة النار .

ويقول العلماء إن أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر الناس قولا : يا صاحبى ، يا خليلى .

(٥) الجمع بين شيئين ثم ذكر أحدهما دون الآخر . مثل قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها » أى ولا ينفقونهما . وقوله تعالى « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها » أى انفضوا إليهما .

(٦) اجراء الاثنين مجرى الجمع ، مثل قوله تعالى « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » .

(٧) ومن ذلك ما هو مبين فى علم المعانى من استعمال الخبر فى موضع الانشاء ، واستعمال أنواع الانشاء فى غير معناها الأصلى .

ومنه أيضا ما هو موضح فى مبحث الخروج عن مقتضى الظاهر فى علم المعانى .

التضمين

وهو اشراب لفظ معنى لفظ آخر فيعطى حكمه . وفائدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين مثل قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » ضمن تأكلون معنى تضمونها آكلين ، وقوله تعالى (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) أى فلن تحرموا ثوابه ، ولذا عدى إلى اثنين . وقوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) أى يميز ولذا عدى بمن (١) .

وقد اختلف فى التضمين أقياسى هو أم سماعى . والأكثرون على أنه قياسى . وضابطه أن يكون الأول والثانى بحيث يجتمعان فى معنى عام (٢) وللعلماء فى التضمين آراء مختلفة (٣) :

« ١ » فقال بعضهم أنه مجاز مرسل لأنه استعمال اللفظ فى غير معناه لعلاقة بينهما وقرينة .

« ٢ » وقيل إن فيه جمعا بين الحقيقة والمجاز لدلالة المذكور على معناه بنفسه ، وعلى معنى المحذوف بالقرينة .

وقد عرف التضمين العز بن عبد السلام فى كتابه مجاز القرآن بقوله فى مجاز التضمين : هو أن يضمن اسم معنى اسم لإفادة معنى الاسمين ، كقوله تعالى (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) فيضمن حقيق معنى حريص.

وقول الشاعر : قد قتل الله زيادا عنى

---

(١) المغنى جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٢) شرح التصريح جـ ١ ص ٣٥٦

(٣) حاشية ياسين على شرح التصريح جـ ٢ ص ٤ ومحاضر جلسات مجمع فؤاد الاول للغة العربية ص ٢٠٩ من دور الانعقاد الاول

ضمن قتل معنى صرفه لإفادة أنه صرفه حكما بالقتل دون ماعداه من الأسباب فأفاد معنى القتل والصرف جميعا .

« ٣ » وقيل إن المذكور مستعمل فى حقيقته لم يشرب معنى غيره. وعلى هذا جرى صاحب الكشاف . فهو لايرى أن فى التضمين مجازا ولا الجمع بين الحقيقة والمجاز، وأنه مع استعماله فى المذكور يدل على المحذوف . فإذا قلت أحمد إليك فلانا فمعناه أحمده منهيا اليك حمده .

« ٤ » وذهب بعضهم إلى أن اللفظ مستعمل فى معناه الحقيقى فقط والمعنى الآخر مراد بلفظ محذوف يدل عليه ماهو من متعلقاته ، فتارة يجعل المذكور أصلا فى الكلام والمحذوف قيدا فيه على أنه حال ؛ كما فى قوله تعالى (ولتكبروا الله على ماهداكم) كأنه قال ولتكبروا الله حامدين على ماهداكم .

وتارة يعكس فيجعل المحذوف أصلا والمذكور مفعولا كقولك أحمد اليك فلانا كأنك قلت أنهى اليك حمده .

« ٥ » يرى بعضهم أن اللفظ مستعمل فى معناه الأصلى ، فيكون هو المقصود أصالة لكن قصد بتبعيته معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل فيه ذلك اللفظ ، ويقدر له لفظ آخر فلا يكون من الكناية ولا الاضمار ، بل من الحقيقة التى قصد منها معنى آخر يناسبها ويتبعها فى الارادة .

« ٦ » ويرى بعضهم أن المعنيين مرادان على طريق الكناية ، فيراد المعنى الأصلى توصلا إلى المقصود ، ولا حاجة إلى التقدير إلا لتصوير المعنى .

« ٧ » ويرى بعضهم أن دلالته ليست حقيقة ولا تجوزا فى اللفظ ، وإنما التجوز فى إفضائه إلى المعمول وفى النسبة غير التامة ، ونقل ذلك عن ابن جنى .

« ٨ » (اعطاء الشىء حكم ما اشبهه فى معناه أو فى لفظه أو فيهما) (١)

مثل :

---

(١) المغنى ج ٢ ص ١٧١

(١) دخول الباء فى خبر أن فى قوله تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر) لأنه فى معنى أو ليس الله بقادر. والذى سهل التقدير تباعد ما بينهما .

(٢) تعدى رضى بعلى فى قول القحيف بن حمير العقيلى يشبب بخرقاء التى شبب بها ذو الرمة :

إذا رضيت على بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

ولا تنبو سيوف بنى قشير ولا تمضى الأسنة فى صفاها

ضمن رضى معنى أقبل عليه أو عطف عليه . وقال الكسائى إنما جاز هذا حملا على نقيض سخط . وقال المبرد فى الكامل : بنو كعب بن ربيعة يقولون رضى الله عليك .

(٣) زيادة « إن » بعد ما المصدرية الظرفية وبعد ما الموصولة لأنهما بلفظ ما النافية . كقوله :

ورج الفتى للخير ما إن رأيته على السن خيرا لا يزال يزيد

وقوله :

يرجى المرء ما إن لا يراه ويعرض دون أدناه الخطوب

فهذان محمولان على قول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم هانىء أينق جرب

(٩) « التغليب » [1]

يغلبون على الشىء ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط ، فلهذا قالوا الأبوين فى الأب والأم والمشرقين والمغربين . ومثله الخافقان فى المشرق والمغرب وإنما الخافق المغرب وسمى خافقا مجازا وإنما هو مخفوق فيه، والقمران فى الشمس والقمر ، وقالوا المروتين فى الصفا والمروة .

---

(١) المغنى ج ٢ ص ١٧٦

ومنه إطلاق «من» على مالا يعقل فى نحو قوله تعالى «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع».

والمذكر على المؤنث كقوله تعالى وكانت من القانتين.

(١٠) «التقارض» (١)

هو تبادل الأخذ والقرض، وتناوب الحالات النحوية للقواعد وللكلمات فى مجاراة بعضها لبعض. بأن يستعير كل واحد من الحالين أو اللفظين من الآخر حكما هو أخص به.

وهو أنواع:

(١) فمنه حمل الجر على النصب فى باب مالا ينصرف، كما حمل النصب على الجر فى باب جمع المؤنث السالم وفى التثنية وجمع المذكر السالم. طلبا للمقارضة

(٢) ومنه ابدال الهمزة من الهاء فى ماء وشاء، والأصل موه وشوه، أيهات والأصل هيهات. وذلك لضرب من التقارض لكثرة ابدال الهاء من الهمزة. قالوا هن فعلت والمراد أن فعلت.

(٣) ومنه قلب الهمزة فى نحو صحراء واوا فى جمع المؤنث، فيقال صحراوات. لأن الواو قد تبدل همزة فابدلت الهمزة واوا طلبا للتقارض.

(٤) ومنه ماذكره ابن هشام فى كتاب المغنى (٢) فى تقارض اللفظين وقد ذكر له أمثله منها:

(١) اعطاء «غير» حكم «إلا» فى الاستثناء بها واعطاء «إلا» حكم غير فى الوصف بها.

(٢) اعطاء ان المصدرية حكم ما المصدرية فى الاهمال كقوله:

أن تقرآن على اسماء ويحكما منى السلام وأن لاتشعرا احدا

---

(١) الاشباه والنظائر ج ١ ص ١٥٠

(٢) ج ٢ ص ١٨٢.

وإعمال «ما» حملا على «إن» نحو كما تكونوا يولى عليكم .

(٣) اعطاء إن الشرطية حكم لو فى الاهمال كما روى فى الحديث : فإن لاتراه فإنه يراك ، واعطاء لو حكم إن فى الجزم كقوله :

لو يشأ طار بها ذو ميعة   لاحق الآطال نهد ذو خصل (١)

(٤) اعطاء إذا حكم «متى» فى الجزم بها كقول عبد القيس البراجمى :

استغن ما اغناك ربك بالغنى   واذا تصبك خصاصة فتحمل

واهمال «متى» حكما لها بحكم اذا ، كقول عائشة رضى الله عنها (٢) «وانه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس»

«٥» اعطاء ما النافية حكم ليس فى الإعمال وهى لغة أهل الحجاز ، واعطاء ليس حكم «ما» فى الاهمال عند انتقاض النفى بإلا كقولهم ليس الطيب الا المسك وهى لغة بنى تميم .

* * *

كل هذه أنواع من المرونة والافتنان فى التعبير عن المراد ، واستخدام بعض الكلمات مكان بعض . وأساس كل هذا هو المعنى والعناية بأدائه .

المرونة اللفظية

(وأما من الناحية اللفظية) ، فان العربى قد الف أن يطلق العنان لجهازه الصوتى على سجيته . فلا يمنع أن يمتزج المتماثلان أو المتقاربان من الحروف . وقد ساعده على ذلك أن اللغة العربية فى عصورها الأولى لم تكن مكتوبة ، فكان اللسان والسمع هما العاملين فى نقل اللغة وتلقيها ، ولم تكن هناك

---

(١) لاحق الآطال : ضامر الجنبين نهد : قوى والبيت معزو فى الحماسة لامرأة من بنى الحارث ﺟ ١ ص ٤٦٣ وقيل لعلقمة .

(٢) فى استنابة أبيها رضى الله عنه فى مرضه صلى الله عليه وسلم ليصلى بالناس .

تلك القيود الكتابية التى يتقيد بها من يتلقى اللغة ويحدد معالم كلماتها وصور حروفها ، ولهذا سارت اللغة العربية فترة من الزمن تتمتع بهذه الحرية فنمت كلماتها وصقلت ألفاظها . فخلو اللغة العربية فى مراحلها الأولى من التقييد ، وان كان سببا فى شيء من الاختلاف فى رواية الأشعار والآثار وضبط الكلمات ، ولكنه أتاح الفرصة لكثير من نواحى التهذيب والصقل والنمو فى مفرداتها وأساليبها . ولم تكن الحال كذلك فى اللغات السامية الأخرى التى عاصرت اللغة العربية وكانت مقيدة بالكتابة، فان ذلك كان قيدا لها من بعض النواحى . فلم يتسع أمامها المجال للنمو كما اتسع للغة العربية .

فأمية العرب فى عصورهم الأولى كانت خيرا على اللغة فى كثير من الوجوه

ومن مظاهر المرونة اللفظية :

(النحت)

هو أن ننحت من كلمتين كلمة واحدة . وهو جنس من الاختصار (١) مثل عبشمى نسبة إلى عبد شمس ، وعبدرى نسبة إلى عبد الدار وعبقسى نسبة إلى عبد القيس وبسمل إذا قال باسم الله وحوقل أو حولق إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله ، وحمدل إذا قال الحمد لله ، وجعفد إذا قال جعلت فداك، وطلبق إذا قال أطال الله بقاءك، ودمعز إذا قال أدام الله عزك ، وحسبل إذا قال حسبى الله . ويقال تعبشم إذا تعلق بسبب من أسباب عبد شمس ، وتعبقس إذا تعلق بعبد القيس .

ثم قال ابن فارس: وهذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثه أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد ضبطر (كهزبر) من ضبط وضبر ، وقولهم صهصلق (للعجوز الصخابة وللصوت الشديد) إنه من صهل وصلق (صات صوتا شديدا) ، وفى الصلدم للأسد وللصلب الشديد الحافر إنه من الصلد والصدم .

---

(١) الصاحبى لابن فارس ص ٢٢٧ .

(الإدغام)

وهو أن تأتى بحرفين ساكن فتحرك من مخرج واحد من غير فصل. ويكون فى المثلين والمتقاربين ، ففى المثلين يجب الادغام عند سكون الأول وعند تحركهما فى كلمة .

وشروط الادغام فى المثلين موضحة فى كتب القواعد .

والادغام فى المتقاربين يكون بإسكان الأول وقلبه كالثانى ، مثل خلقكم ويرزقكم، ومثل ادغام الباء فى الميم فى يعذب من يشاء، وإدغام الراء فى اللام فى يغفر لمن يشاء . وإدغام التاء فى الزاى فى :فالزاجرات زجرا ، إلى الجنة زمرا . وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب القراءات وكتب التجويد .

(الإمالة)

وهى من مظاهر المرونة التى جاءت على ألسنة العرب ، وهى لغة لبعض القبائل ، وقد أوضحنا ذلك من قبل .

(النون والتنوين وأحكامهما)

وللنون الساكنة والتنوين فى النطق أحكام، وهى : الادغام والقلب والاخفاء «فالادغام» ويكون بغنة وبغير غنة مثل: من ربهم، من ثمرة رزقا ، فان لم تفعلوا ، هدى للمتقين ، فمن يعمل ، كتاب من عند الله .

«والقلب» يكون عند الباء مثل أنبئهم وصم بكم .

« والاخفاء » وهو حالة بين الاظهار والادغام. وفيها يكون مخرج النون والتنوين من الخيشوم فقط مثل : خلق جديد، انجيتنا، إن شاء، غفور شكور .

ومواطن الادغام والقلب والاخفاء واحكامها موضحة فى كتب القراءات والتجويد (١) .

(الابدال والاعلال)

الابدال هو جعل حرف مكان آخر . والحروف التى تبدل من غيرها

---

(١) راجع كتاب النشر ج ٢ ص ٢١

إبدالا شائعا لغير إدغام تسعة وهى أحرف العلة الثلاثة والهمزة والتاء والدال والطاء والميم والهاء .

والاعلال هو تغيير حرف العلة بالقلب أو التسكين أو الحذف ، وكل هذا موضح فى أماكنه من كتب القواعد الصرفية .

وهناك ألوان من الابدال غير الشائع وقد أشرنا اليها (١)

ولو درس كل هذا فى ضوء علم الأصوات اللغوية والمراحل التى قطعتها اللغة فى تدرجها ، وفى ضوء مخارج الحروف وصفاتها وتقاربها وتباعدها وما ينشأ عن كل هذا من تغيير، لظهر لنا أن ما فى اللغة من إعلال أو إبدال له من أصول علم الأصوات أساس قوى .

كل هذه ظواهر فى اللغة العربية بدت على ألسنة الناطقين بها طوعا للمرونة اللفظية التى خضعت لها ألسنتهم، وللعوامل التى لا تزال تخضع لها اللغات غير المكتوبة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما نراه فى اللغات العامية التى تتلقى بطريق السمع واللسان .

ولو رجعنا إلى ما أوضحنا فى طرائق النطق ومخارج الحروف وصفاتها لظهرت لنا أسباب هذه المرونة اللفظية .

على أننا لا نريد بهذا أن نقول أن اللغة العربية يجب أن يدخلها التغيير والتبديل على أساس هذه المرونة، ولا أن نقرر أن المرونة يجب أن تتحكم فى اللغة، وأن يتسع لها الميدان باستمرار ، وإنما أردنا أن نشير إلى الواقع الذى تجلى فى اللغة العربية فى تدرجها .

ونعتقد أن تعرف هذه الخصائص التى ظهرت فى اللغة العربية يساعد فى كثير من نواحى الاصلاح الذى نأمل أن يتسع ميدانه على أساس من روح اللغة ومقوماتها وأصولها، وقد ظهرت بوادر ذلك فى بعض وجوه الاصلاح القياسى التى أقرها مجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر ، وسنشير إلى ذلك فى مبحث القياس .

---

(١) ص ١٥٠

التجانس فى اللغة العربية

الميل إلى التجانس صفة فى الانسان ، فقد خلقه الله فى أحسن تقويم ، وصوره فى تجانس وتوازن . وقد اوحت إليه مظاهر الكون بمثل هذا التجانس، لما فيها من انسجام نراه فى الازهار والاشجار ، ونسمعه فى الحان الطير وتغريده ، وقد بدا هذا التجانس بمظاهر مختلفة فيما أبرز الانسان من فن فى الموسيقى والتصوير والشعر وغير ذلك.

ولم يكن للعرب حظ من الفن بمعناه التام الا فى بعض المراحل من تاريخهم فى عصورهم الزاهرة ، وكل ما كان لهم من نصيب فى مظاهر الفن الموسيقى أو غيره قد تجلى فى لغتهم ، بما تضمنت من رنين موسيقى وانسجام لفظى أو معنوى . فكانت اللغة هى مستودع فنهم ومظهر ميولهم الموسيقية وغيرها .

وقد بدا ذلك فى مظاهر كثيرة ، منها :

(١) الشعر الموزون المقفى وما فيه من ألوان موسيقية متجانسة فى شطرى كل بيت .

(٢) المحسنات البديعة اللفظية والمعنوية كالسجع والجناس والمقابلة .

(٣) التطابق :

وهو واضح فى اللغة العربية فى التجانس بين الصفة والموصوف والمبتدأ والخبر والحال وصاحب الحال فى الإفراد والتثنية والجمع وفى التذكير والتأنيث وكذلك فى حالات الإعراب فى التوابع .

(٤) الارتباط بين اجزاء الجملة بذكر التابع عقب المتبوع ، وعدم الفصل بين الكلمات المرتبطة . فلا يقبل عكس كل ذلك إلا بدليل .

(٥) حفظ التوازن بالزيادة وبالحذف . مثل قوله تعالى « وتظنون بالله الظنونا » بزيادة الف فى الآخر ، وقوله تعالى « والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر » بحذف الياء من يسرى .

(٦) الإتباع

وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعا وتأكيدا. وروى أن بعض العرب سئل عن ذلك فقال: هو شىء نتد به كلامنا، أى نؤكده، وهو من سنن العرب فانها تزيد وتحذف حفظا للتوازن وإيثارا له.

وهو أنواع منها:

(ا) إتباع كلمة لأخرى فى الوزن مثل: ساغب لاغب ـ عطشان نطشان ـ جائع نائع ـ حسن بسن ـ عفريت نفريت ـ حاذق باذق ـ تافه نافه ـ سدمان ندمان.

وقد تكون الكلمة الثانية ذات معنى، وقد تكون غير واضحة المعنى ولا بينة الاشتقاق.

ومن هذا النوع بعض ألفاظ التوكيد نحو جاءوا اجمعون اكتعون ابتعون.

(ب) إتبـاع حركة آخر الكلمة المعربة لحركة أول الكلمة بعدها أو بالعكس، كقراءة الحمد لله بكسر الدال اتباعا لكسرة اللام، أو بضم اللام اتباعا لحركة الدال.

(ح) إتباع حركة الحرف الذى قبل الآخر لحركة الاعراب، وذلك فى امرىء وابنم فان الراء والنون يتبعان الآخر فى حركة الاعراب.

(د) اتباع حركة الآخر لما قبلها فى الفعل المضعف المضارع المجزوم والأمر إذا لم يفك الادغام فيهما فى بعض اللغات مثل: عض ولم يعض بالفتح، وفر ولم يفر بالكسر، ورد ولم يرد بالضم.

(ه) اتباع حركة العين للفاء فى جمع المؤنث السالم حيث وجد شرطه، مثل تمرات بالفتح وسدرات بالكسر وغرفات بالضم.

(و) اتباع حركة الميم لحركة الخاء والتاء والغين فى قولهم منخر ومنتن ومغيرة. ولعل من ذلك ما تجرى به الألسنة فى مثل كلمة مجىء من كسر الميم.

(ز) اتباع الكلمة فى التنوين لكلمة أخرى كقوله تعالى « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » وقوله تعالى « انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا »

(ح) اتباع كلمة لأخرى فى فك ما استحق الادغام كحديث . أيتكن صاحبة الجمل الادبب تنبحها كلاب الحوأب (١) , فك ادغام الادبب وقياسه الادب .

«ط» اتباع كلمة فى ابدال الواو فيها همزة لهمزة فى أخرى كحديث «ارجعن مأزورات غير مأجورات » والأصل موزورات من الوزر .

«ى» اتباع ضمير المذكر لضمير المؤنث كحديث « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن » والأصل أضلوا .

(٧) المحاذاة . ويمكن اعتبارها نوعا من الاتباع فى بعض نواحيها .

قال ابن فارس فى كتاب الصاحبى (٢) :

ومن سنن العرب المحاذاة ، وذلك أن نجعل كلاما بحذاء كلام ، فيؤتى به على وزنه لفظا وإن كانا مختلفين . فيقولون : الغدايا والعشايا . وقال تعالى حكاية عن سليمان «وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » فليس هذا موضع قسم ، لأنه عذر للهدهد ، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتى بعذر ، ولكنه لما جاء به على أثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه .

ومن ذلك جزاء الفعل بمثله . كقوله تعالى « ومكروا ومكر الله »

* * *

هذه هى بعض مظاهر الميل إلى التجانس .

ولعل اللغة العربية أغنى اللغات فى نواحى التجانس وأكثرها بها عناية . وقد يرجع هذا إلى عوامل منها : ذلك الميل الذى درجت عليه اللغة العربية ،

---

(١) منزل بين البصرة ومكة وهو الذي نزلت به السيدة عائشة والادبب الكثير الوبر

(٢) ص ١٩٥

وهو ايثار التوازن فى الألفاظ والعبارات . ومنها كما قلنا انصراف الجهود الفنية والموسيقية للعرب إلى لغتهم وبيانهم وبلاغتهم ومايكون فى أسلوبهم من روعة وجمال ، فكانت لغتهم هى المسرح الذى تجلت فيه جميع هذه المظاهر .

ولقد كان للطابع الذى طبعت به اللغة فى ناحيتى المرونة والتجانس أثر فى التخريجات والتأويلات النحوية والتوجيهات الاعرابية ، التى سلك النحاة سبيلها مسترشدين بما هداهم اليه بحثهم فى خصائص اللغة وأساليب العرب فى أدائهم وتعبيرهم .

(أمثلة من التأويل والتخريج النحوى)

(١) زعم الاخفش والكوفيون أن « ثم » تقع زائدة فلا تكون عاطفة، وحملوا على ذلك قوله تعالى « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ». وقول زهير :

أرانى إذا أصبحت أصبحت ذاهوى ‏ ‏ فثم إذا أمسيت أمسيت غاديا

وخرجت الآية على تقدير جواب محذوف أو أن « إذا » لمجرد الزمان فلا تحتاج لجواب . وخرج البيت على زيادة الفاء لأن زيادتها معهودة بخلاف ثم (١) .

(٢) قال الكوفيون والأخفش إن الواو تقع زائدة ، وحمل على ذلك قوله تعالى « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » بدليل الآية الأخرى . أو أن الزائدة هى الواو الثانية .

وكذلك قوله تعالى « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » الأولى أو الثانية زائدة .

وكذا قوله :

---

(١) المغنى جـ ١ ص ٩٩ . والاشمونى جـ ٣ ص ٧٢

فما بال من أسعى لاجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاهته كسرى

ويقول بعضهم إن الواوين فى الآيتين عاطفتان والجواب محذوف وفى البيت الواو لا تصلح للحال ، لأن المضارع المثبت لا يربط بواو الحال . ويرى الدمامينى أن الواو للعطف على محذوف أى يهمل حتى وينوى(١)

(٣) قال الفرزدق يهجو قوم جرير :

قنافذ هداجون حول بيوتهم بما كان أياهم عطية عودا

احتج الكوفيون بهذا البيت على ما ذهبوا إليه من أن كان وأخواتها يجوز أن يليها معمول خبرها إذا لم يكن ظرفا أو جارا ومجرورا . وكلمة اياهم على رأيهم مفعول للفعل عود .

والذين لا يجيزون هذا يخرجون البيت على الوجوه الآتية :

« ا » زيادة كان ، ولا ندرى هل هذا يساير المعنى الذى قصده الشاعر

«ب» أن يكون اسم كان ضمير الشأن محذوفا .

(حـ) أن يكون اسمها ضميرا يعود على ما وتكون كلمة عطية مبتدأ فى الحالتين .

(٤) من شروط إعمال ما عمل ليس ألا تجىء بعدها « إن » النافية .

أما قول الشاعر :

بنى غدانة ما إن أنتم ذهبا ولا صريفا (٢) ولكن انتم الخزف

فى رواية من نصب كلمة ذهبا . فيخرج على أن « إن » نافية مؤكدة لما لا زائدة .

(٥) يقول علماء النحو : ان من العرب من ينصب الجزأين بان واخواتها وهذا عند الفراء ووافقه على ذلك بعض النحاة . ويحكون لذلك أمثلة منها :

---

(١) المغنى حـ ١ ص ٣٢

(٢) الصريف الفضة الخالصة . وغدانة حى من يربوع من بنى تميم

قال عمر بن أبي ربيعة :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافا ان حراسنا أسدا

وقال الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعاً (١)

وقال أبو نخيلة يصف فرسا .

كأن أذنيه إذا تشوفا (٢) قادمة أو قلمـــا محرفا

والجمهور يمنعون ذلك ويؤولون هذه الأمثلة بأن الجزء الثانى حال والخبر محذوف ، والتقدير فى المثال الأول تلقاهم أسداً . وفى المثال الثانى أقبلت رواجعا وفى الثالث يحكيان .

وقال الشنقيطى فى كتاب الدرر اللوامع (٣) وقد أجيب عن هذا البيت ، (كان أذنيه) بأجوبة (أحدها) أن الشاعر لحن ، فانه قد أنشد الرشيد هذا الرجز فى صفة فرس فعلم الحاضرون أنه لحن ولم يهتد أحد منهم لإصلاح البيت إلا الرشيد ، فانه قال له : قل : تخال أذنيه إذا تشوفا ، قال المبرد : والراجز وإن كان قد لحن فقد أحسن التشبيه (الثانى) أن خبر كأن محذوف وقادمة مفعول ، والتقدير يحكيان قادمة (الثالث) أن الرواية قادمتا أو قلما محرفا بألفات من غير تنوين ، على أن الأصل قادمتان وقلمان محرفان فحذفت النون ، لضرورة الشعر .

(الرابع) أن الرواية تخال أذنيه .

(٦) إذا كان الكلام تاما موجبا فالواجب نصب المستثنى . أما قول الأخطل :

وبالصريمة منهم منزل خلق عاف تغير إلا النوى والوتد

---

(١) هو من شواهد سيبويه التى لم يعرف قائلوها

(٢) تشوف أى تطلع

(٣) ص ١١٢ ح ١

فكان الواجب فيه النصب بعد إلا. وقد أول هذا بأن «تغير» حملت على «لم يبق على حاله»

(٧) القاعدة أن واو الحال تمتنع فى مواضع منها المضارع المثبت ، أما قول عنترة :

علقتها عرضا وأقتل قومها زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

فقد أول بأن الواو عاطفة ، والمضارع مؤول بالماضى على سبيل الأولوية لتناسب المتعاطفين ، أو بأن الواو للحال والمضارع خبر لمبتدأ محذوف، أى وأنا أقتل .

(٨) إذا كان أفعل التفضيل (بال) وجب له حكمان : أحدهما أن يكون مطابقا لموصوفه ، والثانى ألا يؤتى معه بمن . وأما قول الأعشى (١)

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العـــزة للكاثر (٢)

فخرج على زيادة (ال). أو على أن «منهم» متعلقة بأكثر نكرة محذوفة مبدلة من أكثر المذكورة ، والأصل : ولست بالأكثر أكثر منهم ، وفيه حذف البدل .

ولابن جنى فى هذا البيت رأى ساقه فى الخصائص فى باب الرد على من اعتقد فساد علل النحويين قال (٣) :

وكذلك ما يحكى عن الجاحظ من أنه قال : قال النحويون إن أفعل الذى مؤنثه فعلى لا يجتمع فيه (الألف واللام) و (من)، وإنما هو بمن أو بالألف واللام ، نحو قولك الأفضل وأفضل منك ، والأحسن وأحسن من جعفر ، ثم قال : وقد قال الأعشى :

---

(١) من قصيدة يفضل فيها عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة
(٢) الكاثر الغالب فى الكثرة
(٣) ص ١٩٢

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العزة للكاثر

ورحم الله أبا عثمان ، أما إنه لو علم أن (من) فى هذا البيت ليست التى تصحب أفعل للمبالغة نحو أحسن منك وأكرم منك ، لضرب عن هذا القول إلى غيره مما يعلو فيه قوله ، ويعنو لسداده وصحته خصمه . وذلك أن (من) فى بيت الأعشى إنما هى كالتى فى قولنا : أنت من الناس حر ، وهذا الفرس من بين الخيل كريم ، فكأنه قال لست من بينهم بالكثير الحصى ، ولست فيهم بالأكثر حصى .

(٩) قال الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلف(١)

مجلف معطوف على مسحتاً وهما متخالفان فى الإعراب . واستشهد به النحاة على أنه تجوز المخالفة فى الاعراب إذا عرف المراد .

وقال الزمخشرى فى هذا البيت : إنه « بيت لا تزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه »

وقال البغدادى فى خزانة الأدب (٢) :

قال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء ، رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة ، وأتعب أهل الأعراب فى طلب الحيلة فقالوا وأكثروا ولم يأتوا فيه بشىء يرتضى . ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه . وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه هذا البيت فشتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجوا .

وقد تكلف العلماء لهذا البيت عدة توجيهات منها ثلاثة مبنية على رواية

---

(١) من قصيدة له مطلعها : عزفت باعشاش

وقبل هذا البيت :

اليك أمير المؤمنين رمت بنا   هموم المنى والهوجل المتعسف

(٢) ح ٢ ص ٣٤٧

لم يدع بفتح الدال وعلى رواية نصب مسحت .

(الاول) للخليل بن احمد . قال : هو على المعنى كأنه قال لم يبق من المال إلا مسحت لأن معنى لم يبق ولم يدع واحد واحتاج إلى الرفع فحمله على شيء فى معناه .

أى أن مسحتا نصبت بيدع بمعنى الترك وحمل مجلف بعده على المعنى لأن معنى لم يدع لم يبق فحمل مجلف على ذلك .

أى أن مجلف مرفوع بفعل محذوف دل عليه لم يدع .

(الثانى) لثعلب ، قال فى أماليه : نصب مسحت بوقوع يدع عليه وقد وليه الفعل ولم يل (مجلفا) فاستؤنف به فرفع والتقدير هو مجلف .

(الثالث) لأبى على الفارسى . قال : (مجلف) معطوف على عض ، وهو مصدر جاء على صيغة المفعول مثل قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) كأنه قال وعض زمان أو تجليف .

(الرابع) توجيه الفراء ، قال : إن (مجلف) مرفوع بالابتداء وخبره محذوف .

(الخامس) توجيه الكسائى ، وهو أن «مجلف» معطوف على الضمير المستتر فى (مسحت)

(السادس) فى البيت رواية برفع الكلمتين « مسحت ومجلف » وذلك بيكون المضمرة.. أى إلا أن يكون مسحت أو مجلف .

(السابع) لم يدع من الدعة والسكون يقال رجل وادع إذا كان ساكنا فيكون على هذا مسحت فاعلا .

(الثامن) لم يدع بكسر الدال بمعنى يقر ويمكث . وإليه ذهب ابن جنى فى باب الاطراد والشذوذ من كتاب الخصائص .

(التاسع) لم يدع بضم الياء وفتح الدال مع رفع الاسمين قال ابن جنى :

وقياسه يودع إلا أن هذا الحرف كأنه لكثرة استعماله جاء شاذا فحذفت واوه تخفيفا .

ولعلنا فى هذه الأمثلة وفى غيرها ، وهو كثير ، نرى أن النحاة فى تأويلاتهم كانوا يسايرون مقاصد العرب أو ما اعتقدوا أنه من مقاصدهم فى تعبيرهم وخصائص لغتهم .

على أننا لا نقول إنهم فى جميع تأويلاتهم قد سايروا روح اللغة العربية فقد كانوا فى بعض الأحوال يفكرون وهم متأثرون بالتعليل الفلسفى ، وكانوا فى بعضها يتعسفون ويتكلفون ويحاولون تأويل كل شىء كأنهم أرادوا أن يثبتوا أن كل ما نطق به العرب إنما كان على طرق ثابتة لها أسبابها ونتائجها المنطقية وأصولها العقلية الصحيحة .

ولا ندرى هل هذا صحيح فى اللغات، ونحن نعلم أنها تخضع لعوامل كثيرة متشعبة ، منها العادات العقلية ، والعادات الاجتماعية . والاستعمال ، وما يقضى به كل ذلك من الخروج على الذائع المألوف خروجا تختلف درجاته بين الكثرة والقلة والندرة .

وسنبسط هذا حينما نتكلم على القياس .

أدلة النحو

النحو هو هذه الخصائص التى تتجلى فى التراكيب العربية فى أواخر كلماتها وفى بنية ألفاظها وفى الأسلوب وما عسى أن يكون فيه من حذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك. وقد تتبع العلماء كلام العرب فوجدوا أنهم قد يلتزمون هذه الخصائص باطراد وقد يلتزمونها فى الغالب أو الكثير ، وقد يجرى لسان فريق منهم بما يحيد عن ذلك فيجىء القليل أو النادر أو الشاذ . ولهجات القبائل المختلفة التى عنها أخذ النحاة لها دخل فى هذا ، فقد يكون

لإحدى القبائل نهج خاص فى أحد التراكيب يخالف ما عليه جمهرة القبائل الأخرى .

وقد نظر العلماء فى كل هذه المظاهر ، وعلى هذا الأساس دونوا القواعد النحوية التى بين أيدينا . وكان عماد هؤلاء العلماء شيئين السماع والقياس .

السَّمَاع

ولعله هو الطريق الطبيعى لتعرف كنه اللغة وتبين خصائصها . فاللغات نقلية ، وأساس معرفتها ومعرفة خصائصها هو السماع ، ومحاكاة ما يصل إليه الإنسان عن طريق السماع من العرب الذين سلمت لغتهم، أوعن طريق ما يروى من الآثار العربية من شعر ونثر وما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

ولقد كانت هذه المنابع خير عون على تثبيت اللغة الصحيحة فى الاذهان ومزجها بالألسنة مزجا طبيعيا ، عن طريق المحاكاة، وذلك حين كانت العروبة ثابتة الدعامة ، واللغة ناصعة الديباجة ، بعيدة عن شوائب العجمة وانحراف الألسنة ولوثة الدخلاء ، وحين كان العرب فى جزيرتهم يتوارثون تقاليدهم، ويتلقى بعضهم عن بعض لغتهم جيلا بعد جيل .

ولما خرج العرب من جزيرتهم وانتشروا فى أقطار مختلفة واتسعت ميادين الحياة أمامهم ، وانتقلوا من الصحراء والخيام إلى المدن والرياض ، واختلط بهم غيرهم من الأعاجم ، دب الانحراف إلى اللغة ، وتطرق اللحن إلى الألسنة ، فأصبح من الضرورى الالتجاء إلى منبع أصفى لتعرف اللغة السليمة .

ولهذا لجأ العلماء إلى البوادى يستمعون من العرب الخلص ، ويقيدون ما يظفرون به من شواهد ليعتمدوا عليها فى ضبط اللغة وتدوين قواعدها ، وكان ذلك فى أيام الخليل وطبقته . ومن أشهر من أخذ عن العرب فى البادية :

(١) يونس بن حبيب البصرى المتوفى سنة ١٨٣ فى خلافة الرشيد . وهو

من أكابر النحويين البصريين ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وسمع من العرب كما سمع من قبله ، وأخذ عنه سيبويه وأخذ عنه أيضا الكسائى والفراء . وكان له مذهب وأقيسة تفرد بها . وكانت حلقته بالبصرة ، يقصده طلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية . وقد توفر على طلب العلم ومحادثة الرجال .

(٢) النضر بن شميل توفى سنة ٢٠٣ فى خلافة المأمون ، وقد أخذ عن الخليل وعن فصحاء العرب ، وقد قال : أقمت بالبادية أربعين سنة .

(٣) أبو الحسن على بن حمزة الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ وهو أحد الأئمة القراء السبعة ، وقد رحل إلى البوادى ودون عن الاعراب الشىء الكثير ، إلى جانب ما وعاه عنهم فى صدره . وقد أوردنا ذلك فى الكلام على الطبقة الثانية الكوفية .

وهناك غير هؤلاء ممن كان الرحيل إلى البادية مقصدا لهم وعونا على التحرى وجمع الحقائق اللغوية والنحوية .

وقد استمر الباحثون يرحلون إلى البادية إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ثم فسدت سلائق العرب ، فلم تصبح البادية مقصدا للعلماء . على أن علوم اللغة والقواعد كانت إلى ذلك الحين قد وصلت إلى غايتها من البحث والدرس ، وظفر العلماء بقدر كاف من آثار العرب يرجع إليه فى التحقيق والتمحيص .

وإن المنابع التى بين أيدينا الآن مما يحتج به من الكلام العربى تكفى لوضع دستور محكم للقواعد النحوية .

وقد تتبع العلماء هذه المنابع وهى : القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وكلام العرب من شعر ونثر . ولهم فى جواز الاحتجاج بذلك آراء نسوقها فيما يلى :

(١) القرآن الكريم :

ولا جدال فى جواز الاستشهاد به متواتره وشاذه .

(٢) الأحاديث النبوية :

ذهب أكثر العلماء إلى عدم الاحتجاج بالحديث ، ورأى بعضهم الاحتجاج به مطلقا .

وأساس البحث فى هذا الموضوع هو :

(ا) هل رويت الأحاديث بالمعنى ؟ وهل هذا جائز ؟

(ب) هل احتج المتقدمون بالأحاديث ؟ وإذا لم يكونوا قد احتجوا بها فما الأسباب ؟

(حـ) هل كان رواة الحديث من العرب الخلص الذين يحتج بعربيتهم ؟

أما رواية الأحاديث بالمعنى فهى جائزة عند فريق من العلماء . وذلك لأن المقصود الأول هو المعنى لما يرتبط به من الأحكام الشرعية . أما فى نقل الشعر وكلام العرب فان رواته لم ينقلوه أخذا لمعناه فقط ، بل المقصود عندهم هو اللفظ لما ينبنى على ذلك من الأحكام اللسانية . ولهذا اهتم النحويون واللغويون بمن تؤخذ عنهم اللغة وتروى الشواهد ، فلم يعتدوا إلا بما نقل من كلام العرب عن الثقات ، وتركوا ما نقل من الأحاديث لاحتمال إخراج الراوى لفظ الحديث عن القياس العربى .

وهذا واضح من اختلاف ألفاظ الأحاديث فى المعنى الواحد . ومعنى هذا أن ألفاظ بعض الأحاديث من لغة الرواة . ولو كان هؤلاء الرواة من العرب الخلص ما كان للغويين والنحاة عذر فى أن يختلفوا فى الاستشهاد بها . ولكن الثابت أن بعض رواة الحديث كانوا من الأعاجم ، ولذا وقع فى بعض الأحاديث شىء من الأساليب والتراكيب غير الجارية على الطريقة الذائعة . وقد لجأ النحاة إلى تأويلها .

فمن ذلك :

(١) الحديث : إن قعر جهنم سبعين خريفا .

وسبعين منصوبة على رأى من يجعل « إن » ناصبة للجزأين كقول عمر ابن أبي ربيعة .

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن   خطاك خفافا أن حراسنا أسدا

والذين يمنعون هذا يخرجون الحديث على أن القعر مصدر قعرت البئر إذا بلغت قعرها وسبعين ظرف أى إن بلوغ قعر جهنم يكون سبعين عاما(١).

ويؤولون البيت باعراب أسدا حالا لا أى إن حراسنا تلقاهم أسدا أى كالأسد. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

(٢) الأحاديث ، قوله عليه الصلاة والسلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا امرأة أو مسافر أو عبد أو مريض .

وقوله عليه الصلاة والسلام : كل أمتى معافى إلا المجاهرون . أى بالمعاصى

وفى صحيح البخارى : فلما تفرقوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة .

والمعروف فى الاستثناء أن الكلام إذا كان تاما موجبا وجب نصب المستثنى.

ولكن هذا هو رأى الجمهور . والرفع جائز فى لغة حكاها أبو حيان ، وخرج عليها بعضهم هذه الأحاديث . ويكون الرفع على التبعية أو أن إلا بمعنى لكن وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف .

وخرج على هذا أيضا قراءة بعضهم « فشربوا منه إلا قليل منهم » .

لهذا رأى أكثر العلماء منع الاستشهاد بالحديث .

على أن محل الخلاف إنما هو فى غير الأحاديث التى عرف أن المقصود منها هو نقل الألفاظ . كالأحاديث المنقولة للاستدلال على فصاحته ﷺ .

وهناك سبب جعل العلماء يتمسكون بما ذهبوا إليه من عدم الاحتجاج بالحديث ، وهو أن المتقدمين من علماء البصرة والكوفة لم ينقل عنهم أنهم

---

(١) المغنى حـ ١ ص ٣٣

احتجوا بحديث إلا على الوجه الذى أشرنا إليه، وهو الاستدلال على فصاحته ﷺ .

وبعض العلماء يجيزون الاستشهاد بالحديث وحجتهم فى ذلك :

(١) أنه تكفى غلبة الظن بأن المنقول عن النبي ﷺ لم يبدل .

(٢) واحتمال التبديل إنما هو مرجوح فلا يقدح فى صحة الاستدلال .

(٣) ماهنالك من التحرى فى ضبط رواية الأحاديث والتشديد فى النقل يجعلنا أقرب إلى اليقين .

(٤) إن عدم احتجاج المتقدمين بالحديث لا يلزم منه عـــدم صحة الاستدلال به .

وابن مالك ممن يستدلون بالحديث مطلقا دون تفصيل . وكأنه بنى ذلك على القول بمنع رواية الحديث بالمعنى وهو قول ضعيف يرده المقطوع به من نقل القضايا المتحدة بالألفاظ المختلفة .

قال الامام النووى فى أول شرحه على صحيح مسلم :

لا خلاف فى منع رواية الحديث بالمعنى لمن لم يكن خبيرا بالألفاظ ومقاصدها عالما بما يحيل المعانى . أما من كان كذلك فالصواب الجواز .

وابن مالك ينزع إلى مثل هذا التوسع فى الاستشهاد فى القرآن الكريم. فهو يعول على اللفظة الواحدة تأتى فى القرآن ظاهرها جواز ما يمنعه النحاة، فيعول عليها فى الجواز ومخالفة الأئمة .

ومن ذلك رأيه فى تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف جر، فقد منعه النحويون . وعللوا ذلك بأن تعلق العامل بالحال تابع لتعلقه بصاحبه، فحقه إذا تعدى لصاحبه بواسطة ، أن يتعدى إليه بتلك الواسطة ، لكن منع من ذلك صرف التباس الحال بالبدل ، وأن فعلا واحدا لا يتعدى بحرف واحد إلى

شيئين ، فجعلوا عوضا عن الاشتراك فى الواسطة التزام التأخير .

ولكن ابن مالك أجاز ذلك فقال :

وسبق حال مابحرف جر قد　　أبوا ولا أمنعه فقد ورد

أى أن السماع ورد به فى قوله تعالى وما أرسلناك إلا كافة للناس .

والحق أن جواز ذلك مخصوص بالشعر ، وأن الآية حملت على أن كافة حال من الكاف والتاء للمبالغة لا للتأنيث ، والمعنى إلا شديد الكف أى المنع لهم من الشرك ونحوه .

وقال الزمخشرى: إلا رسالة كافة فجعل كافة نعت مصدر محذوف، وعارض ذلك بعضهم بأن كافة لاتستعمل إلا حالا ، ولذلك غلط من يقول والكافة المسلمين .

ومثل ذلك ليس بانصاف ، فان القرآن قد يأتى بمالا يقاس عليه وإن كان فصيحا وموجها فى القياس لقلته ، فليس كل ماتكلمت به العرب يقاس عليه . هذا وإن الاختلاف فى جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ، وأما ما دون فلا يجوز تبديل ألفاظه .

وتدوين الأحاديث والأخبار وكثير من المرويات ، وقع فى الصدر الأول قبل فساد اللغة ، حينما كان كلام أولئك المبدلين ، على تقدير تبديلهم، يسوغ الاحتجاج به ، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال .

وقد بدأ تدوين الأحاديث فى أيام عمر بن عبد العزيز (١) واستمر بعد ذلك .

---

(١) خلافته من سنة ٩٩ — ١٠١

وقد دون الامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ كتابه الموطأ .

* * *

هذا، وقد بحث مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة فى موضوع الاحتجاج بالحديث، وشرح بعض أعضائه الأفاضل أصوله ثم أصدر المجمع القرار الآتى :ـ

(قرار الاحتجاج بالحديث الشريف)(١)

اختلف علماء العربية فى الاحتجاج بالأحاديث النبوية ، لجواز روايتها بالمعنى ، ولكثرة الأعاجم فى رواتها .

وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعضها فى أحوال خاصة مبينة فيما يأتى :

(١) لا يحتج فى العربية بحديث لا يوجد فى الكتب المدونة فى الصدر الأول كالكتب الصحاح الستة فما قبلها .

(٢) يحتج بالحديث المدون فى هذه الكتب الآنفة الذكر على الوجه الآتى :

«ا» الأحاديث المتواترة والمشهورة .

(ب) الأحاديث التى تستعمل ألفاظها فى العبادات .

(حـ) الأحاديث التى تعد من جوامع الكلم .

(د) كتب النبى ﷺ

(هـ) الأحاديث المروية لبيان أنه كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم .

(و) الأحاديث التى دونها من نشأ بين العرب الفصحاء .

(ز) الأحاديث التى عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وابن سيرين .

(ح) الأحاديث المروية من طرق متعددة وألفاظها واحدة .

كلام العرب والاستشهاد به

كلام العرب هو المنبع الشامل للاستشهاد ، وهو كثير متشعب جرت به

---

(١) مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية حـ ٤ ص ٧

الألسنة ووعت العقول طائفة منه ، وضاع من نثره مقدار وافر ومن شعره أقل من ذلك . لأن الشعر مدعاة العناية والاهتمام، وللشعراء مكانة بين القبائل، ولذا حرص الرواة على التقاطه من الأفواه، ثم تناقلوه جيلا بعد جيل واتخذ منه العلماء عونا على ضبط اللغة وتدوين خصائصها .

ولغة الشعر لاتختلف عن لغة النثر من حيث الصوغ العربى، فكلا النوعين يجرى على غرار الأساليب العربية فى الكلمات والتراكيب ، غير أن الشعر محل للضرورات التى يلجأ اليها الشاعر فيزيد أو ينقص ويغير فى بعض الأحوال إتماما للوزن وتحقيقا للتجانس . ولهذا يرى أهل التحقيق أن الاعتماد على الشعر وحده فى الاستشهاد دون مايعززه من نثر ليس بالرأى السليم . على أن هذه الضرورات التى ينجم عنها خلاف بين لغة الشعر ولغة النثر لم تخف على العلماء ، فقد بدت لهم حين تبينوا الشعر ومحصوا ألفاظه وتراكيبه ووازنوا بين ذلك وبين المألوف السائد من الكلام ونبهوا إلى كل هذه الضرورات ، ولهذا ظل الشعر وسيلة للتحرى والتحقيق اللغوى .

ولم يعن العلماء بأقوال الشعراء فى الاستشهاد إلا فى العصور التى صفت فيها اللغة من لوثة العجمة وطغيان الدخيل من الأساليب ، ولذا قسموا الشعراء أربع طبقات :

(١) الجاهليون

(٢) المخضرمون وهم من أدركوا الجاهلية والإسلام

(٣) المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون كجرير والفرزدق

(٤) المولدون وهم من بعدهم

وبعضهم وسع مدى التقسيم فى الطبقة الأخيرة فجعل الطبقات ستا : فالخامسة طبقة المحدثين وهم من بعد المولدين كأبى تمام ، والسادسة طبقة المتأخرين كالمتنبى .

على أنه لافائدة من زيادة التقسيم مادام العلماء يرون أن الطبقة الرابعة وما بعدها فى منزلة واحدة من حيث الاستشهاد .

ورأيهم فى الاستشهاد بشعر هذه الطبقات هو :

(١) الطبقتان الأولى والثانية . يستشهد بشعرهما إجماعا .

(٢) الطبقة الثالثة: يستشهد بشعرها على الصحيح. ومن العلماء من لايطمئن إلى شعراء هذه الطبقة من حيث سلامة الأسلوب. فقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى اسحق الحضرمى وعيسى بن عمر الثقفى وغيرهم يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ويعدونهم من المولدين . وكان عبدالله الحضرمى يرد كثيراً على الفرزدق ويكلمه فى شعره، فقال فيه الفرزدق

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال ابن أبى إسحق : ولقد لحنت أيضاً فى قولك مولى مواليا ، وكان ينبغى أن تقول : مولى موال .

وسمع الفرزدق ينشد .

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن أبى إسحق : على أى شىء رفع (أو مجلف) ؟

فقال : على مايسوءك وينوءك .

(٣) وأما الطبقة الرابعة : فالصحيح أنه لايستشهد بكلامها مطلقا وقيل: يستشهد بكلام من يوثق به منهم . واختار هذا الرأى الزمخشرى وتبعه الرضى فاستشهد بشعر أبى تمام . وقال الزمخشرى : إنه وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة ، فهو من علماء العربية، فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه.

وإنا إذا قسنا هذه الطبقات بالمقياس الزمنى كانت الطبقة الثالثة من شعراء الدولة الأموية وآخرهم بشار، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، والطبقة الرابعة من شعراء الدولة العباسية ومعنى هذا أنا لانحتج بقول

شاعر بعد بشار. فأبو تمام ومروان بن أبي حفصة وعلى بن الجهم والعباس ابن الأحنف وابن الرومى والبحترى وابن المعتز والمتنبى وأبو فراس وغير هؤلاء ممن لهم أثر أدبى له شأن، كل أولئك لايحتج بشعرهم مع أن منهم من نشأ نشأة عربية لايهبط بصفائها أو يطعن فى سلامتها ما كان هنالك من اختلاط الأعاجم، وإذا كان فى أقوالهم مالم يعهده العلماء، ولم ينقل الرواة مثله عن السابقين، فليس معنى ذلك أن أسلوبهم قد انحرف إلى درجة الخروج عن أصول اللغة العربية إلى حد التحرج عن اعتبار شعرهم صحيحا يجوز الاستشهاد به . ولو أن شيئا مثله صدر عن شاعر قديم لأحله العلماء محل القبول وأولوا مافيه تأويلا يبعده عن الطعن والتفنيد(١) .

على أننا لانملك أن نغير ماقاله العلماء فى هؤلاء الشعراء، ولكننا نستطيع أن نختط لأنفسنا طريقا، ونبدى فى هذا الموضوع رأيا، يكون من ورائه نمو اللغة وقبول مالايخرج عن طبيعتها مما نطق به شعراء نشئوا فى العصور الذهبية للحياة الإسلامية . وإن حاجتنا إلى الرأى الحاسم فى هذا الموضوع لتشتد حين نضع معجما حديثاً شاملا لماورد فى دواوين الشعراء ورسائل الكتاب وغير ذلك من ذخائر الأدباء، ولعل مجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر يصدر فى هذا الشأن قراراً كما أصدر فى غيره من أمهات المسائل ذات الأثر فى ضبط اللغة وتحديد دائرتها .

(١) راجع عبارة صاحب الوساطة .

القياس في اللغة العربية

(أو قصة هذا النحو وصيرورته علماً)

يميل الإنسان بفطرته إلى المتشابه من الظواهر والمناظر والمميزات فى شتى النواحى الحسية والمعنوية ، ويصل من هذه الموازنات إلى أحكام عامة يستنبطها ، مستمداً ذلك مما وهبه الله من قوة فكرية وموهبة منطقية . وفى خلال كل هذا يبحث عن علل الأشياء لعله يهتدى إلى أسبابها ويربط هذه الأسباب بنتائجها .

هذا هو شأن العقل الإنسانى فى مختلف الشؤون، فهو يستنبط الكليات من الجزئيات بهذه القوة الكامنة التى وهبه الله إياها ، وهى قوة الاستنباط الباطنى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى بحث سابق .

وقد كان هذا شأن العرب فى اللغة العربية وخصائصها. ولذلك حرصوا عليها حرصا تفاوتت درجاته بين الكثرة والقلة، وساروا على ذلك حقبة من الزمن حتى اختلط العرب بغيرهم وأقاموا فى الأمصار وانتشروا فى أقطار بعيدة عن العروبة الصافية ، فاضطر العلماء إلى أن يسجلوا ما كان يدركه العربى بالسليقة وبالمحاكاة، ودونوا القواعد النحوية ليسترشد بها المتعربون، صونا للألسنة وحرصا على كيان اللغة .

وقد ظهر القياس والتعليل فى النحو فى رجال الطبقة الثانية ، وأول من اهتم بالقياس عبد الله الحضرمى .

وكان مرشدهم فى هذا هو تراكيب اللغة وأساليبها، فقد نظروا فيها نظرة الباحث المدقق على النهج الذى أشرنا إليه فى مبحث السماع . وتابعوا البحث

فى عصور متعاقبة حتى جعلوا النحو علما له قواعده وأصوله ومسائله المتشعبة ، ثم دونوه فى كتب كثيرة بحثت فى دقائقه بحثاً مستفيضا ،ألموا فيه بالأوضاع المختلفة للجملة العربية وضبط كلماتها .

وساعدهم على كل هذا ماعنى به المسلمون عامة فى صدر الإسلام من البحث فى الدين وأصوله وفى القرآن الكريم والاهتمام بتفهمه ، وفى تراث العرب من شعر ونثر ، وفى ألوان الثقافة التى نشطها الإسلام .

وقد بدأ المسلمون ينظرون فى الشريعة الإسلامية ويطبقون أحكامها على أحوالهم . وحين اتسعت رقعة المملكة الإسلامية كانت تجد شؤون وحالات تستدعى إبداء الرأى فيها ، وقد نشط ذلك فى العراق، وكان لأئمة المذهب الحنفى فى هذا جولات.وكان هؤلاء يعرفون بأصحاب الرأى وزعيمهم أبو حنيفة ، ويقابلهم فى الحجاز أصحاب الحديث ، وزعيمهم الإمام مالك .

وكان الرأى يرتكز على الأشباه والنظائر من الحالات،وكانت المسألة تعطى حكم نظائرها . ثم ارتقى الرأى واتسعت شعبه حتى سمى القياس.وكان له أثر فى الوصول إلى كثير من الأحكام ، إما باستنباط حكم الشىء من حكم شبيهه أو باستنباط حكم القليل من حكم الكثير ، أو بطريق القياس التمثيلى ، أو باستخراج علة الحكم المشتركة واستخدامها فى التطبيق .

وكل هذا موضح فى مواضعه من أصول الفقه وأحكامه،والذى نريد أن نشير إليه هنا هو أن هذا النظام القياسى والاستنباطى قد أصبح النهج الذى يتبعه الباحثون فى كثير من أنواع الثقافة . وساعد على ذلك انتشار المنطق وبحوثه ، والعناية بدراسته واصطباغ عقلية العلماء به فى مباحثهم . وكان للبحوث النحوية من ذلك نصيب تغلغل فى نواحيها،فأصبح النحو علما واسع النطاق متشعب النواحى،وأصبح الحكم النحوى شبيها بالحكم الشرعى له أنواع، فمنه الواجب والممنوع والحسن والقبيح والجائز وخلاف الأولى . وقسمه

العلماء أيضا إلى رخصة وغيرها ، فالرخصة ما جاز استعماله لضرورة الشعر .

وقد جـــد العلماء فى تحقيق المسائل النحوية وبحثوا عن عللها وأدلتها وشواهدها ، وانقسموا فرقا ، وكان لكل فريق مذهبه وحججه ، وكثر الخلاف وتشعبت نواحيه حتى أصبحت قصة هذا النحو طويلة كثيرة الفصول متعددة النواحى .

والمنبع الذى استمد منه العلماء كل هذا هو كلام العرب وما نقلوه عنهم من شعر ونثر . وقد نظروا فى كل هذا ليتعرفوا خصائصه ، فوجدوا منه المطرد والغالب والكثير والقليل والنادر والشاذ والضعيف والضرورة . فسجلوا كل هذا واستنبطوا منه ما دونوا من قواعد ، ولم يتركوا من مظاهر كلام العرب مما ائتلف أو مما اختلف شيئا إلا أثبتوه ونبهوا على ما فيه . وهذا من الأسباب التى جعلت علم النحو واسع النطاق ، فانه قد شمل تسجيلا وتعليلا لكل ما ظفر به العلماء مما نطق به العرب .

ولو أن هذه الخصائص مطردة اطرادا لا انحراف فيه ولا شذوذ ، لكان لصوغ التراكيب وضبط الكلمات وشكل أواخرها نظام ثابت ، ولكانت القواعد النحوية والصرفية مطردة خالية مما نراه فيها الآن من أوجه متعددة .

ولكن هذا الطابع الثابت فى جميع نواحى اللغة ليس من شأن اللغات عامة ولا من شأن اللغة العربية خاصة . وذلك لما يأتى :

(١) ما كان للعرب من لهجات وأساليب فى الأداء مما ظهر أثره فى اللغة وفيما استخلصه العلماء من قواعد . وقد أشرنا إلى هذه اللهجات ومظاهرها .

(٢) إن التزام قاعدة واحدة أو أسلوب واحد فى التعبير ليس هو الأمر الطبيعى الواقعى ، فان الثابت أن الإنسان يميل فى بعض الأحيان إلى أن يفتن بعض الافتنان ، وينهج نهجا قد يكون فيه فذا ، بسبب ما يوحى به طبعه ومزاجه .

(٣) قد يتحكم الوزن أو التوازن ويضطر المتكلم أن يخالف المألوف. ومن هنا نشأ ما يسميه النحاة ضرورات الشعر.

وإلى جانب هذه العوامل سبب آخر جعل الخلاف النحوى كثيرا متشعبا، وذلك هو ما أشرنا اليه من أن علماء النحو لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة مما استطاعوا أن يصلوا اليه من كلام العرب إلا سجلوه وأثبتوا له حكما، سواء فى ذلك الجزئيات والكليات والمطرد والمنحرف، وبذلك جاء علم النحو صورة دقيقة شاملة من البحث والدرس ملمة بجميع الدقائق فى كلام العرب.

وقد قال العلامة «دى بور» فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ما يأتى[1]

علم النحو «أثر رائع من آثار العقل العربى بما له من دقة فى الملاحظة ومن نشاط فى جمع ما تفرق. وهو أثر يرغم الناظر فيه على التقدير له، ويحق للعرب أن يفخروا به».

لكل هذه الأسباب وللعوامل العامة التى تؤثر فى اللغة، كان لا بد أن تجرى الألسنة بأساليب وتراكيب وكلمات تخالف المطرد وتتدرج فى القلة إلى حد النادر أو الشاذ. ومن هنا نشأت آراء مختلفة واستثناءات فى القواعد وتشعب فى الخصائص النحوية ووجهة نظر النحاة.

وهناك عوامل أخرى اعترضت علماء النحو حين أرادوا وضع قواعد القياس النحوى وحين تتبعوا الأمثلة والشواهد ليصلوا منها إلى القواعد النحوية، ونشير إلى بعضها فيما يلى:

المسموع المفرد والمخالف لما عليه الجمهور

تعرض ابن جنى لهذا فى كتاب الخصائص (٢) ولخص آراءه السيوطى فى

(١) ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ص ٤٠

(٢) جـ ١ ص ٣٩١، ٤٢١

كتاب الاقتراح (١). ومجمل القول أن المسموع المفرد له أحوال :

(١) أن يكون فردا لا نظير له فى المسموع مع إطباق العرب على النطق به ، فهذا يقبل ويحتج به ويقاس عليه اجماعا . كما قيس على قولهم فى النسب إلى شنوءة شنإى مع أنه لم يسمع غيره . ولذا يقال فى ركوبه ركبى .

(٢) أن يكون فردا لا نظير له ولكنه يخالف ما عليه الجمهور .

(ا) فان كان المنفرد به فصيحا فى جميع ما عدا ذلك القدر الذى انفرد به وكان ما أورده مما يقبله القياس ، إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك المنفرد به ، فان الأولى فى ذلك أن يحسن به الظن ولا يحمل على فساده ، فقد يمكن أن يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتأبدت معالمها (٢)

ثم قال ابن جنى : « وسألت أبا على رحمه الله عن قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى شعرك بالعنبر والمسك الذكى

فخضنا فيه واستقر الأمر فيه على أنه حذف النون فى تبيتين كما حذف الحركة للضرورة فى قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

كذا وجهته معه ، فقال لى : فكيف تصنع بقوله (تدلكى) فقلت : نجعله بدلا من (تبيتى) أو حالا ، فتحذف النون كما حذفها من الأول فى الموضعين ، فاطمأن الأمر على هذا ، وقد يجوز أن يكون (تبيتى) فى موضع النصب باضمار (أن) فى غير الجواب كما جاء بيت الأعشى :

لنا هضبة لا ينزل الذل وسطها ويأوى اليها المستجير فيعصما

فاما قول الآخر :

---

(١) ص ٢٢

(٢) ابن جنى ص ٣٩١

أن تهبطين بلاد قو م يرتعون من الطلاح

فيجوز أن تكون (أن) هى الناصبة للاسم مخففة ، غير أنه أولاها الفعل بلا فصل كما قال الآخر :

أن تحملا حاجة لى خف محملها تستوجبا نعمة عندى بها ويدا

إن تقرآن على أسماء ويحكما منى السلام وأن لا تعلما أحدا

سألت عنه أبا على رحمه الله فقال هى مخففة من الثقيلة »

(ب) ولو جاء شىء من ذلك عن ظنين أو متهم أو من لم ترق به فصاحته ولا سبقت إلى الأنفس ثقته كان مردودا غير متقبل ، فان ورد عن بعضهم شىء يدفعه كلام العرب ويأباه القياس على كلامها ، فانه لا يقنع فى قبوله أن نسمعه من الواحد ولا من العدة القليلة . إلا أن يكثر من ينطق به منهم .فان كثر قائلوه إلا أنه مع هذا ضعيف الوجه فى القياس، فان ذلك مجازه وجهان: أحدهما أن يكون من نطق به لم يحكم قياسه على لغة آبائهم ، وإما أن تكون أنت قصرت عن استدراك وجه صحته ولا أدفع أيضا مع هذا أن يسمع الفصيح لغة غيره ممن ليس فصيحا ، وقد طالت عليه ، وكثر لها استماعه فسرت فى كلامه ، ثم تسمعها أنت منه وقد قويت عندك فى كل شىء من كلامه غيرها ، فصاحته ، فيستهويك ذلك إلى تقبلها منه على فساد أصلها الذى وصل اليه منه ، وهذا موضع متعب مؤذ ، يشوب النفس ، ويشرى اللبس ، إلا أن هذا كأنه متعذر ولا يكاد يقع مثله ، وذلك أن الاعرابى الفصيح إذا عدل به عن لغته الفصيحة إلى أخرى سقيمة عافها ولم يأبه بها (أى يأنس)(١)

(٣) أن ينفرد به ولا يسمع من غيره لا ما يوافقه ولا ما يخالفه . والقول فيه أنه يجب قبوله إذا ثبتت فصاحته . لأنه إما أن يكون شيئا أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك فى سماع ذلك منه ، وإما أن يكون ارتجله ،

---

(١) الخصائص حـ ١ ص ٤٢٤

فان الاعرابى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته ،تصرف وارتجل مالم يسبقه أحد قبله به ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها »

* * *

هذا هو رأى ابن جنى وغيره فيما يسمع أو يروى عن العرب مما يند عن المألوف لجمهور العلماء . وانا لنلمح فى ثنايا هـــذا البحث مظاهر التحرى والتفصيل الذى يدل على حرص العلماء على الوصول إلى أوضح نهج، وعلى صيانة اللغة العربية مما قد يصيبه الانحراف أو يتطرق اليه الشك من كلام العرب حتى لا يتخذ هذا أساسا لاستنباط قواعد لايكون لها حظ من القوة ، أو نصيب من المتانة القياسية . وتلمح إلى جانب هذا أيضا تحفظا من نسبة الخطأ إلى ما انحرف عن المألوف من كلام بعض الشعراء ، ودفاعا عما نطق به الشعراء مما ند عن النهج الذائع لما نطق به العرب ، بأن هذا يمكن أن يكون قد استقر فى النفس (أو فى العقل الباطن) من لغة قديمة ، أو بأنه يمكن تأويله ووزنه بمعايير القواعد النحوية التى تدخله فى دائرة الصواب .

غير أن بعض العلماء سلكوا مسلكا آخر فى الحكم على هذا القول المنحرف عن النهج العام ، وأصدروا الحكم واضحا على الشعراء ولم يبرئوهم من الخطأ .

قال ابن فارس فى كتابه الصاحبى (١) :

« والشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ويمدون المقصور ويقدمون ويؤخرون ويومئون ويشيرون ويختلسون ويعيرون ويستعيرون، فأما لحن فى اعراب أو ازالة كلمة عن نهج صواب،فليس لهم ذلك،ولا معنى

---

(١) ص ٢٣١

لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتى فى شعره بما لايجوز ولا معنى لقول من قال :

الم يأتيك والانباء تنمى

وقوله :

قفا عند مما تعرفان ربوع

فكله غلط وخطأ : وماجعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط، فما صح من شعرهم ، فمقبول ، وما أبته العربية وأصولها فمردود .

بلى للشاعر إذا لم يطرد له الذى يريده فى وزن شعره أن يأتى بما يقوم مقامه بسطا واختصارا وإبدالا، بعد أن لايكون فيما يأتيه مخطئا أو لاحنا »

وقال الجرجانى (١) فى كتاب الوساطة (٢) :

وأى عالم سمعت به ولم يزل ويغلط ، أو شاعر انتهى اليك ذكره لم يهف ولم يسقط ، ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لايمكن لعائب القدح فيه ، إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتنسيقه ، أو معناه واعرابه . ولولا أن الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، ولكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام »

ثم سرد شواهد من أشعار الجاهليين والاسلاميين مما انحرف فيها الضبط عن المألوف المعروف وأشار إلى « ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن، تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات، ومرة بالاتباع والمجاورة

---

(١) هو القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز مؤلف كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه

(٢) ص ١٢

وما شاكل ذلك من المعاذير المتمحلة وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجة وتثبيت ماراموه فى ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لاجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب أن المحرك لها والباعث عليها شدة اعظام المتقدم والكلف بنصرة ماسبق اليه الاعتقاد وألفته النفس »

وعقد السيوطى فى كتاب المزهر فصلا فى أغلاط العرب اقتبس فيه كلام ابن جنى وغيره .

وإلى جانب هذه الأنواع من الانحراف نجد نوعا آخر ، وهو الشاذ الذى يقول العلماء إنه يحفظ ولا يقاس عليه ، ومنه أمثلة كثيرة أوردها النحاة فى مؤلفاتهم وإليك بعضا منها .

(أمثلة للشاذ)

(١) من مواضع حذف الخبر وجوبا أن يكون المبتدأ مصدرا عاملا فى اسم مفسر لضمير ذى حال بعده لا تصلح لأن تكون خبرا عن ذلك المبتدأ، أو اسم تفضيل مضافا إلى المصدر المذكور أو إلى مؤول به، فاذا صلح الحال لأن يكون خبرا فانه يتعين رفعه . وشذ قولهم «حكمك مسمطا» قيل هذا لرجل حكموه عليهم وأجازوا حكمه ، أى حكمك لك مثبتا أى نافذا . والخبر محذوف وجوبا أى لك، ومسمطا حال من الضمير المستتر فى الخبر .

ولا ندرى ما قيمة الاحتفاظ بعبارة كهذه العبارة وماذا على النحاة لو أهملوها أو لو حكموا بخطئها وأراحوا أنفسهم من تأويلها وإثقال القواعد النحوية بها .

(٢) تدخل لام الابتداء بعد إن المكسورة على أشياء ، منها الخبر بشروط ، منها كونه مثبتا ، وشذ قول أبى حرام العكلى .

واعلم أن تسليما وتركا   للامتشابهان ولا سواء

ويقول النحاة فى سبب المنع إن اللام تدل على الثبوت والخبر منفى. وقال ابن جنى إنه شبه « لا » بغير فكأنه قال لغير متشابهين .

(٣) قد يحذف حرف الجر ويبقى الجر شذوذا كقول الفرزدق .

إذا قيل أى الناس شر قبيلة　　أشارت كليب بالأكف الأصابع

أى إلى كليب .

(٤) أسماء المكان لايصلح منها للنصب على الظرفية إلا المبهم وما اتحدت مادته ومادة فعله ، أما قولهم « هو منى مقعد القابلة ومزجر الكلب ومناط الثريا » فشاذ إذ التقدير هو منى مستقر الخ . فعامله الاستقرار .

ومن الغريب أن النحاة يقبلون هذه الأمثلة ويخرجونها من نطاق الشذوذ إذا غيرنا التأويل فجعلنا العامل فعلا مقدرا وهو قعد وزجر وناط ، كأن الحكم بالشذوذ أو القبول رهن لتأويلهم .

(٥) يجوز حذف المتعجب منه فى أفعل به إن كان أفعل معطوفا على آخر مذكور معه مثل ذلك المحذوف . وشذ قول عروة ابن الورد فى وصف صعلوك .

ولله صعلوك صحيفة خده　　كضوء شهاب المائس المتنور

فذلك إن يلق المنية يلقها　　حميدا وإن يستغن يوما فأجدر

أى فاجدر به . على أن العلامة الصبان لا يرى هذا شاذا ، فقد قال تعليقا على هذا المثال : « الأوجه عندى أنه ليس بشاذ وأنه لا يشترط هذا الشرط بل المدار على وجود دليل المحذوف . وهذا الرأى يبين تعسف النحاة فى بعض شروطهم وتشبثهم بأن يكون الدليل على المحذوف هو أن يذكر مثل المحذوف مع المعطوف عليه لا أى دليل آخر .

(٦) لا يكثر حذف عائد الاسم الموصول فى صلة غير « أى » إلا إذا طالت الصلة . وشذ قوله :

من يعن بالحمد لم ينطق بما سفه　　ولا يحد عن طريق المجد والكرم

وقوله تعالى « تماما على الذى أحسن » برفع أحسن على أنه خبر .

وهذا هو رأى البصريين ، أما الكوفيون فلايرون فى ذلك شذوذا بل يجيزونه ويقيسون عليه .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تجدها فى ثنايا كتب النحو .

ولا يعنينا الآن أن نصل إلى رأى قاطع فى هذا الكلام الذى انحرف عن النهج العام فنحكم بأنه خطأ أو بأنه صواب قد يكون مرجعه ما استقر فى ذهن الشاعر من لغة قديمة ، أو بأن العربى كان يتكلم بالسجية وله أن يتصرف ويرتجل ما لم يسبق به .

ولكن الذى نريد أن نعرض له هو الضرورة التى ألجأت العلماء إلى حشد كل هذا المنحرف من القول فى مواضعه من كتب القواعد .

قد يكون للنحاة وجهة نظر فى تسطير كل هذا فى كتبهم، لأنهم كما قلنا حرصوا على تتبع كل ما نطق به العرب واهتموا بتأويله من الوجهة النحوية. وقد يكون لبعض هذا فائدة فى تعرف الأوضاع المختلفة للكلام العربى ، ويكون تسجيله عونا للباحثين فى بعض نواحى اللغة وأصولها وتدرجها التاريخى .

غير أن إثقال كاهل القواعد النحوية بكل هذه الاستثناءات والأقوال الفردية ، وبهذه الجزئيات القليلة أوالنادرة ، كل هذا مما يزيد أعباءها ويبعد بها عن القصد . هذا إلى أن أغلب هذه الأقوال إنما هى جزئيات بعضها مقرون بالشك فى صحة نسبته أو فى طريقة ضبطه . فكان الأجدى ألا تتخذ أساسا لاستنباط قياسى أو لزعزعة أركان القاعدة العامة التى يقصدها الدارسون لتحقيق الغاية من النحو ، وهى احتذاء الصواب وصيانة اللسان عن الخطأ ، بل تدون هذه الأمثلة فى كتاب خاص على مثال كتب الشواهد النحوية يشرح فيه غامضها وتوضح أوضاعها من جميع النواحى .

وبهذا لا يفوت العلماء ما أرادوا ويعبد طريق القواعد النحوية وتصفو

مما شابها من الشك ومتباين الآراء والأوجه التى لاحصر لها ولا طائل تحتها .

(الشعر أو النثر الذى لا يعرف قائله) .

قال السيوطى [1] : إنه لا يجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله مخافة أن يكون من المولدين أو ممن لا يوثق بفصاحتهم ، ولأن الجهل بالناقل يوجب الجهل بالعدالة .

والكوفيون يحتجون بأبيات لم يعرف قائلوها ، فقد أجازوا اظهار (أن) بعد (كى) ، وأجازوا دخول اللام فى خبر لكن ، وأجازوا مد المقصور ، واستدلوا لكل هذا بأبيات لم يعرف قائلوها . وهذا مما يأخذه عليهم معارضوهم .

ونقل صاحب المواهب الفتحية [2] : « أنه إذا صدر من ثقة يعتمد عليه قبل ، وإلا لا يقبل . ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد مع أن فيها أبياتا جهل قائلوها ، فإن فيه ألف بيت عرف قائلوها وخمسين بيتا مجهولة القائلين » .

الرِّوَايَةُ وصِحَّتُهَا

لم يكن للعرب فى حياتهم الأولى وسائل كتابية لتسجيل آثارهم اللسانية وتداول ثقافتهم العقلية والأدبية ، بل كانوا لأميتهم يعتمدون على حافظتهم وعلى اللسان والسمع .

ولهذا كان للرواية شأن فى حياتهم العقلية ، فكانت مرجعهم فى أخبارهم وأنسابهم وآثارهم الأدبية .

والذى ساعدهم على قوة الحافظة وسهولة التذكر شيئان :

(١) مقدرتهم البيانية ووفرة ذخائرهم فى أساليب التعبير .

---

(١) المزهر ج ١ ص ٨٥ والاقتراح ص ٢٧ .

(٢) ج ١ ص ٥٥

(٢) ميلهم إلى الاهتمام بالمعنى وجعله أساسا .

وبهذا يكون الحفظ هينا وكذلك التذكر ، فان المعروف فى علم النفس أن تنظيم المعنى والاعتماد عليه خير عون على الحفظ والتذكر .

وفوق هذا كان لاعتماد العرب على عقولهم وحافظتهم دون التجاء إلى قلم أو قرطاس أثر فى نشاطهم من هذه الناحية ، فلا غرابة إذا بلغ حفاظهم ورواتهم درجة عظيمة من ثبات الحفظ وسرعته ، وبهذا استطاعوا الاحتفاظ بآثارهم الأدبية من شعر ونثر ، وحرصوا على أن ينقلها بعضهم عن بعض وراعوا فى ذلك ما استطاعوا من الدقة والتحرى .

وقد اهتموا بصحة الرواية وسندها ورواتها فى العلوم الشرعية، وسلكوا هذا المسلك فى الأدب والأخبار والسير وغير ذلك من علومهم التى كانت لهم قبل الاسلام، وكذا ما اشتغلوا به بعد الاسلام من علوم شرعية ولغوية.

واضمان التحرى فى العلوم الشرعية وضع العلماء للرواية ورواة الأحاديث النبوية أصولا وقواعد فى علم مصطلح الحديث ، ووضعوا كذلك كتبا مختلفة فى طبقات رجال الحديث وغيرهم ، كل هذا لحرصهم على الدقة وقصدهم إلى الأمانة العلمية .

هذا هو النهج الذى سلكه العلماء فى بحوثهم وهو نهج له أثره وجدواه ، وقد أثمر ثمارا طيبة فى تمحيص الحقائق وتدوين كثير من النواحى العلية فى الثقافة العربية والشرعية .

ولكننا لا ننسى العوامل التى تعترض هذا أو التى يتحتم أن تعترضه وهى :

(ا) ما أشرنا إليه من أن العرب أميل إلى المعنى يجعلونه أساسا ،ولهذا نجدهم فى نقل الآثار قد يضعون لفظا مكان آخر ، وقد يرون الاثر بالمعنى. وقد ساروا على ذلك في طائفة من ذخائرهم الأدبية ، ولكنهم فى رواية

القرآن الكريم لم يحيدوا عن الدقة التامة ، لا فى رواية الألفاظ بنصها فحسب، بل حرصوا أيضا على طرق الأداء إلى حد المحافظة على الروم والاشمام (١)

وقد يروى الراوى قصيدة فيتصرف فى بعض ألفاظها أو يرويها طبقا للهجته وطبيعته التى درج عليها فى النطق والاداء . وهذا أيضا من أسباب الاختلاف فى رواية الشواهد .

وإذا كان هذا هو الشأن فى بعض نواحى الرواية من قبول الرواية بالمعنى ، فإن علماء اللغة لا يقنعون بهذا بل يتمسكون ، فى صدد الاحتجاج اللغوى ، بصحة الألفاظ وجريان الأساليب على النهج الصحيح . وهم لهذا لا يرتضون الرواية إلا إذا صحت عندهم ألفاظها .

ولكن هذا لم يتوافر لهم فى جميع الأحوال ، فإن رواية اللغة لم يوضع لها النظام الذى وضع لرواية الأحاديث النبوية ، من البحث فى تاريخ الرواة والتحقق من دقتهم والثقة بهم ، وتدوين تاريخهم الشخصى لتعرف درجتهم من الصدق والتحرى . ولهذا ظهرت فى القواعد آراء متباينة كان مبعثها الخلاف فى الألفاظ التى روى بها الشاهد الذى هو مناط الاحتجاج .

(ب) الوضع والصنعة فى الشعر :

كان الاعتماد فى نقل الشعر على الرواية وقد عرفت طائفة من الرواة بنقل

---

(١) الروم : هو الاتيان عند النطق ببعض الحركة فى حالة الوقف ويسمعه القريب المصغى دون البعيد ، ولا يكون في الفتح ولا فى النصب وسمى بذلك لانك تروم الحركة وتريدها حين لم تسقطها بالكلية (راجع شرح الشافية للرضى) . والاشمام : هو ضم الشفتين بعد الاسكان إشارة إلى الضم ، وهو يختص بادراك العين دون الاذن . والغرض منه بيان الفرق بين ما هو متحرك فى الوصل فيسكن الوقف وبين ما هو ساكن فى كل حال .

أشعار الشعراء ، ومن أشهرهم حماد الراوية (١) ، وكان لبعض الشعراء رواة يذيعون شعرهم . وهؤلاء الرواة كانوا من البصيرين بالشعر وأساليبه ، ولهم فى البيان العربى مقدرة ، ومنهم من يقول الشعر ويحفظ طائفة كبيرة منه .

وبناء على هذا لا يبعد أن تند كلمة أو عبارة فى قصيدة فيضع الراوى مكانها ما يناسب السياق ويتمم المعنى . بل إن بعضهم تجاوز هذا فكان يحاكى أساليب الشعراء بقصائد يضعها وينسبها إلى من شاء منهم ، ومنهم من كان ينسب الشعر لغير صاحبه .

جاء فى المزهر للسيوطى (٢)

« قالو أبو حاتم الأصمعى : كان خلف الأحمر أعلم الناس بالشعر ، وكان شاعراً ووضع على شعراء عبد القيس شعرا موضوعا كثيرا وعلى غيرهم ، وأخذ عنه ذلك أهل البصرة وأهل الكوفة . وكان يضرب به المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه .

---

(١) من أهل الكوفة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ويسألونه عن أيام العرب وعلومها وقال له الوليد بن اليزيد الاموى يوما وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه ياأمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديما ولا محدثا إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثير ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ، من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا . ثم أمره بالانشاد ، فأنشد حتى ضجر الوليد ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمائة ألف درهم (ابن خلكان ج١ ص ٢٠٥) .

(٢) ج ٢ ص ٢٥٣

وكان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يصنعون الشعر ويتقنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله .

حدثني من أثق به أنه كان عند حماد حتى جاء أعرابي فانشده قصيدة لم تعرف ولم يدر لمن هي ، فقال حماد: اكتبوها ، فلما كتبوها وقام الأعرابي، قال : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالا ، فقال حماد : اجعلوها لطرفه .

وقال الجاحظ : ذكر الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد عن يونس أنه قال : إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلحن ويكسر الشعر ويصنف ويكذب »

وقال ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء (١) : —

« لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم في أشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون . وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الأشكال .

ثم قال :

أخبرنا أبو خليفة أخبرنا ابن سلام قال : أخبرني أبو عبيدة أن ابن دؤاد متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النحيت فاتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمم . وقمنا بحاجته وكفيناه ضيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيتذكر المواضع التي

---

(١) ص ٢٣

ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله .

وقال :

كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار، كما أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة فقال : ما أطرفتنى شيئا ، فعاد اليه فانشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة فى مديح أبى موسى ، (١) فقال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دعها تذهب فى الناس »

هذا هو مادونه التاريخ بصدد افتعال الرواة .

على أن الافتعال فى الشعر ونسبته إلى غير قائلة قد يكون هين الخطب من الناحية اللغوية، ومن جهة الاستشهاد به على الاساليب والتراكيب والكلمات إذا كان هؤلاء الرواة فى العصور التى يحتج فيها العلماء بالكلام العربى ،فاذا كان الشعر الذى انتحلوه وصنعوه هو من كلامهم كان فى درجة لاتدعو إلى رفض الاحتجاج به . ولكن الذى يخشاه العلماء هو أن يتطرق الانتحال ودس المصنوع من الشعر إلى رجال من العصور التى لا يحتج بأقوال رجالها وأن يتسع هذا الميدان ويتسرب اليه الشك فتضيع معالم اللغة الصحيحة ويتغلب المولد وما ينبو عن العربية السليمه . ولهذا حرص العلماء على التحرى وانتهاج سبيل الدقة والتمحيص فى الرواية والرواة .

---

(١) القصيدة فى مدح أبى موسى الاشعرى ومطلعها :

هل تعرف الدار مذ عامين أو عام   دار لهند بجزع الخرج فالدام

والخرج والدام موضعان . وقد وردت القصيدة فى ديون الحطيئة (ص ٣٥) وأشير فيه إلى انها لحماد الراوية وأنه نحلها الحطيئة وان المدائني صحح أنها للحطيئة .

ولكن هل وصلوا إلى التغلب على الشعر الموضوع والمصنوع واقتلاعه؟ وهل أجمعوا على طريقة يتخذونها أساسا لرفض بعض الشعر وقبول بعضه ؟ وهل كان العلماء أمام هذه الأشعار فى درجة واحدة من الاقتناع بصحة نسبتها وسلامة أو ضاعها وروايتها . أو الاطباق على رفضها والحكم ببعدها عن الصواب ؟.

لانستطيع أن نجزم بهذا ، بل إن الواقع لايساعد على الجزم به . فان الروايات المختلفة والأشعار المشكوك فى نسبتها كانت مرجعا لبعض العلماء ، فقد وضع المولدون اشعارا ودسوها على الأئمة فاحتجوا بها وبنوا عليها نتائجهم ووصلوا على أساسها إلى قواعد دونوها ، وعارضهم فيها من لم ير رأيهم ، وكان هذا من أسباب مانرى بين النحاة من خلاف فى الرأى .

من كل هذا يتضح ما صادف علماء القواعد من مختلف الشواهد ومتباين الأمثلة، مما نجم عنه كثير من الخلاف والآراء ، المتشعبة . فالمثال أو الأمثلة قد تصح عند فريق فيجيزون رأيا من الآراء ، وينكرها آخرون فيرفضونه . وقد أثر ذلك فيما دون من القواعد وفى وجوه الخلاف بين العلماء ، وقد رأينا شيئا من هذا فيما أوردنا من أمثلة للخلاف بين البصريين والكوفيين.

* * *

(مقدار مايتوافر لدى الباحث من الأمثلة والشواهد للوصول إلى قياس صحيح).

أشرنا من قبل إلى أن النحاة حين أرادوا استخلاص القواعد بحثوا فى الأمثلة التى وردت عن العرب عن طريق الرواية أو المشافهة ، وأنهم لم يجدوا الأمثلة فى درجة واحدة من الاطراد ، ولهذا كانت الأحكام التى وصلوا اليها مختلفة فمنها المطرد والغالب والكثير والقليل والنادر والشاذ .

فعلى أى هذه الأنواع نقيس ؟

لقد اختلف النحاة فى ذلك . فالبصريون وهم الطائفة المحافظة أكثر تشدداً وحرصا ، فلايقيسون إلا على ماتوافرت شواهده وأمثلته . والكوفيون وهم أشبه بالأحرار يخالفون البصريين فيقيسون أحيانا على مالم تتوافر فيه الشواهد الكافية . وقد يقيسون على القليل أو ماهو دون ذلك .

* * *

هذه هى بعض الأحوال التى تصادف من يتصدى للقياس ويبغى استخلاص الخصائص النحوية .

وقد سار العلماء يقطعون كل هذه العقبات فى سبيل الوصول إلى القواعد النحوية التى دونوها بعد الكد والبحث وليس غريبا بعد الذى أوضحناه أن تجىء هذه القواعد مشحونة بأوجه متعددة من الخلاف .

ولم يكن تشعب الآراء مقصوراً على الخلاف فى الأحكام النحوية ، بل كان إلى جانب ذلك آراء مختلفة فى تخريج العبارات وتأويل ضبطها وسرد متباين الأسباب لترجيح حالة على أخرى ، مماسنورد أمثلة منه بعد .

ومرجع ذلك إلى عاملين أساسيين

أولهما : تلك الأسباب العامة التى ارتكز عليها الخلاف النحوى من اختلاف اللهجات ، وتعدد الروايات، وتباين الشواهد قوة وضعفا ، وغير ذلك مما عرضنا لشرحه .

وثانيهما : ماأشرنا إليه من ميل اللغة العربية إلى الافتنان فى التعبير وصوغ العبارات على أساليب مختلفة. مماجعل النحاة يسايرون ذلك ويوجهون العبارات توجيهات مختلفة تحتمل كثيراً من وجوه التأويل والتخريج .

ولهذا كثرت الآراء واحتدم الجدل وامتلأت به كثير من المؤلفات النحوية

وقد أشار ابن خلدون إلى شيء من ذلك، قال (١): -

« ثم طال الكلام فى هـذه الصناعة، وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفةوالبصرة، المصرين القديمين للعرب، وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق فى التعليم، وكثر الاختلاف فى إعراب كثير من آى القرآن باختلافهم فى تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين، وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيفائهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك فى كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين، كما فعله الزمخشرى فى «المفصل» وابن الحاجب فى المقدمة له، وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك فى الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معطى فى الأرجوزة الالفية. وبالجملة فالتآليف فى هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين، والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك. »

وهنالك عامل ثالث قد يكون له شأن فى تدوين هذه الآراء المتعددة، والتمسك بتسجيلها، وذلك هو حرص النحاة واللغويين والباحثين فى أنواع الثقافة العربية على آراء المتقدمين وأقوالهم، وعلى إثبات دقائقها، ولعل مبعث ذلك هو الشعور الدينى الذى حفزهم إلى التزام التحرى فى تدوين ما له صلة بتفسير القرآن الكريم، وتفهم الدين وأحكامه من علوم لسانية.

وقد يكون لكل هذا أسباب أخرى غير ما ذكرناه، فللموضوع جهاته التى تقبل التعمق والبحث، ولكن مهما يكن من أمر الأسباب، فالنتيجة الثابتة هى هذه الظاهرة التى نراها فى القواعد النحويه، وهى تشعب الخلاف وتعدد ألوانه.

---

(١) المقدمة الفصل السابع والثلاثون

فما أثر ذلك ؟ وما ضرورته ؟

(١) أما أثره : فهو هذه الضخامة التى انتهى إليها علم النحو ، وهذا التشعب الكثير فيما ازدحم به من آراء ، حتى أصبح هــذا العلم من أكثر العلوم العربية تشعبا واتساعا ، وجد كثير من علماء النحو فى بعض العصور العربية فى أن يكون لكل منهم مؤلف ينهج فيه نهجا يرسمه لنفسه . وظهر فى المطول من هذه المؤلفات ذلك الميل إلى استيفاء الآراء المختلفة ، وتدوينها مقرونة بأسبابها وعللها ووجوه تخريجها . وبذلك أصبحت كل قاعدة من القواعد النحوية محوطة بسياج من الخلاف المتشعب ، وصار كثير من العبارات مثارا للجدل فى ضبطها وتأويلها .

(٢) وأما ضرورته : فانا نرى أنه ينبغى أن نفرق ، فى البحث وفى التأليف ، بين القواعد النحوية التى نحتاج اليها فى التطبيق وفى تقويم الألسنة وتفهم العبارات . وبين ما نطق به العرب وما جرى على ألسنة قبائلهم وما نقله الرواة من شعر ونثر تضمن مختلف اللهجات ، واشتمل على النادر أو الشاذ ، وما تطرق إلى روايته الانحراف أو اختلاف الضبط . ثم نفرق بين كل هذا وبين هذه الناحية الفلسفية أو التعليلية ، وبذلك تتجه الدراسة وطريقة التأليف إلى البحث فى شعب مختلفة يستقل بعضها عن بعض وتنال كل شعبة قسطها طبقا للغاية التى ترسم لها .

وسنتم هذا البحث حينما نتعرض للكلام على المؤلفات النحوية وطريقتها .

* * *

أركان القياس

أركان القياس أربعة وهى : أصل وفرع وحكم وعلة .

أما الأصل فهو المقيس عليه ، والفرع هو المقيس، والحكم هو مايسرى

على المقيس ، والعلة هى ما رآه النحاة من أسباب استحق بها المقيس حكم المقيس عليه .

المقيس عليه

ويشترط فيه ألا يكون شاذاً ولا خارجا عن سنن القياس . فاذا سمع ما يعارض القياس تركنا القياس ونطقنا بالمسموع وليس لنا أن نقيس على المسموع الشاذ .

قال ابن جنى : — (١)

« إذا تعارض القياس والسماع نطقت بالمسموع على ما جاء عليه ، ولم تقسه فى غيره ، وذلك نحو قول الله تعالى «استحوذ عليهم الشيطان» فهذا ليس بقياس ، لكنه لا بد من قبوله ، لأنك إنما تنطق بلغتهم وتحتذى فى جميع ذلك أمثلتهم » .

ولكن ما استعمل للضرورة يجوز القياس عليه للضرورة . والضرورات سماعية لا يجوز للمولد احداث شىء منها ، ولا مساغ لأحد أن يضطر إلى غير ما اضطروا إليه ، فاذا سمع عن العرب ضرورة فى شعرهم اتبعناهم فيها ، وما أجازته الضرورة للعرب أجازته لنا ، وما حظرته عليهم حظرته علينا » .

امثلة من ضرورات الشعر

وقد بحث النحاة فى ضرورات الشعر ، وأوردوا ذلك فى مواضعه من مباحث القواعد النحوية ، لاتمام الكلام فى كل قاعدة واستيفاء شروطها .

فمن ذلك :

(١) وقوع الضمير المتصل بعد إلا كقوله :

---

(١) ص ١٢٣ من الخصائص

وما نبالى إذا ماكنت جارتنا   الا يجاورنا الاك ديار

(٢) مجيء الضمير منفصلا إذا تأتى مجيء المتصل كقول الفرزدق :

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت   اياهم الأرض فى دهر الدهارير(١)

(٣) اضافة كلا وكلتا الى اثنين مفرقين ، وذلك أن كلا وكلتا لا يضافان إلا لما استكمل ثلاثة شروط :

(ا) التعريف (ب) الدلالة على اثنين، إما بالنص نحو كلاهما أو بالاشتراك نحو كلانا (حـ) أن يكون كلمة واحدة . أما قوله :

كلا أخى وخليلى واجدى عضدا   فى النائبات وإلمام الملمات

فمن نوادر الضرورات .

(٤) حذف الفاء فى جواب الشرط ، كقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

من يفعل الحسنات الله يشكرها   والشر بالشر عند الله مثلان

وقوله :

ومن لا يزل ينقاد للغى والصبا   سيلفى على طول السلامة نادما

(٥) حذف الفاء فى جواب اما ، كقوله :

فاما القتال لا قتال لديكم   ولكن سيرا فى عراض المواكب(٢)

* * *

وقد جمع العلامة السيد محمود شكرى الألوسى فى كتابه «الضرائر» كثيرا

---

(١) من قصيدة للفرزدق يفتخر ويمدح بنى مروان . وقبله :

انى حلفت ولم أحلف على فند   فناء بيت من الساعين معمور

الفند الكذب . وفناء ظرف لحلفت

(٢) الشاعر يهجو بنى أسد ويصفهم بالجبن والعجز عن السير والقتال لمنازلة الاقران وبأنهم لا يقدرون إلا على السير فى المواكب . وقبل هذا البيت :

فضحتم قريشا بالفرار وأنتم   قمدون سودان عظام المناكب

القمد بضم القاف والميم وتشديد الدال القوى الشديد . وسيرا اسم لكن والخبر محذوف أو أن اسمها محذوف وسيرا نصب على المصدر بفعل مقدر أى ولكنكم تسيرون سيرا .

من ضرورات الشعر، ورتبها وقسمها أقساما ثلاثة، وهى ضرورات الحذف، وضرورات الزيادة، وضرورات التغيير، وساق أمثلة كثيرة لكل نوع.

(ا) فمن ضرورات الحذف :

قصر الممدود — ترخيم غير المنادى — حذف نون الوقاية من (قد وقط ومن وعن وليت) — الوقف على المنون المنصوب بحذف الألف — حذف نون لكن — حذف نون جمع المذكر السالم ونون المثنى لا لإضافة - حذف الألف من ضمير المؤنث الغائب.

(ب) ومن ضرورات الزيادة :

زيادة الواو والفاء العاطفتين - زيادة نون الوقاية ونون التوكيد فى اسم الفاعل - تنوين المنادى المبنى على الضم - دخول (ال) على الفعل المضارع وعلى التمييز - دخول الحرف على الحرف.

(حـ) ومن ضرورات التغيير.

اثبات همزة الوصل فى الدرج - فك الادغام الواجب - تخفيف المشدد - الفصل بين المتضايفين بالأجنبي - الجزم باذا - اضافة حيث الى المفرد - فتح نون المثنى وضمها - اظهار الضمة والكسرة على ياء الاسم المنقوص - الجمع بين (يا) و (ال) - جر المضمر بالكاف - اضافة (أى) الى المفرد.

على أن بعض أنواع الضرورات كان موضع خلاف بين النحاة. ومن أمثلة ذلك :

(١) الوقف على المنون المنصوب بحذف الألف، فالجمهور يعدون ذلك من ضرورات الشعر، وابن مالك يجيز ذلك وينسبه إلى ربيعة (١).

(٢) زيادة الواو والفاء العاطفتين : وهو ضرورة عند البصريين. وذهب الكوفيون إلى جوازه.

(١) شرح الاشمونى وحاشية الصبان جـ٤ ص ١٥٢ ، وهمع الهوامع جـ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) صرف مالا ينصرف ، وبعضهم يقول انه مطرد فى لغة .

(٤) الاستغناء بالضمة عن واو الضمير مثل :

فلو أن الاطبا كان حولى وكان مع الأطباء الشفاة
إذا ما أذهبوا ألما بقلبى وان قيل الشفاة هم الاساة

استشهد النحاة بهذا على الاستغناء بالضمة عن الواو والأصل (كانوا) ويقول بعضهم إن ذلك لغة . وقد رأى ابن مالك ذلك ، واستشهد الرضى بهذا على أنه ضرورة .

ومن ذلك أيضا قوله :

إذا ما شاء ضرواءن أرادوا ولا يألو لهم أحد ضرارا

أى شاءوا . وقوله :

وإذا احتملت لأن تزيدهم تقى فروا فلم يزداد غير تماد

أى يزدادوا .

***

وليس من شروط المقيس عليه الكثرة . فقد يقاس على القليل كما فى النسب الى شنوءة ، فيقال شنإى ، فيقاس عليه ركوبة وحلوبة . وذلك أنهم أجروا فعولة مجرى فعيلة لمشابهتها إياها فى بعض النواحى(١) ، ويمتنع القياس على ما هو أكثر منه ، كما فى قولهم : قرشى وثقفى وسلمى ، فى النسب إلى قريش وثقيف وسليم . فهذا وان كان أكثر من شنإى فانه عند سيبويه ضعيف فى القياس ، فلا يجوز على هذا فى سعيد سعدى ولا فى كريم كرمى .

---

(١) الخصائص ص ١٢١

المقيس

وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم (١) . فلنا أن نقيس على ما نطق به العرب ولو لم نسمع بهذا المقيس . وهذا واضح من الأحكام المنطقية للقياس ، فان القاعدة التى نصل إليها بالاستقراء نستطيع أن نطبقها على أمثلة جديدة ، ولو لم نسمع بها أو لم ينطق بها العرب .

وأثر هذا يتجلى فى الاشتقاق والمشتقات ، فالقياس عليها يزيد الثروة اللغوية ويمكن علماء اللغة من تنميتها ومواجهة الأحوال التى يتطلبها الجديد من شئون الحياة . وقد طبق مجمع فؤاد الأول للغة العربية قواعد القياس على بعض النواحى اللغوية .

وأصدر فى ذلك قرارات لها أثر عظيم فى التيسير اللغوى وفى القياس على كلام العرب . ويرجى أن يكون لما سيصدر من هذا النوع فى المستقبل شأن فى كثير من وجوه الاصلاح اللغوى والنحوى ، ففى قواعد اللغة العربية مجال لقبول كثير من ألوان الاصلاح والقياس .

ومما أصدره المجمع من القرارات فى أدوار انعقاده ما يأتى : (٢)

(١) قرار تكملة مادة لغوية ورد بعضها فى المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها .

(٢) قرار النسبة إلى جمع التكسير .

(٣) قرار قياس صيغة « مفعلة » للمكان الذى يكثر فيه الشىء .

(٤) قرار صيغة « فعال » للمبالغة .

(٥) اتصال « لا » بالاسم

---

(١) الخصائص ص ٣٦٢

(٢) راجع الجزء الثانى من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ص ٢٣ والجزء السادس ص ٧٥ و ٧٦ و ١٧٢

(٦) قياس جمع الجمع

(٧) قياس جمع المصدر

(٨) قياس « فعل » المضعف العين

(٩) قياس المصدر الذى على وزن تفعال

* * *

الحكم

قد وصل العلماء ببحثهم إلى أحكام متعددة للقواعد النحوية فقسموا الحكم النحوى إلى واجب وممنوع وحسن وقبيح وخلاف الأولى وجائز على السواء :

(١) فالواجب كرفع الفاعل ونصب المفعول .

(٢) والممنوع ضد ذلك .

(٣) والحسن كرفع المضارع الواقع فى جواب الشرط الماضى.

(٤) والقبيح كرفعه اذا كان فعل الشرط مضارعا .

(٥) وخلاف الأولى كتقديم الفاعل فى نحو أخبر صديقه محمداً .

(٦) والجائز على السواء كحذف المبتدأ أو الخبر أو اثباته حيث لا مانع من الحذف ولا مقتضى له .

ويبدو من هذا أن علماء النحو فى بحثهم قد قصدوا أن يجعلوا النحو علما، وأن يحاكوا ما سلكه علماء الشريعة فى مباحثهم من تقسيم و تفريع ،ولعلهم قد تأثروا أيضا بالبحوث الفلسفية والمنطقية التى ذاعت فى صدر الدولة العباسية.

العِلّة

ان المقيس إنما يستحق حكم المقيس عليه إذا توافرت فيه صفات ومميزات تستلزم هذا الحكم. فالفاعل مثلا له فى الجملة وضع خاص ، فاذا تحقق هذا فى كلمة كانت فاعلا واستحقت الرفع . ومثل ذلك يقال فى جميع خصائص النحو.

فهذه الصفات أو المميزات هى العلة ، وان الاهتداء اليها ليس بالأمر العسير . فان للغة أوضاعا ومميزات تستدعى الخصائص المعروفة من أوجه الاعراب وابدال الحروف وغير ذلك .

واستخدام القياس للوصول إلى الخصائص والأحكام النحوية ليس بالأمر العسير على هذا الأساس . والعلة التى بها ندرك هذه الخصائص أو ننقل حكمها النحوى إلى الجزئيات ليست بالأمر الغامض . فإنا نقول مثلا فى نحو « جاء الحق » إن كلمة الحق دلت على من وقع منه الفعل، وكل كلمة دلت على ذلك فهى فاعل ، فكلمة الحق فاعل . فالعلة هنا هى أن الكلمة دلت على من وقع منه الفعل ، وهى التى من أجلها حكمنا بالحكم النحوى .

ثم نقول إن كلمة الحق « فاعل » وكل فاعل مرفوع. فالكلمة مرفوعة. فالعلة فى رفعها أنها فاعل .

وهذا النوع من العلة هين الخطب ، ويسمى العلة التعليمية . وهى التى يتوصل بها إلى تعليم كلام العرب وخصائصه . وأساسها محاكاة العرب فيما قالوه ، والقياس على كلامهم .

وهناك نوع آخر من العلة هو أشبه بتلمس سبب للأمر الواقع . وقد ذكر السيوطى فى كتاب الاقتراح (١) عدة أنواع منها :

(١) ص ٤٨

(١) علة السماع : مثل امرأة ثدياء ولا يقال رجل أثدى ، وليس لذلك علة سوى السماع .

(٢) علة تشبيه : مثل إعراب المضارع لمشابهته الاسم ، وبناء بعض الأسماء لمشابهتها الحروف .

(٣) علة استثقال : استثقالهم الواو فى (يعد) لوقوعها بين ياء وكسرة

(٤) علة تعويض : مثل تعويضهم الميم فى اللهم من حرف النداء .

(٥) علة حمل على المعنى : مثل (فمن جاءه موعظة من ربه) ذكر الفعل المسند إلى كلمة الموعظة ، وهى مؤنثة ، حملا لها على المعنى وهو الوعظ .

(٦) علة مشاكله مثل : « سلاسلا وأغلالا » فتنوين سلاسلا مع أن الكلمة ممنوعة من الصرف للمشاكلة .

(٧) علة مجاورة : مثل ضم لام الله فى الحمد لله لمجاورتها الدال .

(٨) علة تغليب : مثل وكانت من القانتين .

(٩) علة اختصار مثل الحذف فى باب الترخيم ، وحذف نون المضارع من كان فى الجزم فى لم يك .

(١٠) علة أصل : مثل استحوذ ويؤكرم .

ولكن النحاة فى بحثهم عن العلة لم يقتصروا على هذا بل بحثوا فى علة العلة أو فيما يقول عنه ابن جنى أنه « شرح وتفسير وتتميم للعلة » وسلكوا فى بحوثهم عن العلة مسلكا أبعدهم عن هذا النوع التعليمى ، وتعمقوا تعمقا فلسفيا ، ، فنشأ ضرب من العلة وهو العلة الجدلية النظرية .

فيقولون فى مثل « إن الحق واضح » لماذا نصبت كلمه الحق بان؟ والجواب هو لمشابهتها هى واخواتها للفعل المتعدى إلى مفعول ، ويكون المنصوب بها مشبها بالمفعول . ثم يسوقون أسئلة أخرى وهى : من أى جهة شابهت هذه الحروف الأفعال ؟ وبأي الأفعال شبهت ؟ أبالماضي أم بالمستقبل أم الحال ؟

إلى غير ذلك مما يدخل فى البحث الجدلى النظرى .

ونجد للنحاة فى هذا النوع الجدلى من التعليل اسهابا و تعمقا هو فى كثير من نواحيه أشبه بالبحث الفلسفى . فهل جالت هذه التعليلات بخاطر العرب وقد كانوا ينطقون بالسليقة؟ وهل هى السبب فيما نرى فى اللغة العربية من خصائص؟

يقول السيوطى فى كتابه الاقتراح (١) .

إذا استقريت أصول هذه الصناعة علمت انها فى غاية الوثاقة ، وإذا تأملت عللها عرفت أنها غير مدخولة ولا متسمح فيها . وأما ما ذهب اليه غفلة العوام من أن علل النحو تكون واهية ومتمحلة واستدلالهم على ذلك بأنها أبدا تكون هى تابعة للوجود لا الوجود تابعا لها فبمعزل عن الحق »

ويقول ابن جنى فى الخصائص (٢) :

اعلم أن علل جل النحويين ، وأعنى بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفين ، أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين . وذلك أنهم إنما يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس .

ثم ساق طائفة من الأدلة بما سرد من أمثلة لقلب الواو ياء فى نحو ميزان وسيد وطويت طيا . ثم قال (٣):

« ولست تجد شيئا مما علل به القوم وجوه الاعراب إلا والنفس تقبله والحس منطو على الاعتراف به ، ألا ترى أن عوارض ما يوجد فى هذه اللغة شىء سبق وقت الشرع ، وفزع فى التحاكم فيه إلى بديهة الطبع ، فجميع علل النحو إذن مواطئة للطباع ، وعلل الفقه لا ينقاد جميعها هذا الانقياد »

ثم رد على اعتراض من قالوا إن فى اللغة أشياء لا نعرف لها سببا ولا نجد إلى الاحاطة بها مذهبا . فمن ذلك إهمال ما أهمل وليس فى القياس مايدعو

---

(١) ص ٤٦ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ٥٠

إلى اهماله ، ومنه الاقتصار فى بعض الأصول على بعض المثل ولا نعلم قياسا يدعو إلى تركه . ثم قال (١) :

« فان قلت : ومن أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفته، وعنيت بأحواله وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامى الذى نسبته اليها وزعمته مرادا لها ، وما انكرت أن يكون القوم أجفى طباعا ، وأيبس طينا من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق ، الذى لا يصح لذى الدقة والرقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له انحاؤه ، بل أن تشرح له أعضاؤه .

قيل له : هيهات ! ما أبعدك عن تصور أحوالهم ، وبعد أغراضهم ، ولطف أسرارهم ، حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم وخففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا واخفوها فلم يمكنوها فى أماكن كثيرة ولم يشبعوها . . . ومنه اسكانهم نحو رسل وعجز وعضد وظرف وكرم وعلم وكتف وكبد وعصر . واستمرار ذلك فى المضموم والمكسور دون المفتوح أدل دليل بفصلهم بين الفتحة وأختيها على ذوقهم الحركات واستثقالهم بعضها واستخفافهم الآخر ، فهل كان هذا ونحوه إلا لانعامهم النظر فى هذا القدر اليسير المختصر من الأصوات، فكيف بما فوقه من الحروف التوام، بل الكلمة من جملة الكلام » .

ونقل السيوطى فى كتاب الاقتراح ما يأتى : (٢)

وفى موضع آخر من الخصائص :

« لا شك أن العرب قد أرادت من العلل والاغراض ما نسبناه اليها، الاترى إلى اطراد رفع الفاعل ونصب المفعول والجر بحروفه والنصب بحروفه والجزم بحروفه، وغير ذلك من التثنية والجمع والإضافة والنسب والتحقير وما يطول شرحه، فهل يحسن بذى لب أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وقع وتوارد اتجه ؟

---

(١) ص ٤٧ (٢) ص ٤٧

فان قلت : فلعله شيء طبعوا عليه من غير اعتقاد لعلة أو لقصد من القصود التى تنسبها اليهم ، بل لأن آخر منهم حذا على مانهج الأول فقال به ، قيل إن الله إنما هداهم لذلك وجعلهم عليه لأن فى طباعهم قبولا له وانطواء على صحة الوضع فيه ، وتراهم قد اجتمعوا على هذه اللغة وتواردوا عليها .

فان قلت : كيف تدعى الاجتماع وهذا اختلافهم موجود ظاهر ، ألا ترى إلى الخلاف بين « ما » الحجازية والتميمية إلى غير ذلك ؟ قيل هذا القدر والخلاف لقلته محتقر غير محتفل به وإنما هو شيء من الفروع يسير ، فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه ، وأيضا فان أهل كل واحدة من اللغتين عدد كثير وخلق عظيم . وكل منهم محافظ على لغته لا يخالف شيئا منها . فهل ذلك إلا لأنهم يحتاطون ويقتاسون ولا يفرطون ولا يخلطون؟ ومع هذا فليس شيء من مواضع الخلاف على قلته إلا وله وجه من القياس يؤخذ به . ولو كانت هذه اللغة حسوا مكيلا وحشوا مهيلا لكثر خلافها وتعادت أوصافها فجاء عنهم جر الفاعل ورفع المضاف اليه والنصب بحروف الجزم »

وابن جنى يسير فى هذه الناحية على أنه من أنصار علل العربية التى يرجع سببها إلى سهولة النطق أو ثقله . وهذا رأى سليم فى جملته ، فان الألسنة بطبيعتها تتصرف فى الحروف فتغير فيها وتبدل . وتقلب بعضها إلى بعض . وقد أشرنا من قبل إلى أن اللغة العربية قد أتيحت لها فى هذه النواحى فرص فى حياتها الأولى حين كان مرجعها إلى المشافهة واطلاق الحرية للسان فى حدود السهولة واليسر والبعد عن الوعورة والتعسف فى النطق .

ورأى ابن جنى فى هذه العلل اللسانية له قيمته وأصوله الصوتية . فلهذا العالم القدير فى هذه النواحى بحوث طريفة تدل على دقة وتمحيص فى الحروف ومخارجها وإبدال بعضها من بعض . وقد أفاض في هذا في كتابه « سر صناعة

الاعراب »(١) . وإن مباحثه المتصلة بهذا في كتاب الخصائص تتجلى فيها المتانة والإحكام فى الأصول اللغوية التى بنى عليها آراءه .

ولسنا نريد بهذا أن نقول إن جميع العلل النحوية التى يسوقها جميع النحاة هى علل طبيعية مسايرة للفطرة فى النطق ، ولا أن نقرر أن ابن جنى يقصد هذا ، فانه فى عبارته التى سقناها فى علل النحويين يقول «وأعنى بذلك حذاقهم المتقنين لا الفافهم المستضعفين » وظاهر من هذا أن من النحويين من لهم تعليلات لا يقرها ابن جنى . لأنها ليست مبنية على الأصول التى يراها .

ومن هذا يتضح أن من التعليلات النحوية ما هو مشوب بالظن والتخمين ، وأن الميدان فسيح للبحث فى هذه العلل وتمحيصها على أسس من علم الأصوات ، ومن طرائق العرب فى نطقها ، ومن تمسكهم بخصائص التزموها فى لغتهم .

على انا لا نقصد بهذا أن نقول إن العلل النحوية واهية الأساس ، بل نقول انها تتسع لإبداء الرأى وتخضع للحكم السليم لها أو عليها ، لأن العرب لم يقولوا انهم التزموا ما التزموه فى لغتهم من خصائص لهذه التعليلات بذاتها التى يسوقها النحاة .

وقد نقل السيوطى (٢) «أن الخليل بن احمد سئل عن العلل التى يعتل بها فى النحو ، فقيل له عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك . فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقامت فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعللت انا بما عندى انه علة لما عللته منه ، فان اكن اصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن يكن هناك غير ما ذكرت فالذى ذكرت محتمل أن يكون علة له »

وانا نسوق أمثلة للتعليلات التى دونها النحاة .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية

(٢) ص ٥٧ من الاقتراح

أمثلة للعلل النحوية

(١) لم زيدت أحرف « أنيت » دون غيرها فى الفعل المضارع ؟

لأن الأصل أن تزاد حروف المد واللين وهى الواو والياء والألف، إلا أن الألف لما لم يمكن زيادتها أولا ، لأنها لا تكون إلا ساكنة والابتداء بالساكن محال ، ابدلوا منها الهمزة لقرب مخرجيهما . وكذلك الواو أيضا لما لم يمكن زيادتها أولا . لأنه ليس فى كلام العرب واو زيدت أولا فابدلوا منها التاء ، لأنها تبدل منها كثيرا الا ترى انهم قالوا تراث وتجاه وتخمة وتهمة والأصل وراث ووجاه ووخمة ووهمة . وأما الياء فزيدت لأنها لم يعرض فيها ما يمنع زيادتها كما عرض فى الألف والواو . وأما النون فانما زيدت لأنها تشبه حروف المد واللين وتزاد معها فى باب المثنى وجمع المذكر .

(٢) لماذا حذف التنوين من المضاف وجر المضاف اليه ؟

أما حذف التنوين فلأنه يدل على الانفصال ؛ والإضافة تدل على الاتصال فلم يجمعوا بينهما .

وأما جر المضاف اليه فلأن الاضافة لما كانت على ضربين : بمعنى اللام وبمعنى « من » وحذف حرف الجر قام المضاف مقامه فعمل فى المضاف اليه الجر كما يعمل حرف الجر

(٣) لماذا حذفوا تاء التأنيث فى النسب إلى المؤنث بها كقولهم فى النسب الى مكة مكى ؟

وذلك لخمسة أوجه :

(١) لئلا تقع فى حشو الكلمة ، وتاء التأنيث لا تقع فى حشو الكلمة .

(ب) لئلا يؤدى بقاؤها الى الجمع بين تاءى التأنيث فى النسب إلى المؤنث اذا كان المنسوب مؤنثا .

(ج) لأن ياء النسب قد تنزل منزلة تاء التأنيث فى الفرق بين الواحد والجمع، كما قالوا روم ورومى وزنج وزنجى ففرقوا بين الواحد والجمع بياء النسب كما فرقوا بينهما بتاء التأنيث فى نخلة ونخل وتمرة وتمر ، فلما وجدت المشابهة بينهما لم يجمعوا بينهما .

(د) انها إنما حذفت لأن هذه التاء حكمها أن تنقلب فى الوقف هاء ، ولما اعتورها التغيير كان حذفها أسهل.

(ه) انها بمنزلة اسم ضم الى اسم ، ولو نسبت إلى اسم ضم الى اسم لحذفت الثانى فكذلك تاء التأنيث .

(٤) لماذا وجب قلب همزة التأنيث فى النسب واوا فى نحو حمراء ولم يجب ذلك فى النسب إلى كساء وعلباء ؟

السبب أن همزة التأنيث ثقيلة لأنها عوض عن علامة التأنيث التى توجب ثقلا فوجب قلبها واوا ، ولم تقلب ياء لئلا تجتمع ثلاث ياءات مع الكسرة .

وأما همزة كساء فهى منقلبة عن حرف أصلى فاجريت مجرى الهمزة الأصلية نحو قراء ووضاء . ويجوز قلبها واوا تشبيها بألف التأنيث .

وكذلك الهمزة فى علباء ملحقة بحرف أصلى فاجريت مجرى الهمزة الأصلية التى لا تقلب واوا ويجوز قلبها كذلك .

(٥) لماذا كان اعراب التثنية والجمع بالحروف دون الحركات ؟

لأن التثنية والجمع فرع على المفرد ، والاعراب بالحروف فرع على الحركات فكما اعرب المفرد الذى هو الأصل بالحركات التى هى الأصل ، كذلك اعرب المثنى والجمع اللذان هما فرع بالحروف التى هى فرع ، فاعطى الفرع الفرع كما اعطى الأصل الأصل .

(٦) لماذا خصوا التثنية فى حالة الرفع بالألف والجمع السالم بالواو واشركوا بينهما فى الجر والنصب ؟

قد خصوا التثنية بالألف والجمع بالواو لأن التثنية أكثر من الجمع ، لأنها تدخل على من يعقل وعلى من لا يعقل وعلى الحيوان وعلى غير الحيوان من الجماد والنبات ، وليس كذلك الجمع السالم فانه فى الأصل للعقلاء خاصة . فلما كانت التثنية أكثر والجمع أقل جعلوا الأخف وهو الألف للأكثر ، والأثقل وهو الواو للاقل ، ليعادلوا بين التثنية والجمع .

وإنما أشركوا بينهما فى النصب والجر لأن التثنية والجمع لهما ستة أحوال وليس هناك إلا ثلاثة أحرف فوقعت الشركة ضرورة .

(٧) لماذا ضموا الأول وكسروا الثانى فى البناء للمجهول نحو كتب الدرس؟

أما ضم الأول فلكى يكون دلالة على المحذوف الذى هو الفاعل إذ كان من علاماته . وأما كسر الثانى فلأنهم لما حذفوا الفاعل الذى لا يجوز حذفه أرادوا أن يصوغوه على بناء لا يشركه فيه شىء من الأبنية فبنوه على هذه الصيغة فكسروا الثانى ، لأنهم لو ضموه أو فتحوه أو سكنوه لكان على وزن له نظير . فلم يبق إلا الكسر .

(٨) لماذا ادخلت التاء فى الاعداد من الثلاثة إلى العشرة فى المذكر ولم تدخل فى المؤنث ؟ وهلا عكسوا ؟

ذلك لعدة أوجه :

الأول - أن الأصل فى العدد أن يكون مؤنثا والأصل فى المؤنث أن يكون بالهاء ، والمذكر هو الأصل فأخذ الأصل حالة التأنيث فبقى المؤنت بغير تاء .

الثانى - أن المذكر أخف من المؤنث ولذا احتمل الزيادة ، والمؤنث أثقل فلم يحتملها .

الثالث - أن الهاء زيدت للمبالغة والمذكر أفضل فكان أولى بزيادتها .

الرابع - أن الثلاثه واخواتها أسماء جماعات فالأصل أن تكون بالتاء

فاستصحب الأصل مع المذكر لتقدم رتبته وحذفت مع المؤنث فرقا لتأخر رتبته

(٩) لماذا حذفت الواو من أحد عشر إلى تسعة عشر وجعل الاسمان اسما واحدا ؟

فعلوا ذلك حملا على العشرة وما قبلها من الآحاد لقربها منها لتكون على لفظ الاعداد المفردة، وان كان الأصل هو العطف، والذى يدل على ذلك انهم إذا بلغوا إلى العشرين ردوها إلى العطف لأنه الأصل . وإنما ردوها بعد العشرين لبعدها عن الآحاد .

(١٠) لماذا قالوا ثلثمائة ولم يقولوا ثلاث مئين ؟

لأنهم اكتفوا بلفظ المائة لأنها تدل على الجمع وهم يكتفون بلفظ الواحد عن الجمع ، قال تعالى « ثم نخرجكم طفلا »

ولماذا يجمع الألف إذا دخل على الآحاد ولم يفرد معها كالمائة ؟

لأن الألف طرف كما أن الواحد طرف ، لأن الواحد أول والألف آخر ثم تتكرر الاعداد فلذلك اجرى مجرى ما يضاف إلى الآحاد .

(١١) لماذا عملت حروف الجر ؟

لأنها اختصت بالأسماء ، والمختص من الحروف يجب أن يكون عاملا. وإنما وجب أن تعمل الجر لأن اعراب الاسماء رفع ونصب وجر ، فلما سبق الابتداء إلى الرفع فى المبتدأ والفعل إلى الرفع أيضا فى الفاعل وإلى النصب فى المفعول لم يبق إلا الجر .

وهناك تعليل آخر وهو أنها إنما عملت الجر لأنها تقع وسطا بين الاسم والفعل ، والجر وقع وسطا بين الرفع والنصب فاعطى الأوسط الأوسط .

(١٢) لماذا منع ما لا ينصرف التنوين والجر ؟

أما منع التنوين فلانه علامة التصرف ، فلما وجد ما يوجب منع التصرف وجب أن يحذف ومنع الجر تبعا له .

وهناك وجه آخر ، وهو أنه إنما منع الجر أصلا لا تبعا لأن منع الصرف سببه شبه الفعل والفعل ليس فيه جر ولا تنوين .

* * *

هذه نماذج مما يسوق النحاة فى كتبهم من علل .

ولا نقصد أن نقول إن خصائص اللغة لا تعلل ، فانه مما يسترعى التفكير أن نجد أن العرب التزموا طرقا خاصة فى الكلمات وتصريفها وتركيبها، وفى أساليب التعبير . والباحثون يميلون إلى أن يلتمسوا لكل ظاهرة سببا . وقد يجىء تعليلهم صحيحا أو قريبا من الصواب . ولكن بعض التعليلات تدعو إلى القول بأنهم إنما وضعوا هذه العلل لتفسير الأمر الواقع معتمدين فى ذلك على خبرتهم بمقاصد العرب فى لغتهم وأساليبهم ، وقد تكون هذه الخبرة سليمة كافية فى بعض النواحى وفى طائفة مما وصلوا اليه من علل . ولكن الباحث يرى أن جانبا من التعليلات صناعى، وبعضها تعوزه خبرة بأصول اللغات، وعلم فنى بصلة اللغة العربية باخواتها من اللغات السامية الأخرى .

وانا لنرجو أن تنشط دراسة اللغات السامية ويتسع البحث العلمى فى لهجات العرب ، فكل هذا عون على تمحيص كثير من الظواهر النحوية واللغوية والآراء التى دونها النحاة .

العامل

نجد فيما دون العلماء من قواعد نحوية بحوثا تثير جدلا عنيفا على غير جدوى ، وتصرف الأذهان عن تذوق التراكيب وتعرف أسرار اللغة على وجه سليم ، ومبعث كل هذا هو هذه الفلسفة التى اصطبغت بها أذهان من تصدوا لتدوين النحو . ومن هذه البحوث موضوع العلل النحوية وموضوع الخلاف فى التأويل الاعرابى، وقد أشرنا إلى ذلك، وهناك موضوع ثالث هو

الذى نريد الإشارة اليه وهو العامل .

وقد نظر العلماء فى اللغة العربية فوجدوا فيها خصائص مشتركة فى الضبط والصوغ تسير على نهج خاص . فنبه ذلك أذهانهم إلى وضع قواعد عامة يلمون فيها بهذه الخصائص . ولقد كان من الهين أن يقنع النحاة بالقول إن الكلمة إذا جاءت على نسق بعينه فى الجملة كانت مرفوعة أو منصوبة مثلا ، وأن يقتصروا على تحليل التراكيب العربية وايضاح مكانة الكلمات منها وما يستتبعه وضعها فى التراكيب من ظواهر نحوية . ولكنهم تعمقوا ووسعوا مجال بحثهم ومزجوا قواعدهم النحوية بعناصر فلسفية واسترسلوا فى البحث عن الأسباب وربطوا بها النتائج واستغلوا فكرة أن كل حدث لا بد له من محدث وكل أثر لا بد له من مؤثر ، فطبقوها على الكلمات وضبطها فى شتى أوضاعها، وبحثوا عن شىء بعينه لينسبوا اليه إحداث هذه الظواهر الاعرابية، وهذا الشىء هو ما أسموه العامل، فاثبتوا له الوجود ووضعوا له أحكاما وقواعد ثم عادوا يحتكمون إلى هذه القواعد التى وضعوها ويتخذونها أساسا للجدل واقامة الحجة وتفضيل رأى على رأى .

وانا نسوق أهم هذه القواعد الخاصة بالعامل :

(الفعل) العمل أصلى فى الأفعال

(الاسم) العمل فرع فى الأسماء : والاسم لا يعمل إلا فى حالتين :

(إحداهما) إذا قربت مشابهته للفعل فيعمل الرفع والنصب، وذلك فى اسم الفاعل واسم المفعول وما شبه بهما من طريق التثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهى الصفة المشبهة .

(الثانية) أنه يعمل كذلك بشبه الحرف ، فيعمل الجر فى حالة الإضافة ويعمل الجزم، وذلك فى الأدوات الجازمة التى تجزم فعلين .

ثم أثبتوا العمل للمصدر ولأفعل التفضيل .

أما المصدر فانه يعمل عمل الفعل لأن الفعل مشتق منه .

وأما أفعل التفضيل فاذا صحبته (من) بعد عن شبه الفعل ،فلذلك لا يعمل فى الاسم الظاهر إلا فى حالة خاصة لها شروطها المدونة .

(الحرف) العمل فرع فى الحروف . والحروف التى تعمل هى الحروف المختصة إما بالأفعال وإما بالأسماء ، وإنما كان الاختصاص موجبا للعمل ليظهر أثره ، ويعمل الحرف فى القبيل الذى اختص به : فان واخواتها تعمل فى الأسماء ، والنواصب والجوازم تعمل فى الأفعال .

ويشترط لجواز عمل الحرف ألا ينزل من الكلمة منزلة الجزء . أما إذا كان كذلك فانه لا يعمل ، كالسين وسوف و «قد» لأنها كالجزء مما يليها. ويستدلون على ذلك بدخول اللام على سوف فى قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فلولا أنها بمنزلة حرف من حروف الفعل ما جاز الفصل بها بين اللام والفعل .

وكان القياس فى (ما) النافية على هذا أن لا تعمل ، لأنها غير مختصة، ولكن لها ناحيتين ، فلها شبه عام بالحروف غير المختصة فى كونها تلى الأسماء والأفعال ، ولها شبه خاص بليس ، فكلتاهما للنفى وداخلة على المبدأ والخبر وتخلص المضارع للحال بعد أن كان صالحا للحال والاستقبال ، فمن راعى الشبه العام لم يعملها وهم بنو تميم ، ومن راعى الشبه الخاص أعملها وهم الحجازيون .

ويقول الشلوبين : إن أصل الحروف ألا تعمل رفعا ولا نصبا ، لأن الرفع والنصب إنما هما من عمل الأفعال من حيث كان كل مرفوع فاعلا أو مشبها به ، وكل منصوب مفعولا أو مشبها به ، فاذا عملهما الحرف فانما يعملهما لشبه الفعل ، ولا يعمل عملا ليس له بحق الشبه إلا الجر .

العامل المعنوى

هناك مواطن لم يهتد النحاة فيها إلى عامل ظاهر ملموس ، فقالوا إن العامل معنوى وهو ماليس له صورة ظاهرة . والعوامل المعنوية هى :

(١) الابتداء : عامل فى المبتدأ . وقيل أنه عامل فى الخبر كذلك .

(٢) عامل الرفع فى المضارع : معنوى على الصحيح ، ثم ذهب النحاة فى تحديد هذا العامل المعنوى مذاهب وهى :

(ا) تجرده من الناصب والجازم .

(ب) تعريته من العوامل اللفظية مطلقا .

(ح) إهمال جزمه أو نصبه .

(د) وقوعه موقع الاسم فقولنا محمد يقوم وقع الفعل فيه موقع قائم فى قولنا محمد قائم .

(ه) نفس المضارعة .

(و) بالسبب الذى أوجب له الإعراب، لأن الرفع نوع من الإعراب، والثلاثة الأولى عدمية والأخيرة ثبوتية .

وقال أبو حيان : ليس لهذا الخلاف فائدة ولا ينشأ عنه حكم نطق .

(٣) الخلاف : ومعناه عدم المماثلة .

جعله بعضهم عاملا للنصب فى الفعل المضارع بعد (أو) التى بمعنى إلى أو الا ، وبعد الفاء والواو فى جواب النفى أو الطلب ، ويريدون بالخلاف مخالفة الثانى للأول من حيث أنه لم يكن شريكا له فى المعنى ولا معطوفا عليه فهو عندهم نظير قولك (لو تركت والأسد لأكلك) ، نصبت لما لم تر عطف الأسد على الضمير ، إذ لا يصح أن يكون التقدير لو تركت وترك الأسد .

(٤) العامل فى الفاعل : ذهب قوم من الكوفيين إلى أن الفاعل مرفوع بإحداثه الفعل ، أو بمعنى الفاعلية ، أو بالاسناد .

(٥) عامل المفعول : ذهب بعضهم إلى أنه معنى المفعولية .

(٦) العامل فى الصفة والتأكيد وعطف البيان : ذهب بعضهم إلى أنه معنوى وهو كونها تابعة لما قبلها .

(قواعد عامة)

وقد وضع النحاة إلى جانب ماتقدم قواعد أخرى ، منها :

(١) عوامل الأسماء لاتعمل فى الأفعال وإلا بطل الاختصاص الموجب للعمل ، ولهذا كان الأصح فى (كى) أنها حرف مشترك فتارة يكون حرف جر بمعنى اللام ، وتارة يكون موصولا حرفيا ينصب المضارع، لاأنها حرف واحد يجر وينصب .

(٢) مرتبة العامل أن يكون مقدما على المعمول .

(٣) قال الكوفيون : لايمتنع أن يكون الشىء عاملا فى شىء وأن يكون الآخر عاملا فيه، وبنوا على ذلك أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ. ورد عليهم ابن الدهان بأن هذا فاسد من وجهين : (أحدهما) أن الخبر إذا كان عاملا فرتبته التقديم ، وإذا كان معمولا فرتبته التأخير ، والشىء الواحد لايكون مقدما مؤخراً . (والثانى) أن الاسم ليس من حقه العمل، وإنما يعمل بشبه الفعل .

(٤) لايجوز اجتماع عاملين على معمول واحد . ولهذا رد قول من قال: إن الابتداء والمبتدأ معا عاملان فى الخبر ، وقول من قال : إن الفعل والفاعل معا عاملان فى المفعول ، وقول من قال : إن (إن) وفعل الشرط معا عاملان فى جواب الشرط .

(٥) الاسم لايعمل فى الفعل ولافى الحرف ، بل هو المعرض للعوامل من الأفعال والحروف .

هذه هى بعض الأصول التى وضعها النحاة فى أحكام العامل. ولما أرادوا الاحتكام إليها واتخاذها أساسا لتعليل الظواهر النحوية تشعبت بهم السبل فى كثير من الأحوال ، فلم يكن العامل عندهم محل اتفاق ، بل كان مجالا لآراء مختلفة ، وحاول كل فريق منهم أن يقيم الحجة على صحة مايذهب إليه ، فمن هذه المواطن :

العامل فى المبتدأ

« فى الخبر

« فى المفعول

« فى المفعول معه

« فى المستثنى بإلا

« فى الصفة

« فى البدل

« فى المضارع المرفوع

« فى جواب الشرط

« فى المشغول عنه

« فى خبر ما الحجازية

« فى الظرف إذا وقع خبرا

« فيما بعد واو رب

« فى المرفوع بعد مذ ومنذ

« العامل فى المضارع المنصوب بعد واو المعية وفاء السببية

« فى المضارع المنصوب بعد لام التعليل

« « المنصوب إذا اجتمعت قبله لام التعليل وكى وأن

« « المنصوب بعد لام الجحود

العامل فى المضارع المنصوب بعد حتى

« فى الاسم المرفوع بعد إن الشرطية نحو وإن أحد من المشركين استجارك .

كل هذه المواطن كانت محل خلاف بينهم، ولنذكر أمثلة مما سرده النحاة فى بعضها من آراء .

(العامل فى المستثنى) (١)

فى ناصب المستثنى أقوال :

(١) ان الناصب له «الا» وصححه ابن مالك وعزاه لسيبويه والمبرد ، واستدل بأنها مختصة بالدخول على الاسم وليست كجزء منه فعملت فيه كما عملت فيه أن ولا النافية .

(٢) ان الناصب له ما قبل الا من فعل ونحوه من غير أن يعدى اليه بواسطة «الا» وينسب هذا لابن خروف لأن (غير) إذا وقعت محل إلا نصبت به بلا واسطة .

(٣) ان الناصب له ماقبل إلا معدى اليه بواسطتها . وعليه السيرافى والفارسى وابن بابشاذ . وحكاه الشلوبين للمحققين قياسا على المفعول معه ، فان ناصبه الفعل بواسطة الواو .

(٤) أنه منصوب بان مقدرة بعد إلا وعليه الكسائى فيما نقله السيرافى ، قال : فى قولنا قام القوم الا زيدا التقدير الا أن زيدا لم يقم .

(٥) انه منصوب بإن المكسورة المخففة وان (الا) مركبة منها ومن (لا) وعليه الفراء ، قال ولهذا رفع من رفع تغليبا لحكم (لا) ومن نصب غلب حكم (إن) :

---

(١) همع الهوامع ح ١ ص ٢٢٤ والانصاف المسألة رقم ٣٤

(٦) منصوب لمخالفة الأول لأن المستثنى موجب له الحكم بعد نفيه عن الأول أو عكسه ، وعليه الكسائى .

(٧) أنه منصوب بفعل مضمر تقديره استثنى ، وعليه المبرد والزجاج .

(العامل فى المضارع المرفوع (١))

(١) ذهب أكثر الكوفيين إلى أنه مرفوع لتجرده من العوامل الناصبة والجازمة . لأنه إذا دخل عليه ناصب نصب وإذا دخل عليه جازم جزم ، وإذا لم يدخله شىء من ذلك كان مرفوعا ، فعلمنا أنه بدخولها لحقه النصب أو الجزم ، وبسقوطها عنه وتجرده منها دخله الرفع .

(٢) وذهب الكسائى إلى أنه يرتفع بأحرف المضارعة فى أوله .

ورد بعضهم على هذا بأن حروف المضارعة أجزاء من الفعل لا تنفصل عنه فاذا قلنا أنها هى العاملة أدى ذلك إلى أن يعمل الشىء فى نفسه ، وبأنه لو كان الأمر على مازعم لكان ينبغى ألا ينصب المضارع أو يجزم لوجود حرف المضارعة ابدا فى أوله .

(٣) وذهب البصريون إلى أنه مرفوع لقيامه مقام الاسم ، وهذا عامل معنوى يشبه الابتداء ، والابتداء يوجب الرفع فكذلك ما أشبهه .

(العامل فى جواب الشرط) (٢)

(١) يقول الكوفيون إن جواب الشرط مجزوم على الجوار ، لأن جواب الشرط مجاور لفعل الشرط لازم له لا يكاد ينفك عنه ، فلما كان منه بهذه المنزلة فى الجوار حمل عليه فى الجزم ، ويقولون إن الحمل على الجوار كثير ويسوقون له شواهد من القرآن الكريم ومن أشعار العرب ، وقد رد البصريون عليهم فى كل هذا .

---

(١) الانصاف المسألة رقم ٧٤

(٢) الانصاف : المسألة رقم ٨٤

(٢) ذهب أكثر البصريين إلى أن العامل فى فعل الشرط وجوابه هو حرف الشرط ، وذلك لأن حرف الشرط يقتضى جواب الشرط كما يقتضى فعل الشرط ، وكما وجب أن يعمل فى فعل الشرط فكذلك يجب أن يعمل فى جواب الشرط .

(٣) وذهب آخرون إلى أن حرف الشرط وفعل الشرط يعملان فى جواب الشرط ، وذلك لأن حرف الشرط وفعل الشرط يقتضيان جواب الشرط فلا ينفك أحدهما عن صاحبه . فلما اقتضياه معا وجب أن يعملا فيه معا . واعترض بعضهم على هذا بأنه رأى ضعيف ، لأن فعل الشرط فعل ، والأصل فى الفعل ألا يعمل فى الفعل ، وإذا لم يكن للفعل تأثير والتأثير هو لأداة الشرط فاضافة ما لا تأثير له إلى ماله تأثير لا يكون ذا فائدة .

(٤) وذهب فريق إلى أن حرف الشرط يعمل فى فعل الشرط ، وفعل الشرط يعمل فى جواب الشرط . لأن حرف الشرط حرف جزم والحروف الجازمة ضعيفة فلا تعمل فى شيئين فوجب أن يكون فعل الشرط هو العامل.

(٥) وذهب المازنى من البصريين إلى أن جواب الشرط مبنى على الوقف (أى السكون)، لأن الفعل المضارع انما اعرب بوقوعه موقع الاسم ، وجواب الشرط لايقع موقع الاسم لأنه ليس من مواضعه ، فوجب أن يكون مبنيا على أصله .

وهذا القول ليس بمعتد به عند البصريين ، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الفعل مبنيا بعد أدوات أخرى مثل أن وكى واذن ولم ولما ، لأن الاسم لايقع بعد هذه الأحرف .

(العامل فى الظرف إذا وقع خبرا للمبتدأ) (١) .

مثل : زيد امامك وعمرو وراءك وما أشبه ذلك .

---

(١) الانصاف . المسألة رقم ٢٩

(١) الكوفيون يقولون : إن الظرف منصوب بالخلاف ، لأن خبر المبتدأ فى المعنى هو المبتدأ ، فاذا قلت محمد فاهم كان فاهم فى المعنى هو محمد ، أما إذا قلت محمد امامك لم تكن كلمة امامك فى المعنى هى محمد ، فلما كان الخبر فى هذه الحالة مخالفا للمبتدأ نصب على الخلاف ليفرقوا بينهما .

(٢) وذهب أبو العباس ثعلب من الكوفيين إلى أنه ينصب لأن الأصل فى قولك (امامك زيد) حل امامك زيد ، فحذف الفعل واكتفى بالظرف فبقى منصوبا على ماكان عليه مع الفعل .

(٣) وذهب البصريون إلى أنه منصوب بفعل مقدر وهو استقر، لأن الأصل فى قولك زيد امامك أن الظرف فيه على معنى (فى) والأصل فى أمامك ، وحروف الجر لابد لها من متعلق .

(٤) وذهب فريق من البصريين إلى أنه منصوب بتقدير اسم فاعل وهو « مستقر » لأن تقدير اسم الفاعل اولى من تقدير الفعل .

هذه أمثلة من اختلافهم فى العامل . فهل ترى لهذا الخلاف قيمة عملية أو فائدة لغوية أو أثرا معنويا فى إيضاح غامض أو التوجيه إلى التعبير السليم ؟ وهل تجد له صلة بتعرف اسرار العربية وتفهم أساليبها ؟ لو كان هناك شىء من هذا لكان مسوغا لما يبذل من جهد فى البحث عن العامل ، ولكن الواقع أن ذلك قليل الجدوى ، وأن الخطب اهون من ان يتطلب كل هذا العناء ، فان الظواهر النحوية واضحة ، وقد جرت بها ألسنة العرب طبقا لما الفوا فى التعبير . ولو اغفلنا البحث عن العامل فى كل ذلك ماترتب على أغفالنا له اجحاف بالقواعد النحوية . بل إن التشبث بتحديد العامل وتعيين نوعه ، فيه من الإرهاق والعنت شىء كثير ، هذا إلى ما يجر إليه ذلك من تعسف فى التقدير وافساد للعبارة العربية واغراق فى الفروض التى لاسند لها إلا ما وضع النحاة من أحكام للعامل .

وقد تعرض ابن مضاء الأندلسى (١) فى كتابه (الرد على النحاة) (٢) لكثير مما أثبته النحاة فى كتبهم من آراء وعلل، واقترح أن « يحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه »، وأوضح رأيه فى ذلك إيضاحا مفصلا مقرونا بالحجة العلمية . فتعرض لنظرية العامل وبسط رأيه فى نقدها ، ودعا إلى الغائها وإلى الغاء كل تأويل وتقدير فى الصيغ والعبارات ، وتعرض كذلك لموضوع التنازع وموضوع الاشتغال، وللعلل الثوانى والثوالث ، ولغير ذلك مما يجب أن يصفى منه علم النحو وتخلص منه مذاهبه وكتبه .

وآراء ابن مضاء فى كتابه ترمى إلى تيسير النحو وتوجيه قواعده وجهة عملية. وان من يقصدون إلى تذليل صعاب النحو ليجدون فى هذه الآراء سنداً قويا للاصلاح ، ومشجعا على التجديد الذى ينشده رجال اللغة العربية فى عصرنا الحديث .

* * *

المؤثرات غير العربية فى وضع علم النحو

لم يكن للعرب فى عصورهم الأولى تدوين أو تأليف أو بحث علمى ، ولم يكن لهم اشتغال بفلسفة أو بمنطق ، بل كانت حياتهم العقلية فطرية ومعارفهم مستمدة مما اتصل بحياتهم وما أوحت به بيئتهم .

ولما جاء الاسلام حفزهم إلى البحث والتفكير ، وذلك لما استدعاه تفهم القرآن الكريم ودراسة الدين وأحكامه من علوم ومعارف ، فكان ذلك هو

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمى (٥١٣ – ٥٩٢ هـ). عاش فى عصر الموحدين وهو من العصور التى ازدهرت فيها الحياة العقلية بالاندلس .

(٢) نشر هذا الكتاب وحققه الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول . وأخرجته دار الفكر العربى . وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

الوثبة الأولى فى الحياة الثقافية للعرب . وكانت بحوثهم وما دونوا من آثار لا تعدو التسجيل السردى ، ولم يكن لها منهج علمى أو نظام منطقى . فكانوا كما قال ابن خلدون : « والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا اليه ، ولا دعتهم اليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين . . . » (١)

ثم وثبوا وثبة ثقافية ثانية، حين درسوا ما للأمم الأخرى من ذخائر فى العلم والفلسفة . وقد اشترك فى هذه المرحلة أو احتمل عبئها الأكبر فريق من الأعاجم وغيرهم من العناصر غير العربية ، ممن نشأ فى كنف الدولة الاسلامية من فرس وسريان يعاقبة ونساطرة . فاشترك كل أولئك مع العرب فى نقل الفلسفة اليونانية ، وكان للسريان شأن فى هذا بما نقلوا من كتب يونانية إلى لغتهم ، ثم أذاعوا ذلك فى اللغة العربية حين تعلموها وأصبحت لغة لهم .

ثم نبتت من الفرس نابتة أولت اللغة العربيـة عنايتها، وشدت العزم فى دراستها من شتى نواحيها . دعاهم إلى ذلك أسباب : منها ما رأوا من تشجيع الخلفاء للعلم وتقريب رجاله ، ومنها أن العلم والأدب كانا من المؤهلات للمناصب الكبيرة فى الدولة الاسلامية ، ومنها أن اللغة العربية ليست لغتهم الأصلية فهم فى حاجة إلى دراسة علومها ليعرفوا أسرارها ، وليصقلوا بذلك ألسنتهم .

ولقد كان لهؤلاء الأعاجم فضل عظيم على اللغة وعلومها ،وكان أكثر حملة العلم منهم ، قال ابن خلدون (٢) :

« من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم العجم فكان صاحب صناعة النحو سيبويه وأبو على الفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم »

---

(١) المقدمة الفصل السادس والثلاثون .

(٢) المقدمة الفصل الثالث والثلاثون

وقد نشطت هذه البحوث النحوية واللغوية فى العراق ، وكانت البصرة والكوفة مسرحا للعلماء ومسترادا للباحثين وللشادين ، وقد التقت فيهما عناصر متعددة من غير العرب . ولا شك أن هذا الامتزاج له أثره الفكرى والعلمى.

وفوق هذا كان بين نحاة البصرة والكوفة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين اشتغلوا بالحكمة الأجنبية ونهجوا فى التفكير منهجا منطقيا فلسفيا . وإلى جانب كل ذلك ما كان قد نشط بين القوم عامة فى تلك الحقبة، من عنايتهم بدراسة الفلسفة وتفهم آراء الفلاسفة وقراءة كتبهم .

* * *

هذا هو الجو العقلى والدراسى الذى نبتت فيه القواعد النحوية ، كما نبت غيرها من فروع الثقافة ، وهؤلاء هم الرجال الذين أعملوا فيها عقولهم : جو مشبع بالتفكير الفلسفى والمنطق ، ورجال لهم ، أو لفريق كبير منهم ، ثقافات أخرى واطلاع على ذخائر علمية لم تكن معهودة للعرب .

والذى ينتظر بعد كل هذا أن يتجه التفكير فى علم النحو والتأليف فيه اتجاها أساسه الأسباب والنتائج ، والعلل ومعلولاتها ، والتقسيم والتبويب والشروط والقيود ، وغير ذلك مما صبغت به أساليب التفكير والبحث .

فهل لنا أن نقول إن فى بحوث النحو ومؤلفاته مظاهر أو عوامل غير عربية ؟

لننظر قبل ذلك فى نظام القواعد النحوية فى بعض اللغات التى كان للمشتغلين بالنحو العربى صلة بها أو بمن يعرفونها ، لنرى ما هنالك من تشابه بين قواعدها وقواعد اللغة العربية .

(ا) « فى اللغة السريانية [1] » :

---

(١) هى إحدى اللغات السامية الشمالية وفرع من اللغة الارامية . وهى لغة السريانيين القدماء الذين كانوا يسكنون الشام والجزيرة والعراق وآشور .

نجد فى قواعدها الموضوعات الآتية :

(١) الضمائر المنفصلة للمذكر والمؤنث والمخاطب والغائب والمفرد والجمع

(٢) أسماء الاشارة .

(٣) تقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث ثم إلى مفرد وجمع [١].

(٤) صيغتا المذكر والمؤنث فى الأعداد من ١ — ١٩ وهى فى الأعداد من ١ — ١٠ بعكس المعدود ، تذكر مع المؤنث وتؤنث مع المذكر .

(٥) الفعل المجرد والمزيد . والمجرد إما ثلاثى وإما رباعى .

(٦) أصول الكلمات ثلاثة ، وهى : الفاء والعين واللام وما عداها زوائد

(٧) الأفعال المهموزة والمعتلة بالواو أو بالياء أو بالألف .

(٨) الفعل المضعف .

(ب) « وفى اللغة العبرية » :

نجد الظواهر الآتية :

(١) تحرك الحروف بحركات كما فى العربية . فتحرك بالفتحة والكسرة والضمة .

(٢) الكلمة أنواع ثلاثة اسم وفعل وحرف .

(٣) من أقسام الاسم : اسم الذات واسم المعنى .

والعلم منه اسم الذات ، واسم منكر ، واسم جمع . واسم جنس .

(٤) ينقسم الاسم إلى مفرد ومثنى وجمع ، والجمع نوعان مذكر ومؤنث

(٥) النعت يتبع منعوته فى تعريفه وتنكيره وفى إفراده وجمعه (٢)، وفى تذكيره وتأنيثه .

---

(١) ليس المثنى وجود فى السريانية الحديثة .

(٢) لافرق بين المثنى والجمع فى الصفة وفى الفعل وفى الضمير .

(٦) الضمير البارز والمستتر .

(٧) الضمائر المنفصلة منها ما يختص بالرفع ومنها ما يختص بالنصب .

(٨) ينقسم الفعل إلى ماض وحال ومستقبل وأمر . وإلى لازم ومتعد إلى مفعول أو إلى اثنين .

(٩) الفعل المعتل منه المثال والأجوف والناقص والمضعف .

(١٠) صوغ الأمر من المستقبل بتجريده من حرف المضارعة .

(حـ) « وفى اللغة الفارسية » :

اللغة الفارسية لغة آرية ، فليس بينها وبين اللغة العربية السامية تشابه فى الخصائص ولا فى القواعد النحوية :

(ا) فالجملة الفعلية فى الفارسية يذكر فيها الفاعل ثم المفعول ثم الفعل .

(ب) وليس فى الفارسية علامة للتذكير والتأنيث ، ولا أداة للتعريف كالألف واللام ولا وجود فيها للمثنى ، ولا لحركات الاعراب .

(حـ) حالة الفاعلية فى الفارسية تقابل حالة الفاعل وكذلك حالة المبتدأ فى العربية ،والاسم فى هذه الحالة يكون مسندا إليه .

(د) المصدر فى اللغة الفارسية هو أصل الأفعال بجميع صيغها وهو كذلك أصل جميع المشتقات (١) .

وهنالك فروق شتى بين أصول اللغتين ولا ننتظر أن يكون للفارسية أثر فى قواعد اللغة العربية .

على أنه يظن أن فكرة المسند إليه والمسند فى اللغة العربية أصلها فارسى . ورأى بعضهم أن الخلاف النحوى فى اللغة العربية فى أن أصل المشتقات هو المصدر أو هو الفعل قد يكون منشؤه اللغة الفارسية وتأثر النحاة الفرس بها .

---

(١) راجع كتاب القواعد الاساسية لدراسة اللغة الفارسية للاستاذ ابراهيم أمين الشواربى

ويبدو من هذه العناصر النحوية التى سردناها أن هناك تشابها فى كثير من النواحى فى الخصائص اللغوية والنحوية بين اللغة العربية واللغات التى عاصرتها واختلط أهلها بالعرب من لغات سامية وغيرها . فهل معنى هذا أن واضعى علم النحو والباحثين فيه قد حاكوا مافى اللغات الأخرى من اصطلاحات وتقسيم ؟

قد يتلمس من يميلون إلى هذا الظن أسبابا لتعزيز وجهة نظرهم من أن الذين قاموا بهذه الحركة النحوية كانت جمهرتهم عن عناصر غير عربية وممن لهم اطلاع على لغات أخرى شرقية ، أو اتصال بمن يعرفون هذه اللغات ويلمون بقواعدها .

ولكن البحث التاريخى لمعظم اللغات التى اتصل أهلها بالعرب لايساعد على اثبات هذه الظنون ، بل إنه يدل فى بعض النواحى على العكس وهو أن بعض هذه اللغات قد استرشد نحاتها بالقواعد النحوية للغه العربية .

وقد أورد صاحب كتاب (اللمعة الشهية فى نحو اللغة السريانية) (١) مايأتى (٢) :

« فى القرون الخمسة الأولى من العصر السعيد للغة السريانية » لم يكن، على مانعهد، عند السريان كتب نحوية أو لغوية لضبط قواعد الكلام « فكان الطلاب يتعلمون اللغة ويحكمونها بالنقل والتقليد والمطالعة الكثيرة » ولم يظهر كتاب ضبط قواعد اللغة السريانية على ما اتصل بنا إلى بعد زمان المسيح بقرون، وذلك عند الشرقيين (٣) أولا . وأقدم من يذكر ممن ألف شيئا من ذلك كان يوسف الاهوازى الذى اشتهر بالتدريس فى مدرسة

(١) طبع هذا الكتاب بالموصل سنة ١٨٩٦ ومؤلفه هو السيد أقليميس يوسف داود مطران دمشق على السريان

(٢) ج ١ ص ٢٠٣ ومابعدها

(٣) السريان منهم الشرقيون ، وهم النسطوريون ولغتهم لغة مدينة نصيبين ، ومنهم الغربيون ، وهم اليعقوبيون ولغتهم لغة مدينة الرها . وقد اشتهرت مدرسة الرها ومدرسة نصيبين فى الدرس وإذاعة الثقافة ، وكلتا المدينتين من مدن الجزيرة بين نهرى دجلة والفرات

(نصيبين) المشهورة وتوفى سنة ٥٨٠ للميلاد. وأول من اشتهر من النحويين الغربيين كان يعقوب الرهاوى أسقف الرها ، الذى اشتهر بفنون كثيرة ، ولا سيما أدب اللغة السريانية ، وتوفى سنة ٧٠٨ م .

« واشتغل بعد هذين كثير من الشرقين والغربيين بفن نحو اللغة السريانية فى القرن التاسع وما بعده ، ومنهم (يوحنا بن زعبى) فى القرن الثالث عشر ، فقد فاق جميع الذين سبقوه . فانه وسع قواعد النحو وفصلها تفصيلا مستوعبا إذا كانت جميع الكتب النحوية التى كتبت إلى زمانه مشتملة على أبواب قليلة من أبواب هذا الفن .

« واشتهر فى القرن الثالث عشر أيضا بين الغربيين (يعقوب البرطلى) المعروف بساويرس . وله رسائل مختصرة فى بعض أبواب النحو السريانى. ولكن الذى حاز قصب السبق فى هذا الفن على جميع النحاة السريانيين الذين ظهروا قبله وبعده هو (غريغوريوس بن العبرى) المعروف بأبى الفرج الذى اشتهر فى القرن الثالث عشر ، وله مصنفات شتى فى نحو اللغة السريانية » .

« إلا أن ابن العبرى مع كل فضله يعاب من وجه بأنه فى أبواب شتى من قواعد السريانية لم يدرك الأساس المبنية هى عليه ، ولم يتوصل إلى وضع أصول ضابطة لها ، وأنه مع غزارة علمه الفائقة كل وصف ، لم يكن له خبرة كافية بأحوال اللسان السريانى القديم قبل أن حصل على الهيئة التى رآه عليها » .

« ومما يقضى بالعجب أن النحاة السريانيين لم يظهر فيهم أحد نظر إلى قواعد اللغة السريانية وبحث عنها كما تقتضى طبيعة هذه اللغة ، إذ أنهم غالبا اقتدوا بنحو اللغة اليونانية التى منهاجها يختلف اختلافا عظيما عن منهاج اللغة السريانية ، فلا ترى أحدا منهم بحث عن أصول الأسماء والأفعال ، ولا عن الفرق بين الأفعال الثلاثية أو الرباعية وبين المزيد فيها ، ولا أحدا نظر إلى أحوال اللغة السريانية بالمقابلة إلى اللغات السامية أخواتها ، ولا سيما اللغة العربية » .

« وفى ذلك فاق النحاة اليهود على السريانيين ، فاهم بنوا كل قواعد نحو اللغة العبرية على القواعد التى وضعها النحاة العرب والتى تناسب اللغات السامية مناسبة تامة ، وفى ذلك فضل عظيم للنحاة العرب ، وقابلوا أكثر قواعد اللغةالعبرية بقواعداللغةالعربية . وهكذا وقفوا على حقيقتهاوعاملوها حق المعاملة ، نعم إن ابن العبرى اقتدى فى لغته النحوية بنحاة العرب ، لـكن فى أبواب من النحو فقط ، كالمبتدأ والخبر والتوكيد والبدل والعطف ، وهى أبواب يمكن الاستغناء عنها ، وكان حقه أن يقتدى بنحاة العرب فى أبواب التصريف الذى منه يعرف كنه بناء الكلمات السريانية على قواعده الحقيقية ، وهو أهم ماتشتمل عليه هذه الصناعة » .

* * *

وأما اللغة اليونانية ففى أصولها النحوية قليل مما فى اللغة العربية . فمذهب ارستطاليس فى المنطق تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ويقول كذلك: إن الزمان والمكان هما كالوعاء للأشياء إذ لابد لكل شيء مخلوق أن يكون واقعا فى زمان من الأزمنة وفى مكان من الأمكنة ، ويقول السنيور جويدى(١): إن هذا هو أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفا أى وعاء.

على أن هذا لايدل على أن نحاة العرب قد أخذوا شيئا عن قواعد اللغة اليونانية وذلك لاختلاف منهج هذه اللغة عن اللغات السامية،ولأن ماوصل إليه العرب من علوم اليونان وثقافتهم إنما كان فى أول الأمر عن طريق السريان ومانقلوا من كتب إلى اللغة العربية . والسريان فى المراحل الأولى لوضع قواعد لغتهم لم يسيروا طبقا لما تقتضى طبيعتها إذ أنهم جاروا قواعد اللغة اليونانية . وإن الذى انتشرت مؤلفاته فى قواعد اللغة السريانية فى القرن الثالث عشر هو ابن العبرى.وقد رأينا فى العبارة السابقة التى اقتبسناها

(١) راجع محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب .

من كتاب اللمعة الشهية أنه اقتدى فى لغته النحوية بنحاة العرب فى أبواب من النحو .

من كل هذا يبدو أن علم النحو فى اللغة العربية سار طبقا لطبيعة هذه اللغة ولجهود علمائها ، وماهداهم إليه النظر فى أساليبها وخصائصها .

على أنه لايضير اللغة العربية أن يثبت الباحثون أو أن ينفوا أن قواعدها قد دونت على نهج من وحى لغات أخرى تمت إليها بصلة من النسب فى الأصول والخصائص ، فان الاهتداء إلى هذه الخصائص ليس بالأمر العسير لمن يريد أن يضع قواعد اللغة العربية وضعا صناعيا أو علميا له أصوله وفروعه ، ويكفى فيه أن يتتبع الباحث ألفاظها وتراكيبها ويجيل فيها فكره ، وهو حينئذ واجد أن هذه الخصائص تسترعى النظر وتستوقف الملاحظة ، فانها ظواهر محسوسة التزمها العرب فى أكثر الأحوال . والذى يتطلبه البحث بعد ذلك إنما هو الترتيب والتقسيم والتبويب ووضع الاصطلاحات والتعريف العلمى بالحقائق ، وقد اتجه الباحثون إلى ذلك فيما اتجهوا إليه من بحوث فى الثقافة العربية واستمروا فى التمحيص والمزاولة سنوات متعاقبة انتهت بهذا التفصيل المستفيض فى القواعد النحوية .

كل هذا قد يبدو بحثا عربيا يستطيع الفكر أن يهتدى إليه دون حاجة إلى القول بأنه ناشىء عن فلسفة أجنبية . وإن كنا لا ننكر أنه نشأ عن ميل إلى التبويب والتقسيم مما ألفته عقول هؤلاء الدخلاء فى العروبة ، أو أولئك الذين لهم إلمام بثقافات أخرى لها طابعها ونظامها . ولا نستبعد كذلك أن يكون لوحى الثقافات الأجنبية أثر فى هذا .

ولكن الذى يستوقف النظر ويدعو إلى البحث فى أسبابه ، هو هذه الناحية الجدلية المتصلة بالأسباب ونتائجها والعلل ومعلولاتها ، وهى الناحية التى يبدو فيها الاتجاه إلى النهج الفلسفى فى التفكير الذى غمر القواعد النحوية وتحكم فى أوضاعها ، حتى أصبح من شعائر كثير من المؤلفين ألا يتركوا عللا تتلمس أو أسبابا تنتحل الا أحصوها وأغرقوا فى الاحصاء .

وكأنهم أرادوا بهذا أن يوفوا علم النحو حقه الكامل من جهة التأليف والتبويب والتنسيق ، وأن يتحروا الدقة فى الأداء العلمى، وفى إقامة الأساليب العربية على دعائم من المنطق ، فسردوا التعاريف وساقوا الأسباب والعلل.

وقد أوردنا فيما سبق طائفة من التعليلات النحوية ،وأشرنا إلى اختلاف النحاة فى (العامل) ، ولعلك واجد فى كل ذلك ، وفيما سلك النحاة من نهج فى التقسيم وتنظيم الموضوعات المختلفة ، مظاهر من أصول المنطق ، وألوانا من المسلك الفلسفى فى البحث والتفكير ، واتجاها إلى إخضاع التراكيب والأساليب والخصائص العربية التى نطق بها العرب على سجيتهم ، إلى نوع من النظام العلمى والتعليل الفلسفى .

* * *

لعلنا بعد هذا نستطيع أن نقول : إن علم النحو فى أصوله وأقسامه وأبوابه وخصائصه ، قد نبع من اللغة العربية نفسها ومن طبيعتها ومقوماتها . وإن هذه النواحى الفلسفية فى العلل والتعاريف والعوامل، قد اتجه النحاة إلى التفكير فيها طوعا للمؤثرات العامة التى أثرت فى العقلية العربية ، ووجهت الثقافة العربية ونظام البحث فيها توجيها علميا فلسفيا . أى أن علم النحو علم عربى أخرجته عقول لها من النظام العلمى والمنطقى والفلسفى نصيب .

المؤلفات النحوية

القواعد النحوية نتيجة لجهود متماسكة متلاحقة بذلتها طبقات النحاة التي بدأت بأبي الأسود الدؤلي « المتوفى سنة ٦٩ هـ » ، وكان آخرها طبقة المبرد البصري « سنة ٢٨٥ هـ » وأبي العباس ثعلب الكوفي « سنة ٢٦١ هـ » وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري، وكانت جهود هذه الطبقات متدرجة يكمل بعضها بعضا، فمن علمائها من علل النحو، ومنهم من وضع أسس القياس فيه ، ومنهم من بدأ المراحل الأولى من التأليف ، ومنهم من تولى الشرح والتكميل والتهذيب ، حتى وصل علم النحو إلى صورته الكاملة في نحو قرنين ونصف قرن من الزمان .

وقد بدأ التأليف في الطبقة الثانية البصرية ، واستمر يتدرج في أشكال متعددة وبأساليب مختلفة ، ولو كانت جميع هذه المؤلفات في شتى أوضاعها بين أيدينا الآن لاستطعنا أن نعرف تدرج التأليف النحوي على وجه دقيق، ولكن كثيراً منها قد ضاع ، بما توالى من أحداث الزمن ، وكان الضياع نصيب أول المؤلفات في هذا العلم ، وهو ما وضعه عيسى بن عمر . فإنهم يروون أنه وضع كتابين ، وهما الإكمال والجامع ، وفيهما يقول بعضهم :

بطل النحو جميعا كله   غير ما ألف عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع   وهما للناس شمس وقمر

وأول كتاب شامل في النحو هو كتاب سيبويه ، ويجيء بعده كتاب المفصل للزمخشري، وبين عصري هذين المؤلفين أكثر من ثلاثة قرون ظهرت فيها بعض الكتب النحوية . ومنها كتب مستقلة في بعض مباحث النحو ، مثل : رسالة للكسائي في لحن العامة ، والمذكر والمؤنث للفراء . والمقصور والممدود لابن ولاد، وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه « سنة ٣٧٠ »

وملحة الاعراب للحريرى « سنة ٥١٦ واصلاح المنطق لابن السكيت وسر النحو لأبى العباس ثعلب .

ومنها كتب جاءت البحوث النحوية والصرفية فى ثناياها أو فى بعض فصولها ، مثل كتاب الكامل للمبرد ، وكتاب المقتضب له أيضا ، والأمالى للزجاجى « سنه ٢٩ ؟ » والخصائص لابن جنى وسر الصناعة له أيضا ، وكتاب الأصول لابن السراج « سنة ٢٦١ » . وكتاب الايضاح لأبى على الفارسى وكتاب التكملة له أيضا ، وغير ذلك ، وبعض هذه الكتب لا يزال مخطوطا

ويجىء بعد كتاب الزمخشرى كتب ابن الحاجب وهى : الكافية فى علم النحو والشافية فى علم الصرف . ثم تجىء الألفيات وهى : ألفيه ابن معطى ، ثم ألفية ابن مالك ، وهى محور للدرس والتحصيل فى وقتنا الحاضر . ثم تجىء كتب أخرى تجمع شمل القواعد النحوية فى أساليب مختلفة مثل كتب ابن هشام وكتب السيوطى .

وفى المشهور مما فى أيدينا من هذه المؤلفات صورة لتدرج التأليف فى علم النحو ، وسنورد عرضا مجملا لما تضمنته هذه الكتب لنتبين من ذلك اتجاهها ومادتها وطريقتها .

كتاب سيبويه

سيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر . وقد ذاعت شهرته فى عالم النحو ، وكان كتابه دعامة هذا العلم ، وظل حقبة من الزمن مرجع النحاة وقبلة الدارسين ، ومحورا للبحث والشرح ، وكانت دراسته دليل البراعة وميزان التحصيل . وقد أصبحت كلمة (الكتاب) علما عليه ، فكان يقال فى البصرة قرأ فلان الكتاب فلا يشك فى أنه كتاب سيبويه ، وكانت له مكانة فى عصره وفى العصور التى تلته .

قال الجاحظ (١) : أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، ففكرت فى شىء أهديه له ، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه فلما وصلت اليه قلت له : لم أجد شيئا أهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفراء . فقال : والله ما أهديت لى شيئا أحب إلى منه . ويقال إن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه ، أعلمه به قبل إحضاره ، فقال له ابن الزيات : أو ظننت أن خزائننا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ، ومقابلة الكسائى ، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ يعنى نفسه . فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجد وأعزها ، فأحضرها اليه فسر بها ووقعت منه أجمل وقع .

وقد اهتم النحاة بهذا الكتاب وعنى كثير منهم بشرحه وبالتعليق عليه ، فشرحه أبو سعيد السيرافى (توفى سنة ٣٦٨) شرحا أعجب به المعاصرون له ، حتى حسده أبو على الفارسى لظهور مزاياه على تعليقته التى علقها عليه(٢) وشرحه أيضا على بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر (توفى سنة ٣١٥) وكذلك أبو الحسن على بن سليمان الرمانى (توفى سنة ٣٨٤) ، وأبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب ، وأبو القاسم محمود ابن عمر الزمخشرى وغير هؤلاء .

وشرح شواهده أبو العباس محمد بن يزيد المبرد وكذلك الأعلم يوسف ابن سليمان بن عيسى الشنتمرى (سنة ٤٧٦) وعبد الله بن الحسين أبو البقاء العكبرى (سنه ٦١٦) وغير هؤلاء .

وقد تضمن كتاب سيبويه أبوابا متعددة عالجت جميع المسائل النحوية .

ففى الجزء الأول تعرض للموضوعات الآتية على الترتيب :

الكلم وأقسامه ـ اللازم والمتعدى ـ ما ينصب مفعولين أو أكثر ـ ضمير

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٨٧ .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٨٢

الشأن ـ التنازع فى العمل ـ الاشتغال ـ الالغاء ـ البدل ـ عمل اسم الفاعل ـ عمل المصدر ـ الصفة المشبهة ـ المصدر ـ أسماء الأفعال ـ حذف العامل ـ التحذير ـ المفعول معه ـ المفعول المطلق ـ المفعول لأجله ـ الحال ـ الظرف ـ الجر ـ التوابع ـ النعت السببى ـ علم الجنس ـ المبتدا ـ إن واخواتها ـ كم ـ النداء ـ الندبة ـ الاختصاص ـ الترخيم ـ «لا» التى لنفى الجنس ـ الاستثناء ـ الضمير ـ أى ـ المضارع ـ النواصب والجوازم ـ إن وأن «المشددتين» ـ أن وإن «المخففتين» أم ـ أو .

وفى الجزء الثانى عالج الموضوعات الآتية :

ما ينصرف وما لا ينصرف ـ الأضافة وهو باب النسبة ـ التثنية ـ الجمع ـ الاضافة لياء المتكلم ـ التصغير ـ حروف القسم ـ حذف تنوين العلم إذا وصف بابن النون الثقيلة والخفيفة ـ الفعل المضعف ـ المقصور والممدود ـ العدد ـ بناء الأفعال (صيغها) ـ الامالة ـ همزة الوصل ـ التقاء الساكنين ـ الوقف ـ حروف الزوائد ـ الاعلال والابدال ـ الادغام .

***

والكتاب خال من المقدمة ومن الخاتمة ، وليس فيه تقسيم أو ترتيب كالذى نجده فى كتب النحو التى جاءت بعده . وليس فيه فى أكثر الأحوال تلك الاصطلاحات النحوية التى نعرفها .

وإليك أمثلة من عناوين أبوابه توضح بعض ما نشير إليه :

١ ـ الفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعوله ، أى الفعل اللازم .

٢ ـ المفعول الذى لم يتعده فعله ولم يتعد اليه فعل فاعل ، أى المبنى للمجهول .

٣ ـ الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين . فان شئت اقتصرت على

المفعول الأول . وإن شئت تعدى إلى الثانى كما تعدى إلى الأول ، أى المفعولين اللذين ليس أصلهما المبتدأ والخبر .

٤ — الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين . وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر . أى أصلهما المبتدأ والخبر .

٥ — الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل الى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد ، وذلك مثل كان ويكون وصار وما دام وليس وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغنى عن الخبر ، أى النواسخ .

٦ — باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذى يفعل به ، وما كان نحو ذلك . مثل : ضربت وضربنى زيد . وضربت وضربنى زيدا . أى باب التنازع فى العمل .

٧ باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول . ويجرى على الاسم كما يجرى أجمعون على الاسم وينصب بالفعل لأنه مفعول . مثل ضرب عبد الله بطنه وظهره . وضرب زيد الظهر والبطن « بالرفع » . ومطرنا سهلنا وجبلنا « بالرفع » وإن شئت كان على الاسم بمنزلة أجمعين توكيداً ، وإن شئت نصبت ، أى باب البدل .

٨ — باب من الفعل سمى الفعل فيه بأسماء لم تؤخذ من أمثلة الفعل الحادث مثل رويد زيدا ، وحيهل الثريد . أى أسماء الأفعال .

٩ — ما ينصب من المصادر لأنه عذر ، مثل فعلت ذاك حذار الشر ، أى المفعول له .

١٠ — ما جرى من الصفات غير العمل على الاسم الأول إذا كان لشىء من سببه ، مثل مررت برجل حسن أبوه ، أى النعت السببى .

هذه أمثلة من موضوعاته واصطلاحاته .

أما الطريقة التي يتبعها فى عرض هذه الموضوعات ، فانها مقرونة بالأمثلة

الإيضاحية التى يبدأ بها فى كثير من الأحوال ، ويسوق فى خلال الشرح طائفة منها ، ويقرن ذلك بالشواهد ، وفى الكتاب أكثر من الف شاهد من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وقد أصبح كثير من شواهده وأمثلته شائعا بين النحاة فساقوه فى كتبهم ، وأخذه اللاحق منهم عن السابق .

والكتاب مجهود علمى يدل على دقة سيبويه فى الالمام بالقواعد النحوية ، وهو صورة لجهوده وجهود الطبقات التى سبقته ، وقد قام بجمعها وتنظيمها على الأسلوب الذى ارتآه .

ولسنا نرى محلا للتغالى فى الشك فى أن سيبويه هو الذى صنفه ، ما دمنا نتقبل التأليف على هذه الأوضاع والصور ، وهى أن يدون المؤلف ما تلقاه عن أساتذته ، وما وصل اليه أئمة عصره ومن سبقوهم ، ويجمع متفرق الآراء ومختلف الشواهد ، ويخرج من كل ذلك كتابا يكون له فيه على الأقل فضل التنظيم وحسن العرض والالمام بما عرف من المباحث بين الدارسين .

وكتاب سيبويه صورة من هذا ، تتمثل فيه الاوضاع والبحوث منذ نشأتها إلى عصره ، فان سلسلة التلقى منذ البدء إلى سيبويه تسير كما يأتى :

كان أبو الأسود زعيم الطبقة الأولى من النحاة ، ومن أشهر من أخذوا عنه يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم :

«١» وعن يحيى بن يعمر أخذ عبد الله الحضرمى ، وعن الحضرمى أخذ عيسى بن عمر الثقفى ، وعن عيسى أخذ الخليل بن احمد ، وعن الخليل أخذ سيبويه ، وقد أخذ سيبويه أيضا عن عيسى بن عمر .

«٢» وعن نصر بن عاصم أخذ أبو عمرو بن العلاء ، وكذلك عن عبدالله الحضرمى ، وعن أبى عمرو أخذ يونس بن حبيب وكذلك عيسى بن عمر ، وعن يونس أخذ سيبويه .

وكان كل من هؤلاء العلماء يأخذ عن أستاذه ثم يأخذ تلاميذه عنه ، وكانت الحقائق العلمية تنال منهم عناية وتمحيصا ويرويها بعضهم عن بعض ،

ولم يكن لتدوينها على هيئة كتاب نصيب كبير ، إلا ما قيل عن عيسى بن عمر من أنه ألف كتابين وهما الاكمال والجامع ، وقد أشرنا إلى ذلك . ويقولون أن سيبويه قد أخذ ما فيهما وأضاف إليه ما تلقاه عن أستاذه الخليل واستعان بكل ذلك على تدوين كتابه . ولو كانت أراء النحاة قبل سيبويه قد وصلت الينا جميعها مدونة لاستطعنا أن نتبين حقيقة ذلك ، وأن نعرف ما ينسب منها إلى سيبويه وحده وما كان لغيره ممن سبقوه ومن أخذ عنهم.

ومهما يكن من شيء فان ما تضمنه كتاب سيبويه إنما هو خلاصه وافية ألمت بجميع مسائل النحو ، وقد وضعت بطريقة يتجلى فيها الأسلوب العلمى لعرض المسائل فى تلك العصور ، وتدل على فضل سيبويه وعلى عنايته هو ومن سبقوه بالبحث وتتبع الخصائص التى اشتملت عليها لغة العرب .

* * *

(كتاب المفصل للزمخشرى)

الزمخشرى علم من أعلام الثقافة العربية ، وله آثار جليلة فى شتى نواحيها: فى التفسير والحديث والأدب والنحو . وكتاب « المفصل » له شأن فى علم النحو ، وقد نال عناية بالدرس والشرح ، فقد شرحه ابن الحاجب وسماه الايضاح ، وشرحه العكبرى وابن مالك وابن يعيش وكثيرون غيرهم ، وهذا الشرح الأخير لابن يعيش ذائع متداول ومرجع للدارسين .

وقد جاء فى مقدمة الكتاب ما يأتى :

« لقد ندبنى ما بالمسلمين من الارب ، إلى معرفة كلام العرب . وما بى من الشفقة والحدب ، على أشياعى من حفدة الأدب ، لإنشاء كتاب فى الإعراب ، محيط بكافة الأبواب . مرتب ترتيبا يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعى ، ويملأ سجالهم بأهون السقى . فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل فى صنعة الاعراب ، مقسوما أربعة أقسام : القسم الأول فى الأسماء، القسم الثانى فى الافعال ، القسم الثالث فى الحروف ، القسم الرابع فى المشترك

من أحوالها ، وصنفت كلا من هـذه الاقسام تصنيفا ، وفصلت كل صنف منها تفصيلا حتى رجع كل شيء إلى نصابه واستقر في مركزه »

وقد حقق الزمخشري ما قال ، فالـكتاب مرتب ترتيبا تأليفيا يجمع بين المتجانس من الموضوعات ، وهو يمثل مرحلة من مراحل التدرج في إخراج علم النحو ، وقد ألم بما في كتاب سيبويه في نظام على أوضح ، وبأسلوب أقرب إلى ما نعرف الآن من تقسيم وتعبير واصطلاحات في هذا العلم ، وقد سار في موضوعاته وأقسامه الأربعة التي أشار إليها مؤلفه على التفصيل الآتي :

١ — (القسم الأول) قسم الأسماء ، ويتضمن ما يأتي :

معنى الـكلمة والـكلام ـ أصناف الاسم ـ اسم الجنس ـ العلم ـ الاسم والكنية واللقب ـ المفرد والمركب ـ المنقول والمرتجل ـ الاسم المعرب ـ ما يستوفى منه حركات الاعراب والتنوين وما يمنع من الصرف والجر ـ وجوه إعراب الاسم :

المرفوعات : الفاعل ـ المبتدأ والخبر ـ خبر إن واخواتها ـ خبر «لا» التي لنفي الجنس .

المنصوبات : المفعول المطلق ـ المفعول به ـ المنصوب باللازم اضماره، ومنه المنادى وما يقصد به الاختصاص ، والمنصوب على التحذير ، وما أضمر عامله على شريطة التفسير (الاشتغال) ـ الترخيم ـ التحذير ـ المفعول فيه ـ المفعول معه ـ المفعول له ـ الحال ـ التمييز ـ الاستثناء .

المجرورات : الاضافة ـ التوابع : التأكيد ، الصفة ، البدل ، عطف البيان ـ ومن أصناف الاسم المبني : (المضمرات ـ أسماء الإشارة ـ الموصولات ـ أسماء الأفعال والأصوات ـ الظروف ـ المركبات ـ الكنايات) .

المثنى ـ المجموع بأنواعه ـ النكرة والمعرفة ـ المذكر والمؤنث ـ المصغر ـ المنسوب ـ العدد ـ المقصور والممدود ـ الأسماء المتصلة بالافعال (أي المشتقات) وهي ثمانية : المصدر ، اسم الفاعل ، اسم المفعول ، الصفة المشبهة

اسم التفضيل ، أسماء الزمان والمكان ، اسم الآلة ـ المجرد والمزيد من الأسماء

٢ ـ (القسم الثانى) قسم الافعال . ويتضمن ما يأتى :

أقسام الفعل ـ وجوه إعراب المضارع ، المرفوع ، المنصوب ومواضع نصبه ، المجزوم ومواضع الجزم ـ المتعدى وغير المتعدى ـ المبنى للمفعول ـ أفعال القلوب ـ الافعال الناقصة ـ أفعال المقاربة ـ فعلا المدح والذم ـ فعلا التعجب ـ المجرد والمزيد من الافعال .

٣ ـ (القسم الثالث) قسم الحروف ، ويتضمن ما يأتى :

حروف الاضافة (حروف الجر) ـ الحروف المشبهة بالفعل (إن وأخواتها) ـ حروف العطف ـ حروف النفى ـ حروف الاستثناء ـ حرفا الخطاب (الكاف والتاء) ـ حروف الصلة (أى الزائدة) ـ حرفا التفسير (أى وأن) ـ الحرفان المصدريان (ما ، أن) ـ حروف التحضيض ـ حرف التقريب (قد) ـ حروف الاستقبال ـ حرفا الاستفهام (الهمزة وهل) ـ حرفا الشرط (إن ، لو) ـ اقتران الجواب بالفاء ـ حرف التعليل (كى) ـ حرف الردع (كلا) ـ اللامات ، وهى سبعة أنواع : لام التعريف ، ولام جواب القسم ، واللام الموطئة ، ولام جواب لو ولولا . ولام الأمر ، ولام الابتداء ، واللام الفارقة بين إن المخففة والنافية ـ تاء التأنيث الساكنة ـ التنوين وهو خمسة أضرب ـ النون المؤكدة ـ هاء السكت ـ شين الوقف ـ حرف الانكار .

٤ ـ (القسم الرابع) وهو القسم المشترك ، ويتضمن ما يأتى :

الامالة ـ الوقف ـ القسم ـ تخفيف الهمزة ـ التقاء الساكنين ـ حكم أوائل الكلمة « همزة الوصل » ـ زيادة الحروف « أحرف الزيادة » ـ ابدال الحروف ـ الاعتلال ـ الادغام .

* * *

هذه هي مباحث الكتاب . وترى فيها ، كما قلنا ، نظاما وجمعا للمتجانس

من الموضوعات ، مما لم يكن فى كتاب سيبويه . وترى كذلك أغلب المصطلحات النحوية المستعملة الآن فى الكتب التى بين أيدينا .

والكتاب فوق هذا سهل واضح فى عبارته وأسلوبه العلمى . وليس فى الكتب التى بينه وبين كتاب سيبويه ، مما وصل الينا ، كتاب عالج المباحث النحوية علاجا كاملا شاملا ، فانما هى مؤلفات فى موضوعات نحوية خاصة ، أو فى مباحث صرفية هى أقرب إلى الصبغة اللغوية ، أو بحوث نحويه تجىء فى ثنايا الموضوعات الأدبية ، وفى خلال شرح القصائد أو المقطوعات أو غيرها .

فكتاب « المفصل » يعتبر مرحلة تامة النمو ، وحلقة كاملة الوضع فى سلسلة البحوث النحوية .

(كتب ابن الحاجب) سنة ٥٧٠ أو ٥٧١ — سنة ٦٤٦

جاء ابن الحاجب بعد الزمخشرى بأكثر من مائة وثلاثين عاما . وله فى النحو والصرف كتابان وهما : «الكافية» فى النحو ، و«الشافية» فى الصرف وهما ذائعان بين كتب هذين العلمين . وقد عنى بشرحهما كثير من العلماء .

فمن أهم شروح الكافية شرح الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى (١) « توفى سنة ٦٨٦ » قال السيوطى : « لم يؤلف عليها بل ولا فى غالب كتب النحو مثله جمعا وتحقيقا وحسن تعليل ، وقد أكب الناس عليه وتداولوه ، واعتمده شيوخ هذا العصر ومن قبلهم فى مصنفاتهم ودروسهم ، وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة ، واختيارات جمة ، ومذاهب ينفرد بها » (٢)

ومن شروح الشافية شرح الشيخ رضى الدين شارح الكافية ، وشرح

---

(١) استراباذ : بلدة من أعمال طبرستان

(٢) بغية الوعاة ص ٢٤٨

الجاربردى احمد بن الحسن فخر الدين المتوفى سنة ٧٤٦

والبحوث التى تضمنها كتاب الكافية تسير فى اصطلاحاتها وفى نهجها العام وفى ترتيبها بطريقة تشبه فى كثير من النواحى ما اتبعه الزمخشرى فى كتابه « المفصل » ، فقد بدأ بشرح الكلمة والكلام والاسم والمعرب والاعراب وعلاماته ، ثم تكلم على المرفوعات من الأسماء وعلى المنصوبات والمجرورات ثم على التوابع ، ثم عن النكرة والمعرفة وعن المذكر والمؤنث والمثنى والجمع وعن المشتقات . ثم تكلم عن الفعل وأقسامه وأنواعه ثم عن الحرف وشرح أنواع الحروف .

والمباحث التى تضمنها كتاب « الشافية » تسير فى مادتها وطريقتها على نهج يقرب مما نجده الآن فى كتب الصرف المعروفة . وإلى جانب ذلك بحوث فى مخارج الحروف وصفاتها وفى الخط أى الرسم الاملائى .

وكلا الكتابين على شكل متن موجز على الطريقة المتبعة فى تأليف المتون.

(كتب ابن مالك)

من الكتب التى ألفها ابن مالك فى النحو والصرف الفيته المسماة «الخلاصة» وكتاب لامية الأفعال ، وكلا الكتابين ذائع متداول بين الدارسين فى وقتنا الحاضر . وقد نال كتاب الخلاصة عناية كبيرة ممن تصدوا للتعليق عليه بالشروح والحواشى ولا سيما شرح ابن عقيل وشرح الاشمونى وحاشية الصبان . وقد أوضح الكتاب جميع المباحث النحوية مما يتصل بالمرفوعات والمنصوبات والمجرورات وبالمشتقات وبالفعل واعرابه ، وبالتصغير والنسب والوقف والامالة ، وبالاعلال والابدال والادغام ، وقد أتمت شروح هذا الكتاب وحواشيه ما يحتاج إليه من استيفاء الشروط ، وما يتطلب من شواهد . ويمتاز شرح الأشمونى بأنه يسوق فى ثنايا الموضوعات طائفة من التنبيهات التى تتضمن كثيراً من الفوائد والشوارد ، وتشتمل على مسائل لها شأن فى إتمام الشرح واستيعاب أطراف المسائل .

وأما كتاب «لامية الافعال» فهو نظم موجز أوضح فيه ابن مالك الافعال والمشتقات وما يتصل بها، وقد شرحه الشيخ بحرق اليمنى، وكتب الشيخ أحمد الرفاعى حاشية على هذا الشرح وهى متداولة، وشرحها علماء آخرون.

وهو يتضمن المباحث الآتية:

أبنية الفعل المجرد وتصاريفه ـ أحكام اتصال الفعل الماضى بتاء الضمير أو نونه ـ أبنية الفعل المزيد فيه ـ فعل ما لم يسم فاعله ـ فعل الأمر ـ أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين ـ أبنية المصادر ـ مفعل ومفعل بكسر العين وفتحها ـ مفعلة بفتح الميم والعين ـ اسم الآلة.

(كتب ابن هشام)

ظهر ابن هشام بعد ابن مالك بنحو مائة عام، وله مؤلفات كثيرة فى النحو أشهرها: قطر الندى وشذور الذهب وأوضح المسالك ومغنى اللبيب.

«١» والكتاب الأول مقدمة على هيئة متن ألم فيها المؤلف بأبواب النحو فى ايجاز وترتيب ثم شرحها.

«٢» والكتاب الثانى على هـــذا النهج أيضا فهو متن وشرح للمؤلف، والكتابان متقاربان فى الموضوعات وفى الطريقة وييسران بالمتعلم سيراً متدرجا سهل المأخذ.

«٣» والكتاب الثالث إيضاح لالفية ابن مالك قريب المأخذ بعيد عما يجىء فى المتون المنظومة من التواء فى العبارة أو غموض فى المعنى، وقد قال فى مقدمته:

«إن كتاب الخلاصة الالفية فى علم العربية كتاب صغر حجما وغزر علما غير أنه لإفراط الايجاز قد كاد يعد من الالغاز، وقد أسعفت طالبيه بمختصر يدانيه. وتوضيح يسايره ويباريه. أحل به ألفاظه وأوضح معانيه، وأحلل به تراكيبه وأنقح مبانيه، وأعذب به موارده وأعقل به شوارده. ولا أخلى منه مسألة من شاهد أو تمثيل، وربما أشير فيه إلى خلاف أو نقد

أو تدليل ، ولم آل جهداً فى توضيحه وتهذيبه . وربما خالفته فى تفصيله وترتيبه.

وقد شرح هذا الكتاب الشيخ خالد الأزهرى وعلق عليه الشيخ يس العليمى الحمصى بحاشية طبعت مع الشرح .

« ٤ » والكتاب الرابع وهو مغنى اللبيب كتاب قيم وله شأن فى البحوث النحوية . وقد عنى كثير من العلماء بشرحه والتعليق عليه واعراب شواهده . ويمتاز بالطريقه التى اتبعها مؤلفه فى ترتيب المباحث وتنظيم الموضوعات النحوية فقد حصر بحوثه فى ثمانية أبواب : « الاول » فى تفسير المفردات وذكر أحكامها «الثانى» فى تفسير الجمل وذكر أقسامها «الثالث» فى ذكر ما يتردد بين المفردات والجمل وهو الظرف والجار والمجرور وذكر أحكامها «الرابع» فى ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها « الخامس » فى ذكر الأوجه التى يدخل على المعرب الخلل من جهتها « السادس» فى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها «السابع» فى كيفية الاعراب «الثامن» فى ذكر امور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية .

وقد نحا ابن هشام فى طريقته وايضاح الموضوعات فى كتابه المغنى منحى ينم على ابتكار فى الاتجاه ، والسير على نهج بعض السابقين الأولين من علماء اللغة والنحو كابن جنى ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون حين تحدث فى مقدمته عن ابن هشام ، وقد أثبتنا عبارته من قبل (١).

وقد ذكر ابن هشام فى مقدمة كتابه المواطن التى كانت موضع اعتراضه على كتب النحاة ، والتى عمل على اجتنابها ، قال :

« واعلم أننى تأملت كتب الإعراب فاذا السبب الذى اقتضى طولها أمور (أحدها) كثرة التكرار ، فانها لم توضع لإفادة القوانين الكلية ، بل للكلام على الصور الجزئية ، فتراهم يتكلمون على التركيب المعين بكلام ،

---

(١) ص ١٣٠

ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الكلام ، فجمعت هذه المسائل ونحوها مقررة محررة فى الباب الرابع من هذا الكتاب ، فعليك بمراجعته ، فانك تجد به كنزاً واسعا تنفق منه . ومنهلا سائغا ترد وتصدر عنه .

(الثانى) إيراد ما لا يتعلق بالاعراب ، كالكلام فى اشتقاق الاسم(١) أهو من السمة كما يقول الكوفيون ، أم من السمو كما يقول البصريون ، والاحتجاج لكل من الفريقين ، وترجيح الراجح من القولين ، وكالكلام على ألفه ، لم حذفت من البسملة خطا ؟ وعلى باء الجر ولامه ، لم كسرتا لفظا؟ وكالكلام على ألف « ذا » الاشارية ، أزائدة هى كما يقول الكوفيون أم منقلبة عن ياء هى عين واللام ياء أخرى محذوفة كما يقول البصريون ؟

(الثالث) إعراب الواضحات . .

وقد تجنبت هذين الأمرين ، وأتيت مكانهما بما يتبصر به الناظر ، ويتمرن به الخاطر ، من إيراد النظائر القرآنية . والشواهد الشعريه ، وبعض ما اتفق فى المجالس النحوية . . »

هذه هى بعض الملاحظات على كتب النحو أبداها ابن هشام ، وعمل على اجتنابها . ولو أن فريقا من النحاة من بعده ساروا على نهجه فى التهذيب والتجديد ، لكان لعلم النحو الآن فى مسائله وبحوثه المتشعبة نظام آخر . وسندلى برأى فى ذلك بعد .

(كتب السيوطى)

السيوطى مؤلف له أثر فى علوم مختلفة . ومن كتبه المشهورة فى علم النحو كتاب « جمع الجوامع » وشرحه المسمى « همع الهوامع (٢) » وقد ألم هذا الكتاب باطراف المباحث النحوية وأوجه الخلاف فى مسائلها ، وحرص

---

(١) راجع المسألة الاولى من كتاب الانصاف

(٢) يقال همع الدمع والماء أى سال وكذلك الطل إذا سقط على الشجرة ، وسحاب همع (بكسر الميم) أى ماطر

مؤلفه على أن يحشد فيه جميع ما حوته كتب النحو من آراء، كما صرح بذلك في مقدمته، فقال:

« وبعد فان لنا مؤلفا في العربية جمع أدناها وأقصاها، وكتابا لم يغادر من مسائلها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ومجموعا تشهد لفضله أرباب الفضائل، وجموعا قصرت عنه جموع الأواخر والأوائل، حشدت فيه ما يقر الأعين ويشنف المسامع، وأوردته مناهل كتب فاض عليها همع الهوامع، وجمعته من نحو مائة مصنف فلا غرو ان لقبته جمع الجوامع، وقد كنت أريد أن أضع عليه شرحا واسعا كثير النقول، طويل الذيول، جامعا للشواهد والتعاليل، معتنيا بالانتقاد للأدلة والأقاويل، منبها على الضوابط والقواعد، والتقاسيم والمقاصد، فرأيت الزمان أضيق من ذلك. ورغبة أهله قليلة فيما هنالك، مع إلحاح الطلاب على في شرح يرشدهم إلى مقاصده، ويطلعهم على غرائبه وشوارده، فتخيرت لهم هذه العجالة الكافلة بحل مبانيه، وتوضيح معانيه، وتفكيك نظامه، وتعليل أحكامه. »

وقد قسم السيوطي كتابه هذا إلى مقدمة وسبعة كتب. فالمقدمة تضمنت تعريف الكلمة وأقسامها. والاعراب والبناء. وأنواع الاعراب في الأسماء والافعال. والنكرة والمعرفة وأنواع المعارف. والكتب السبعة تضمنت ما يأتي:

« الأول » في العمد وهي المرفوعات من الأسماء والافعال « والثاني » في الفضلات وهي المنصوبات « والثالث » في المجرورات وما حمل عليها وهي المجزومات « والرابع » في العوامل « والخامس » في التوابع « والسادس » في الأبنية « والسابع » في التصريف. ثم « خاتمة » في الخط أي الرسم الإملائي.

* * *

وبعد عصر السيوطي ظهرت كتب متنوعة في علم النحو كان أغلبها شروحا أو حواشي أو تعليقات على ما سبقها من مؤلفات. وهناك طائفه أخرى من

الكتب التي ألفت على نسق متدرج قريب المنال ليسد حاجة تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية . وأغلب هذه الكتب سار فى ترتيب المسائل النحوية مبتدئا بالكلام على الاسم ثم الفعل ثم الحرف ومايندرج تحت كل منها من أقسام ، ثم الكلام على بعض النواحى الصرفية كالتصغير والنسب والاعلال والابدال . وقد تنافس المتنافسون فى هذا النوع من الكتب ، وكانوا جميعا يسيرون وراء ماتصنع وزارة المعارف من مناهج فى القواعد النحوية .

* * *

هذه هى المادة العلمية التى تضمنتها الكتب النحوية فى مراحلها المختلفة ، سارت متدرجة فى نموها واكتمالها ، وسلك العلماء فى ترتيبها طرقا مختلفة ، ولكنها ترمى إلى غاية واحدة وهى البحث فى الكلمة وأحوالها وأوضاعها وضبط آخرها ، وفى العوامل التى ينشأ عنها ذلك ، وفى صوغ الكلمات واشتقاقها ، وفى الجملة وأنواعها .

* * *

أما الطريقة فقد سارت على نظم وأساليب مختلفة : فقد كانت كتب المتقدمين توضع متضمنة لما اهتدوا إليه من حقائق ، دون التجاء إلى متن وشرح، ومنهم من كان يلجأ إلى نظام الأمالى يضمنه أنواعا كثيرة من فنون اللغة والأدب .

وبعد أن اكتمل وضع علم النحو وتمت مسائله ، جاء فريق من العلماء فلم يجدوا موضعا للمزيد فاتجهوا إلى شرح كتب المتقدمين وتجلية ماعسى أن يكون فيها مما يتعاصى على أفهام من بعد العهد بينهم وبين العصور التى ألفت فيها هذه الكتب .

ثم جاء فريق آخر رأوا أن يتبعوا طريقة التدرج فى التأليف، لكى يقربوا الحقائق إلى أذهان المتعلمين فى مراحلهم المختلفة ، وليسهلوا عليهم حفظها ، فألفوا المتون كما فعل ابن مالك فى ألفيته المشهورة وفى لامية الأفعال ،

وابن آجروم ، محمد بن داود الصنهاجي ، فى مقدمته المشهورة المعروفة بالأجرومية، وكما فعل كثير من العلماء فى القواعد النحوية وغيرها من فروع الثقافة العربية والإسلامية .

ولقد كان وضع الحقائق العلمية على هذه الصورة المصغرة المضغوطة مدعاة إلى غموضها والتواء عباراتها فى بعض الأحيان، وقد يكون إلى جانب ذلك بعد عن استيفاء الشروط والجزئيات التى ترتبط بالقاعدة أو التى يتطلبها إتمام البحث. ولهذا لم يكن بد من وضع الشروح لهذه المتون ، فقام بذلك فريق من العلماء . وكان لهم فى النظام الذى اتبعوه طريقتان : إحداهما أن يكون الشرح مستقلا عن المتن كما فى شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، والثانية أن يندمج الاثنان وتتكون منهما عبارات متصلة متماسكة كما فى شرح الأشمونى على الألفية المذكورة .

وقد ذاع هذا النظام ، وهو نظام المتون والشروح، منذ عصر المماليك فى أواسط القرن السابع الهجرى ، ولا تزال الكتب التى ألفت على هذه الطريقة مستعملة إلى الآن فى كثير من علوم اللغة العربية وغيرها .

وفى القرن العاشر الهجرى ظهر نهج آخر فى التأليف وهو نظام الحواشى والتقارير . أما الحواشى : فهى إيضاح لبعض عبارات الشروح ومسائلها ، يجلى ما فى عباراتها من غموض، أو يكمل ما فيها من نقص فى الحقائق والشروط التى لم يستوفها الشرح . وأما التقارير : فهى تعليقات على الحواشى ، لإبداء ملاحظات أو إتمام نقص أو نحو ذلك . ولدينا كثير من هذه الأنواع فى علم النحو .

ومنشأ الحواشى هو أن نظام التعليم كان أساسه تدريس كتاب ، أو قراءته ، على حد تعبيرهم ، فكان المدرس يعالج المباحث التى يتضمنها المتن والشرح،فإذا صادف غموضا أو قصورا أو نقصا كتب على حاشية الكتاب ما يعالج به ذلك ، ثم يجىء من ينشرون الكتب فيطبعونه مع الشرح.وأحيانا

يجعلون الشرح على هامش الكتاب والحاشية فى الصلب ، وأحيانا يكون العكس ، وذلك على حسب مايقتضيه النظام الوضعى فى إخراج الكتاب .

فإذا تصدى أحد المدرسين لتدريس هذه المجموعة التى تتألف من متن وشرح وحاشية، أضاف إليها مايعن له من تقريرات تطبع مع هذه المجموعة فى بعض أطراف الكتاب أو فى ناحية بارزة منه على حسب مقدارها .

وقد يكون لهذا النظام فى التأليف بعض الفوائد من ناحية التدرج فى التحصيل العلمى : فالمبتدىء يقنع بدراسة المتن وبتفهم ما تضمن من حقائق موجزة ، ثم ينتقل إلى الشرح وهو أوسع وأوفى ، ثم يرقى إلى الحاشية والتقريرات ليستوفى ما فيها من تمحيص وزيادات ليست فى الشرح . وإلى جانب هذا كان حفظ المتن عن ظهر قلب عونا على الالمام بالحقائق العلمية وسهولة استحضارها والاجابة عن دقائقها .

ولكن هذا النظام له نقائصه وصعابه. وذلك أن المتون فى معظم أوضاعها تجىء مكدسة المعانى مختزلة الألفاظ ، وبعضها نظم يشوبه فى الغالب قصور العبارة والتواؤها وغموضها . وعلى ذلك يتشعب جهد المتعلم بين تحصيل الحقائق وتذليل مافى المتن من صعاب وغموض ، وإتمام ما فيه من نقص . وقد يكون العناء الذى يبذل فى ذلك مستنفدا لزمن كان المتعلم فى غنى عن إضاعته لو استقى المعلومات بطريقة مباشرة من عبارات تامة وافية .

وإن فريقا ممن يفضلون هذا النظام، يرون أن لطريقتهم هذه غاية تعليمية، ويقولون إن معالجة العبارات، والنقاش فى تأويل معناها ومبناها، والدوران حولها لتفهمها بطرق مختلفة، وتعرف نقصها وتذليل صعابها وتجلية غموضها ، كل هذا له فائدة فى شحذ الفكر وتكوين « ملكة الفهم » والمرانة على حل المعضلات اللفظية وعلى الجدل العلمى .

ولكننا نقول إن المجال فسيح للظفر بهذه الغاية فى ميدان الحقائق العلمية نفسها ، ولاسيما علم النحو ، فانه حافل بكثير من وجوه الخلاف بين البصريين والكوفيين وغيرهم ، وبآراء متعددة فى التأويل والتوجيه وفى العامل وفى

العلل النحوية وغير ذلك ،وفى كل هذا غنى إذا أردنا أن نفتح للمتعلمين بابا للتمرين على البحث والجدل ، وأن نوجد لهم ميدانا للنقاش اللفظى والحوار فى توجيه الكلمات وتأويل العبارات ، ففى ميدان الحقائق العلمية متسع لهذا الحوار الذى يدور حول العبارات والمعانى معا . هذا إذا أردنا أن نجعل من الكتب التى يقصد منها إلى شرح الحقائق النحوية أو غيرها ميدانا للجدل اللفظى الذى ينمى ما يسمى « ملكة الفهم »

على أن لتقويم الفكر ، وتنمية المواهب طرقا خاصة يعرفها علماء النفس ورجال التربية ، وميادين فسيحة تتصل بمظاهر الكون وما ينشأ عن النظر فى آيات الله وسننه من تثقيف للعقل وشحذ للفكر وتمرين للملاحظة وغير ذلك ، مما يقصد اليه المربون الآن ، وفى كل هذا ما يفى بالغاية المنشودة .

* * *

هذه آثار المتقدمين وجهودهم المحمودة الموفقة بذلوها خالصة لله وللعلم فلهم من الله حسن الجزاء .

فهل هناك نظام آخر نضع أصوله ، ويتجه إلى تنفيذه من يسعون إلى التجديد فى عصرنا الحاضر ؟

نجد بعض نواحى الاجابة عن هذا فى طائفة من الكتب الحديثة التى حاول مؤلفوها أن يعرضوا فيها القواعد النحوية على نهج جديد فى الوضع وفى الأسلوب وفى الطريقة . نجد هذا فى الكتب المدرسية لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، ونجد كذلك شيئا منه فيما اتجهت اليه همة بعض الباحثين الذين عنوا بدراسة النحو وتيسير مؤلفاته . وتذليل صعابها ، وتقريب متناولها فى المراحل التعليمية المتوسطة والعالية ،وسنرى ماتسفر عنه كل هذه الجهود، والزمن كفيل بالتمحيص وبتثبيت أحكم الطرق وأقومها .

وإنا فى هذ الصدد ندلى برأى فى الموضوع بكلمة نختم بها هذا الكتاب

كلمة ختامية

أشرنا إلى ما فى الكتب النحوية من مباحث ، وإلى الطريقة التى سلكها العلماء فى تدوين علم النحو وعرض مسائله . فهل من أوضاع أخرى نرقب أن نصل اليها فى تنسيق هذا العلم وتنظيم بحوثه ؟

إن سنة التدرج والرقى تجعل أملنا قويا فى أنواع من التجديد تتغلغل فى هذه الكتب النحوية فتجمع ما تفرق من عناصرها . وتنظم ما تناثر من مسائلها ، وتضم الاشباه والنظائر ، وتؤلف بين الحقائق التى تندرج تحت مختلف نواحى البحث ، لتتكون من كل ناحية منها شعبة دراسية تتجه الهمم إلى تمحيصها وتقوية دعائمها ، حتى ترسخ أصولها وتصبح فرعا علميا يوليه الباحثون عنايتهم ، على غرار ما تسير عليه الدراسات العالية فى جامعات الغرب وفى المعاهد التى تجعل لنواحى التخصص نصيبا من جهودها .

وقد تضمنت الكتب النحوية شعبا متعددة من البحث ، امتزج بعضها ببعض ، على الطريقه التى سار عليها بعض العلماء . وقصدوا فيها إلى استيفاء كل بحث من جميع نواحيه ، بذكر ما يتصل به ولو على سبيل الاستطراد ، أو لأدنى ملابسة كما يقولون .

ومن هذه الشعب ما يأتى :

(١) القواعد النحوية

(٢) وجوه الخلاف بين طوائف النحاة وبين علماء كل طائفة .

(٣) العلل والتأويلات النحوية .

(٤) العامل وفلسفته .

(٥) الشواهد وإعرابها وتوجيهها

(٦) اللهجات العربية وما يتصل منها باللغة وبالنحو .

(٧) البحث فى أصول بعض الكلمات مما يدخل فى نطاق فقه اللغة والمقارنات اللغوية .

(١) أما القواعد النحوية : فان تصنيتها من الخلاف والجدل أجدى وادعى إلى القصد اليها من أيسر السبل ، وإلى حصرها فى دائرة قريبة المنال، وبذلك يصبح استخدامها استخداما عمليا تطبيقيا سهلا هينا ، وقد ألفت على هذا النظام كتب كثيرة قام بها من قصدوا إلى تيسير النحو ، وتذليل صعابه وتقريب متناوله للدارسين فى مختلف مراحلهم ، من المبتدئين والشادين ، كما أشرنا إلى ذلك .

(٢) وأما الخلاف النحوى : فالأجدى أن تجمع مسائله وتستوفى مذاهبه ودقائقه فى كتاب خاص قائم بذاته ، على مثال مافعل ابن الانبارى فى كتابه « الانصاف فى مسائل الخلاف » . تجمع هذه المسائل بكل فروعها ، وتضمن آراء جميع الطوائف المختلفة للنحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ومغاربة وتنظم على طريقة علمية طبقا لغاية ترسم ، استعدادا لدراستها دراسة عميقة شاملة مقرونة بالنقد والتمحيص .

(٣) العلل والتأويلات النحوية :

يتعرض النحاة فى خلال شرحهم للقواعد النحوية ، لناحية نظرية وهى البحث فى الأسباب التى جعلت الناطقين باللغة العربية يلتزمون خصائصها وما فيها من وجوه الاعراب ، وهل لهذه الخصائص أساس منطقى .

وان البحث المستقل فى هذه الشعبة يفسح المجال للتمحيص والترجيح ولوزن هذه التعليلات النحوية وهذه العوامل التى تنسب لها وجوه الاعراب بميزان صحيح، ولإبداء الرأى فيها فى ضوء البحوث الحديثة فى علم اللغة وفلسفتها.

(٤) العامل وفلسفته :

وهو من الموضوعات التى ينبغى أن يعيد المجددون فيها النظر على أساس

من الأهداف العلمية للقواعد النحوية. وقد أشرنا فيما مضى إلى رأى ابن مضاء الأندلسى فى نظرية العامل وغيرها . ولعل هذا يوجه الباحثين إلى الخطوة الحاسمة للإصلاح .

(٥) الشواهد النحوية :

وقد أفردت هذه الشواهد بالفعل فى كتب مستقلة وضعها بعض العلماء ، وذلك على أساس ورودها فى كتب خاصة من كتب النحو ، مثل شواهد المغنى ، وشواهد شرح ابن عقيل ، وشواهد شرح الكافية فى خزانة الأدب للبغدادى ، وشرح أبيات المفصل للنعسانى، والدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطى وغير ذلك .

والذى نريده هو أن تجمع هذه الشواهد المتفرقة ، وان ترسم لذلك خطة تجعل دراستها منظمة ، ترمى إلى البحث فيما ورد على ألسنة الشعراء من عبارات وصيغ وطرائق فى ضبط الكلمات مما يجرى على غير المطرد ، ثم يرتب كل ذلك طبقا لنهج علمى يقصد فيه إلى تحقيق غايات نرسمها . وقد بدأ العلامة الألوسى بناحية من هذه النواحى فى كتابه الضرائر ، الذى جمع فيه أنواع الضرورات الشعرية ورتبها على نظام خاص .

فإذا عنينا بهذه النواحى ، وأثبتناها فى مؤلف واحد يضمها جميعا ،أوفى مؤلفات يتضمن كل منها نوعا خاصا ، كان ذلك أدعى إلى التعمق الدراسى، ونستطيع أن نمزج هذا بنوع من الدراسات الادبية والتاريخية تلقى ضوءا على الشعراء الذين وردت الشواهد فى شعرهم ، وما كان لبيئاتهم وقبائلهم من اتجاهات لغوية فى النطق أو الاداء أو أساليب التعبير أو غير ذلك مما يفسر هذه الظواهر التى نبه عليها النحاة . وبذلك تصبح دراسة هذه الشعبة شاملة وافية تجعل الدارس يصل النتائج بأسبابها والفروع بأصولها .

(٦) اللهجات العربية :

من القواعد النحوية والأوجه الاعرابية مايرجع إلى بعض اللهجات العربية ، وقد أشرنا إلى شىء من ذلك . وإن جمع هذه المسائل فى كتب

مستقلة ، وتوجيه العناية للبحث فيها ، يجعل هذه الدراسة متماسكة منظمة ، ويبعث على النظر فيها بطريقة علمية ، ويكون ذلك حلقة من سلسلة البحث الشامل فى لهجات العرب خاصة وفى علم اللهجات عامة .

ولهذه البحوث مكانتها ، وقد بدأت الدراسات الجامعية تعيرها اهتماما وتفردها بالدرس . وإن الفوائد التى نجنيها من ذلك عظيمة الأثر فى اللغة وفى القواعد النحوية .

(٧) المقارنات اللغوية والبحث فى أصول الكلمات :

تعرض النحاة لشىء من هذا فى مواضع متفرقة من بحوثهم النحوية ، وذلك مثل :

(ا) السين التى تدخل على المضارع أصلها سوف على مذهب الكوفيين.

(ب) ذهب الكوفيون إلى أن الاسم فى « ذا » و « الذى » هو الذال وحدها وما زيد عليها تكثير لهما .وذهب البصريون إلى أن الذال وحدها ليست هى الاسم فيهما . واختلفوا فى « ذا » فقال بعضهم أصله «ذى» بتشديد الياء ، ثم خففت وأبدلت الياء ألفا لكى يلتحق بكلمة « كى » .

(ح) ذهب الكوفيون إلى أن اللام الأولى فى « لعل » أصلية ، وذهب البصريون إلى أنها زائدة .

(ه) يقول بعضهم إن « لما » مركبة من «لم» الجازمة و « ما » الزائدة كما فى « إماً » ، ويقول بعضهم إنها بسيطة .

(و) «كم » . ذهب الكوفيون إلى أنها مركبة وأن أصلها « ما » زيدت عليها الكاف . وذهب البصريون إلى أنها مفردة موضوعة للعدد .

(ز) « لن » : قال الفراء : أصلها « لا » فأبدلت الألف نونا . ورد على ذلك بأن المعروف هو إبدال النون ألفا كما فى نون التوكد الخفيفة لا العكس .

وقال الخليل والكسائى : أصلها « لاأن » فحذفت الهمزة تخفيفا والألف للساكنين . ورد على ذلك بأن دعوى التركيب إنما تصح إذا كان الحرفان ظاهرين حالة التركيب كما فى « لولا » ، ولكن الظاهر هنا هو جزء من كل منهما . (١)

وفى ثنايا البحوث النحوية أمثلة من هذا النوع خاصة بالبحث فى أصول الكلمات والأدوات العاملة . وهى ناحية من نواحى الدراسات اللغوية . ومما يساعد على تفهمها فى عمق ودقة أن تمتزج بالمقارنات اللغوية وبالبحث فى الأصول السامية . وهذه فروع من الدراسات العلمية التى نشطت فى العصور الحديثة ، وقد عنى بها المستشرقون وأصبح لها شأن فى مناهج الدراسات العالية فى الجامعات الأوربية وفى معاهد الدراسات الشرقية . وقد بدأت هذه النواحى الدراسية تنال قسطها من العناية فى مصر ، وإنا نرقب أن يزداد نشاطها لتعم فائدتها .

***

هذه هى بعض البحوث التى عرض لها النحاة فى خلال معالجتهم للمسائل النحوية ، سردوها سردا متفرقا ، ومزجوا بعضها ببعض ، ودونوها على هامش بحوثهم ، إما بطريق الأصالة وإما على سبيل الاستطراد . والذى نريد أن تتجه العناية إلى تحقيقه هو إفراد كل شعبة منها فى كتب خاصة ، لتنال حظها من الدرس العميق والبحث الشامل .

وبذلك تبرز هذه الفروع العلمية مستقلة ، وتنال مكانتها بين الدراسات العالية ، ويهتم بها من يقصدون إلى التخصص والدرس المستفيض . ويصبح كل ذلك عونا على دراسة أصول اللغة العربية ومقارنتها بغيرها دراسة نجنى منها أطيب الثمر .

والله نسأل أن يسدد خطانا ويوفقنا إلى الخير والرشاد .

---

(١) مغنى اللبيب ج ١ ص ٢٠٣ وشرح الاشمونى ج ٣ ص ٢٠٩ .

الفهرس

طبع بمطبعة العلوم ١٦٣ شارع الخليج المصرى